

الفَتْرَةُ الْكُبْرَى

النَّائِكُونَ وَالْقَاسِطُونَ وَالْمَارْقُوفُونَ





www.haydarya.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفَتْرَةُ الْكُبْرَى

النَّاكِثُونَ وَالْقَاسِطُونَ وَالْمَارْقُوت



طَالِبُ السَّنَجَرِيِّ

جميع حقوق الطبع والترجمة محفوظة للناسر



الكتاب : الفتن الكبرى، الناكثون والقاسطون والمارقون

المؤلف : طالب السنجري.

الناسر : مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر.

الطبعة : الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

العنوان : بيروت-لبنان، ص.ب. ٦٤٨٦/١١٣-الحمراء هاتف مع فاكس 837507.



١ - الناجثون

وقعة الجمل :

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه
وعلى آله الطيبين الطاهرين .

وبعد :

فهذه محاولة استعرضت فيها أحداث وقعة الجمل التي حاكها الناكثون للعهد
الناقضون للميثاق والبيعة مع عليّ عليه السلام الذي يمثل رسول الله ﷺ في هديه وهواه
وفهمه . مبتعداً عن التحليق في التحليل تاركاً للقارئ ذلك من خلال النصوص
التي أعنته على ترتيبها موفراً له الوقت في الاختصار ليعيد إلى ذاكرته كم لنكت
البيعة ونقض العهد من آثار سلبية على سير الإسلام في الحياة . ثم لينظر أن هذه
الحركة الناكثة التي عاشت مع الإسلام في سنيه الأولى لم تعدو أن تكون فيما بعد
معلماً للنفاق والردة عن الدين .

أعاذنا الله تعالى من الردّة والنكوص والانكفاء ، ووفقنا لأن نكون مع عليّ
وآل عليّ معالم الهداية والحب والخير والصلاح .

والحمد لله ربّ العالمين

طالب السنجري

المستقبل القريب

قرأ عليّ عليه السلام المستقبل من خلال رؤاه الثابتة والقائمة على العلم الإلهي المخزون عنده، فكان يرى الأحداث ويصحر بها من دون أن تؤثر في حركته باتجاه تحريك الأمة وتثويرها، وإلا فغير عليّ الذي يقف على ما في كتاب الحياة المفتوح على مستقبلها الذي تتجاذبه أحداث لا تثبت عليه العقول ولا تقوم له القلوب فإنه ينكفأ ويقع في زاوية من زوايا بيته، بدون أن يشارك في هذا الخضم المتلاطم.

ولكن الحياة بتقلباتها المريرة شهدت لعلّي المواقف الجسورة والإقدام الرائد واللياقة على شقّ أمواج الحياة وفقاً عين الفتن، ذلك أنه الراعي والمسؤول الأول بعد رسول الله ﷺ على هذه الأمة التي مزّقتها فيما بعد الابتعاد عن هذا النبع الزلال والمنهج الربّاني السليم وكذلك الإهمال المتعمّد من قبل الحكومات المتعاقبة على كرسي السلطة بما تحمل من روح قبلية وعنصرية لا تنسجم مع الإسلام في تطلّعاته الإنسانية.

أضف أنّ هناك حالات بدت وكأَنَّها ثوابت عند جمهور من الناس هو الوقوف على خزعبلات الموقف لدى الخليفة الثالث عثمان أولاً وثانياً الحركة السريعة لأعداء الإسلام فيما هو التعايش السليم الذي دخلت فيه اليهودية والمسيحية بيوت الخليفة ومن يدور في فلكه، وفي هذا إنذار لتمييق الأمة وانقضاض عليها وعزل الإسلام عن الحياة وإقباره متى يجدوا إلى ذلك سبيلاً.

علماً أنّ علياً عليه السلام كان ينتظر لعلّ هناك من يستفيق فيستلم زمام المبادرة في حركة تصحيحية شاملة فتسدّ الأبواب بوجه من يريد سوءاً بالإسلام وأهله.

ولمّا لم تر الأمة غيره من يقوم بهكذا عمل اختارته دون سواه خليفة لإيمانها بآته الجدير بها والخليق والأقوى في مواجهة الصّراع الذي يعود برسم جاهلي مقبّيت فتكاثروا عليه يطلبون مبايعته، فأبى وامتنع، ليعلم صراحة لماذا غشوه أولاً،

وما هي الأسباب التي دفعتهم عبر هذا الاهتمام والهم الدائم .

فلما أن بينوا رأيهم في ذلك قبل منهم ليقبى الإقرار ملزماً لهم في خط إمامته وخلافته، وتبقى الكلمة مسؤولة عندما يحتدم الصراع وقد لا يكسبوا الموقف لصالحهم في وقت قصير فقال عليه السلام :

دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تثبت عليه العقول ولا تقوم له القلوب .

قالوا له : ننشدك الله ألا ترى الفتنة ألا ترى ما حدث في الإسلام؟ ألا تخاف الله؟

فقال : قد أجبتكم لما أرى منكم واعلموا أنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم .

فقالوا : ما نحن بمفارقيك حتى نباعك .

قال : إن كان لا بد من ذلك ففي المسجد إن بيعتني لا تكون خفياً ولا تكون إلا عن رضا المسلمين وفي ملاء وجماعة^(١) .

إذن فعلي عليه السلام أمام حالات منها درايته ورؤيته عن المستقبل وما يتمخض عن أحداث جسام، ومنها الواقع الإسلامي التي مزقته الخلافة عبر ممارساتها وترهلاتها ومنها : مناشدة المسلمين له حيث لا يرون إلا إياه لا باعتباره الجامع لمواصفات الكمال بل باعتباره الأقوى في ردم المفساد والقضاء على التسيب الذي تجتمع كلمة الناس جميعاً في القضاء عليه . وإلا فالواقع الذي عاشه علي عليه السلام في تلك الفترة تتوزع بيوتات لها الشأنية في المدينة وتتعامل مع الإسلام وأحداث الحياة من وجهة نظرها وهناك مظلومون عاشوا حياة بائسة حزينة شعروا بالضعف أمام هذه الوجودات طول وجود الخلافة التي كانت تقر لهم بهكذا حياة .

ولهذا فعلي عليه السلام حين أراد المسلمون مبايعته فباعته فباعته من الستة أهل الشورى أولاً، وانحياز الطبقات الضعيفة والواعية إليه باعتباره الأمل المنشود لهم بعد كل حدث يشن لهم فيه اختياره وانتخابه ثانياً .

(١) انظر تاريخ الطبري : ٤٣٤/٤ .

وكان لأهل الوجودات الأخرى تحفظها الواضح وإن بايعوه إلا أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان ينتظر منه وهو في ظل ظروفه غير الطبيعية أن يصانع هذه الوجودات ولو إلى فترة، إلا أننا رأيناه وفي أول كلمة له أصحح بحقيقة ما يحتفظ به لأنه يعلم حقاً أن الوجودات التي وقفت للدعوة في أبان أمرها هي نفسها اليوم تعيش معه وبمستوى الروح العدوانية تجاه أي صفاء ونقاء إسلامي.

وكان له معهم وبأسلوب واضح كشف الواقع وقراءة المستقبل القريب وما تتجاذبه من طوارق ودواهي ليهتدي ويرعوي من اهتدى عن بيته ويضل من ضل عن بيته.

فمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم أن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثالات حجزته التقوى عن تفخم الشبهات.

ألا وإن بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيه ﷺ والذي بعثه بالحق لتبليّن بلبلة ولتغربلن غربلة ولتسلطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم ولتسبقن سابقون كانوا قسّروا وليقصرن سابقون كانوا سبقوا والله ما كتمت وشمة^(١) ولا كذبت كذبة ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم.

ألا وإن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحمت بهم في النار.

ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمته فأوردتهم الجنة^(٢).

هذا هو علي عليه السلام في إشاراته الهادية ومكاشفاته لأهل البصيرة والوعي وقراءته لمستقبل الأمة القريب والبعيد.

إذن فموقفه واضح ولمن يريد أن يخطو خطوة في طريق الله وخلاص الأمة من واقعها المرير عليه أن يهضم ذلك ويمثله كأقوى من ترى الأحداث مصارعاً لها ومقاوماً لأعاصيرها الهوجاء. ولهذا تساقط المترفون الضعاف ومن لا يقوى على عراك الحياة فمنهم من رضي لنفسه بالذل فقبع في بيته ينتظر فرجاً ومنهم اشترى الحياة الدنيا.

فمن كل ما تقدّم من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام كان يتخلص في القضاء

(١) الرشمة: الكلمة.

(٢) نهج البلاغة خطبة: ١٦.

على الروح القبلية والروح العنصرية التي نمت وترعرعت في أحضان الخلافة بعد أن هجعت طويلاً عندما جاء الإسلام.

لأن هذه الروح القبلية التي كانت تهدف إلى انقسامات المجتمع الإسلامي لتبقى هي بأشخاصها القائمين على بعثها وتحريكها تمثل الإمتداد الحي لحركة الإشكال القديمة الجاهلية.

وبالتالي فإن لاقت حظاً ونجاحاً فإنها ستدبل وتضعف مؤسسة الخلافة الجديدة التي تعلن الإسلام هو المنهج والمحور الذي تدور عليه رحي العلاقات الإنسانية.

إذن لماذا رفض في أول الأمر عندما غشوه الناس يطلبون بيعته؟

رفض الإمام عليه السلام ذلك لأنه كغيره كان يرقب مسيرة هذا المجتمع تلك المسيرة المتعثرة، فلعل هذا المجتمع بعد هذا الانحطاط الذي مرّ به أن يمرّ بمرحلة انتقالية إلى حيث القيم والمثل الإسلامية العليا، وإذا حدث مثل ذلك عبر موج جماهيري عارم وثورة شعبية تعصف بآمال رؤساء القبائل والتجمعات العنصرية وبالتالي فهو فرد قائم على مدرسة يشارك هذا الهيجان الذي سيمحض عن شيء مقبول. وستأتيه الخلافة بدون أن يلاقي تألياً من مراكز قوى جاهلية.

أضف إلى أن الإمام حين رفض الخلافة في أول الأمر لشعوره بأن هذا الهيجان باتجاه التصحيح لا يسعه أن يلتي طموح الناس ومراكز الدولة قد استشرى فيها الرأي العقيم القائم على الانتماء إلى القبيلة إن لم نقل على التفاهم في عرقلة حركة الإسلام من خلال هذه المراكز. وهذا إن لاحظناه بعمق وجدناه على رؤوس القوم من الرعيل الأول والقيادات الفوقية في المجتمع.

أما القيادات من الدرجة الثانية فهي وإن لم ترغب المشاركة مع هذا الطفح إلا أنها لاذت بالصمت وهو تعبير عن التأييد المبطن له ولكنه متحفظاً ولهذا يشير الإمام عليه السلام إلى هؤلاء الصنف من الناس:

«خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل»^(١).

(١) نهج البلاغة : باب الحكم / ١٨.

وكان لهؤلاء ولاء خاص من قبل الناس على أساس أنهم رموز في قبائل وقادة في تجمعات ولهم صحبة مع رسول الله ﷺ كما من قاد الحركة الناكثة أيضاً.

ولهذا لا يصدق أحد من الناس أن الذين خرجوا على علي عليه السلام بما يملكون من هذه الملاكات التي تشيع وتفسح لهم في مجتمعهم خصوصيات التقدم والفضيلة أنهم على ضلال.

نعم قليل من الأمة من لم يعر أهمية لهذه الملاكات إلا ملاك التقوى والعمل والموالة وتقديم مصلحة الأمة والإسلام على غيرها من المصالح.

ولقد واجه الإمام عليه السلام هذا النمط من الاستفسارات حول هذه الوجودات قال له الحارث بن حوط: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ قال له الإمام عليه السلام:

«يا حارث إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت إنك لم تعرف الحق فتعرف من أنه ولم تعرف الباطل فتعرف من أنه».

ولم يهضم الحارث هذه القاعدة ولم يستجب لها لأنها ستحدد له موقفاً يخرج به عن إطار قبيلته وتعارفاته.

فقال له: فإني أعزل مع سعد بن مالك وعبد الله بن عمر.

فأجابه علي عليه السلام:

«إن سعداً وعبد الله بن عمر لم ينصرا الحق ولم يخذلا الباطل»^(١).

ثم حذر أمير المؤمنين عليه السلام من مآسي عظيمة ستزل بالأمة ولا تبقي أحداً فمن فساد اجتماعي إلى مسخ حضاري لأن هذه البلية المتمثلة في الوجود الجاهلي المموه بالإسلام قد عاد كما كان في عهده الجاهلي.

وطبيعي لمن لا يملك وعياً للتاريخ ولا إدراكاً بما ستؤول إليه الأمة لا يجد في ذاته دفعا ومرارة باتجاه علي عليه السلام.

(١) نهج البلاغة: باب الحكم/ ٢٦٢.

(٢) نهج البلاغة: خطبة/ ٣٣.

ولمّا إن بدأت الحياة في ظلّ الخلافة الجديدة التي تتّسم بالعمق والحرص على الإسلام التجأ إليها الغيارى على الدين والمضحين دونه ممّن كانوا على عهد رسول الله ﷺ في خطّ الإسلام الواضح.

وقد عبّر الإمام عليّ عليه السلام عن هذه الروح وتلك الوقفة في الحياة عن نفسه بما هو المصداق المائل لكلّ خطوة باتجاه الله تعالى فقال:

«مالي ولقریش! والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلتهم مفتونين وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم»^(١).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٥٩٩/٢.

منطق الخليفة الجديد

لَمَّا بُويع عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَسْجِدِ وَغَطَّتِ الْأَفْرَاحُ مَحْيَا الْمَحْرُومِينَ وَالْحَرِيصِينَ عَلَى الْإِسْلَامِ كَانَ لَا بَدَ لِهَذَا الرَّئِيسِ الْجَدِيدِ أَنْ يَخْطُبَ الْمُسْلِمِينَ، وَلِلخُطَابِ الْأَوَّلِ لَهُ الْأَثَرُ الْكَبِيرُ فِي النُّفُوسِ وَمِنْهُ يَعْرِفُ النَّاسُ خُطَّةَ عَمَلِ الْخَلِيفَةِ الْمُتَخَبِّ كَمَا هُوَ الْمُتَعَارَفُ.

فَصَعِدَ الْمَنْبَرُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ يَوْمِ الْبَيْعَةِ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ لِإِحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ . فَحَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنُ عَلَيْهِ وَذِكْرُ مُحَمَّدٍ فَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ ذَكَرَ الدُّنْيَا فَزَهَّدَهُمْ فِيهَا وَذَكَرَ الْآخِرَةَ فَرَغَّبَهُمْ إِلَيْهَا ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ لَمَّا قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَخْلَفَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ ، ثُمَّ اسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَعَمِلَ بِطَرِيقِهِ ، ثُمَّ جَعَلَهَا شُورَى بَيْنَ سِتَّةٍ فَأَفْضَى الْأَمْرَ مِنْهُمْ إِلَى عُثْمَانَ فَعَمِلَ مَا أَنْكَرْتُمْ وَعَرَفْتُمْ ثُمَّ حَصَرَ وَقَتْلَ ثُمَّ جِئْتُمُونِي فَطَلَبْتُمْ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ لِي مَا لَكُمْ وَعَلَيَّ مَا عَلَيْكُمْ وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ الْبَابَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَأَقْبَلْتُ الْفِتْنَ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا أَهْلُ الصَّبْرِ وَالْبَصْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ الْأُمُورِ وَإِنِّي حَامِلُكُمْ عَلَى مَنَهِجِ نَبِيِّكُمْ ﷺ وَمُنْفَذُ فَبِكُمْ مَا أَمَرْتُ بِهِ إِنْ اسْتَقَمْتُمْ لِي وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

أَلَا إِنَّ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ كَمَوْضِعِي مِنْهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فَامْضُوا لَمَّا تَوَمَّرُونَ بِهِ وَقِفُوا عِنْدَمَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرِ حَتَّى نَبَيِّنَهُ لَكُمْ فَإِنْ لَنَا عَنْ كُلِّ أَمْرٍ مَنَكْرٌ تَنْكُرُونَهُ عَذْرًا .

أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ مِنْ فَوْقِ سَمَائِهِ وَعَرْشُهُ أَنِّي كُنْتُ كَارِهًا لِلْوِلَايَةِ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى اجْتَمَعَ رَأْيُكُمْ عَلَيَّ ذَلِكَ لِأَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «إِنَّمَا وَالِ وَلِي الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي أَتَمُّ عَلَى حَدِّ الصُّرَاطِ وَنَشَرَتْ الْمَلَائِكَةُ صَحِيفَتَهُ فَإِنْ كَانَ عَادِلًا أَنْجَاهُ اللَّهُ بِعَدْلِهِ وَإِنْ كَانَ جَائِرًا انْتَقَضَ بِهِ الصُّرَاطُ حَتَّى تَنْزِيلُ مَفَاصِلُهُ ثُمَّ يَهْوِي إِلَى النَّارِ فَيَكُونُ أَوَّلَ مَا يَنْتَقِيهَا بِهِ أَنْفُهُ وَحَزَّ وَجْهُهُ وَلَكِنِّي لَمَّا

اجتمع رأيكم لما يسعني ترككم.

ثم التفت يميناً وشمالاً فقال:

ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار وركبوا الخيول الفارحة واتخذوا للمصائف الروقة فصار ذلك عليهم عاراً وشاراً إذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون حرمتنا ابن أبي طالب حقوقنا.

ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته فإن له الفضل النير غداً عند الله وثوابه وأجره على الله وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصدق ملتناً ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً وما عند الله خير للأبرار.

وإذا كان غداً إنشاء الله فاغدوا علينا فإن عندنا مالاً نقسمه فيكم ولا يتخلفن أحد منكم عربي ولا عجمي كان من أهل العطاء أو لم يكن إلا حضر إذا كان مسلماً حرّاً أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم^(١).

فلقد استعرض الإمام عليه السلام في هذه الخطبة الفاصلة وهذا المنطق الواضح أموراً هي في القمة من التفكير في المرحلة الزاهنة التي يعيشها المسلم آنذاك يبتغي من وراء ذلك إيقافهم على الخطأ وتدارك الخطأ إن هم يريدوا الحياة حرة كريمة في ظل حكومته فمن استخلاف أبي بكر الذي كان استخلافه فلتة إلى مجيء عمر فاجتهد وشرع وفعل ما فعل بروحي منه وبارادة ليس لها علاقة بدين.

ثم استخلاف عثمان فعمل المناكير حتى أن قطاعاً من الناس كان بالأمس خامللاً استيقظ وثار عليه مع حفنة من أحرار الأمة.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام بعد مقتل عثمان يرى أن سماء الإسلام ستلتفع بالسحب المظلمة بعضها فوق بعض ولا يتجاوزها إلا أهل الصبر والبصر والعلم.

ثم لا يعدو علي أن يتهادى خلف رسول الله ﷺ في هديه وسمته ومنهاجه وسنته وسيرته.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٥٩٩/٢

ولقد عاش أناس بعد رحيله ﷺ في ظلّ خلافة الخلفاء الثلاثة في حياة متميزة فركنوا إليها واستعذبوها..

وأصبح عليّ ﷺ بين أن يحرك الواقع من خلال الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ وهو الذي تنتظره القطاعات الكبيرة المحرومة في الأمة ويبقى لهؤلاء حياتهم الباذخة وفي ذلك ضياع المبادئ والإقرار بالفساد، وبين أن يقطع الطريق عليهم ويسوي الحياة على أساس عدالة السماء وكان هذا الذي حدث.

فأهم ما يثير المترفين هو التسوية في العطاء وكان هو أول عمل عمله في اليوم الثاني ليصحر بالرافضين أمام الملأ من الناس على أنهم أهل دنيا لا دين وأهل جاهلية لا إسلام.

يوم العطاء وبدء المعارضة

فلما كان من الغد غداً عليه السلام وغدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه ابدأ بالمهاجرين فنادهم وأعط كل رجل مئة من ثلاثة دنانير ثم ثن بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك. ومن يحضر من الناس كلهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك.

فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم. فقال: نعطيه كما نعطيك.

فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير ولم يفضل أحداً على أحد وتخلف عن هذا القسم يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ورجال من قريش وغيرهم.

وسمع عبيد الله بن أبي رافع عبد الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد أما خفي علينا أمس من كلام علي ما يريد؟

فقال سعيد بن العاص - والتفت إلى زيد بن ثابت - إناك أعني واسمعي يا جارة.

فقال ابن أبي رافع لسعيد وابن الزبير: إن الله يقول في كتابه: ﴿ولكن أكثرهم للحق كارهون﴾^(١).

ثم إن ابن أبي رافع أخبر علياً عليه السلام بذلك، فقال عليه السلام:

«والله إن بقيت وسلمت لهم لأقيمتهم على المحجة البيضاء وللمطريق الواضح قاتل الله ابن العاص لقد عرف من كلامي ونظري إليه أمس أنني أريده وأصحابه

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٣.

مَمَّنْ هَلَكَ فِيمَنْ هَلَكَ»^(١).

ثُمَّ إِنَّ الزَّبِيرَ وَطَلْحَةَ جَلَسَا نَاحِيَةَ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ طَلَعَ مَرْوَانَ وَسَعِيدَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ فَجَلَسُوا إِلَيْهِمَا فَتَحَدَّثُوا نَجِيًّا سَاعَةً، ثُمَّ قَامَ الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ فَجَاءَ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ:

يَا أَبَا الْحَسَنِ إِنَّكَ قَدْ وَتَرْتَنَا جَمِيعاً.. أَمَّا أَنَا فَقَتَلْتُ أَبِي يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا وَخَذَلْتُ أَخِي يَوْمَ الدَّارِ بِالْأَمْسِ، وَأَمَّا سَعِيدٌ فَقَتَلْتُ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْحَرْبِ وَكَانَ ثَوْرَ قَرِيشٍ، وَأَمَّا مَرْوَانٌ فَسَخَفْتُ أَبَاهُ عِنْدَ عُثْمَانَ إِذْ ضَمَّهُ إِلَيْهِ وَنَحْنُ إِخْوَتُكَ وَنَظَرَاؤُكَ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ وَنَحْنُ نَبَايِعُكَ الْيَوْمَ عَلَيَّ أَنْ تَضَعَ عَنَّا مَا أَصْبَنَاهُ مِنَ الْمَالِ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ وَأَنْ تَقْتُلَ قَتْلَتَهُ وَإِنَّا إِنْ خَفْنَاكَ تَرَكْنَاكَ وَالتَّحَقْنَا بِالشَّامِ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ وَتَرِي إِيَّاكُمْ فَالْحَقُّ وَنَرَكُمُ وَأَمَّا وَضَعِي عَنْكُمْ مَا أَصْبَنْتُمْ فَلَيْسَ لِي أَنْ أَضَعَ حَقَّ اللَّهِ عَنْكُمْ وَلَا عَنْ غَيْرِكُمْ.

وَأَمَّا قَتْلِي قَتْلَةَ عُثْمَانَ فَلَوْ لَزِمَنِي قَتْلُهُمُ الْيَوْمَ لَقَتَلْتُهُمْ أَمْسٌ وَلَكِنْ لَكُمْ عَلَيَّ إِنْ خَفْتُمُونِي أَنْ أُوْنَكُمْ وَإِنْ خَفْتَكُمْ أَنْ أُسَيِّرَكُمْ.

فَقَامَ الْوَلِيدُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَحَدَّثَهُمْ وَافْتَرَقُوا عَلَيَّ إِظْهَارَ الْعَدَاوَةِ وَإِشَاعَةَ الْخِلَافِ^(٢) إِذَنْ هِيَ سَنَةٌ جَدِيدَةٌ لَمْ يَعْهَدْهَا الْمُتَرْفُونَ الْمُؤَيَّدُونَ لَخَطِّ الْخِلَافَةِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمَنْ يَتَأَمَّلْ شِدَّةَ التَّوَثُّبِ عَلَيَّ هَذَا الْحَطَامِ وَالْعِرَاكِ الشَّدِيدِ عَلَيَّ أَنْ يَصُبَّ فِي جُيُوبٍ مَخْصُوصَةٍ يَدْرِكُ أَنْ لَا مَبَادِيءَ هُنَاكَ تَسُوقُ الْقَوْمَ وَلَا اهْتِمَامَ بِالْأُمَّةِ الَّتِي ضَحَّتْ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَبَادِيءُ النَّبَوِيَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيَّ وَاقِعُهُمُ الْمَعَاشِي.

وَلَمْ يَبْقَ مِنْ يُمَثِّلُ الرِّسَالَةَ فِي أَعْلَى ذُرَاهَا الْإِنْسَانِيَّةَ الْعَادِلَةَ إِلَّا خَطُّ الْإِمَامَةِ وَالْوَاقِعُ يَشْهَدُ بِذَلِكَ.

فَإِنْ يَكُنِ التَّسْوِيَةُ فِي الْعَطَاءِ هُوَ الدَّافِعُ لِلْخُصُومَةِ وَالْوُقُوفُ ضِدَّ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَمَا أَقْبَحَهُ مِنْ دَافِعٍ.

وَإِنْ تَكُنِ الْعَصْبِيَّةُ الْقَبْلِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَدْعُو الْقَوْمَ إِلَى اتِّخَاذِ مَوْقِفٍ سَلْبِيٍّ مِنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَقَدْ أَسْكَنَهَا الْإِسْلَامُ بِعَالَمِيَّتِهِ وَرَبَّانِيَّتِهِ.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٥٩٨/٢.

(٢) نفس المصدر السابق.

وإن يكن الحرص على الخلافة، وامتهانها للأغراض الدنيوية البحتة . فلقد انتخبت الأمة علياً عليه السلام لضرورة قائمة ولم يكن الراغب بها .
إذن حركة التمرد ضده يجدر أن يلسط عليها ضوء آخر لتتكشف الأقنعة من خلاله ويبدو الوجه الحقيقي لها!!!

التضحية من أجل المبدأ

لا شك أنَّ الحياة الإسلامية أضحت هزيلة في أكثر من موقع وانحسر الإسلام في زاوية لا يصلها الضوء إلا قليلاً، لأن الحياة الدنيا قد صبَّت على قريش صَباً فمن صحابي كان مع رسول الله ﷺ في تلك الضائقة إلى انفتاح غير محدود في ظل الخلفاء ومن شبح الفاقة إلى عالم الغنى والثروة. فهل يبقى أمام هذه الحياة الناعسة للمفتون بها من موقف وكلمة مسؤولة. ثم هل يرتجى الدين والانتصار له والتضحية دونه من أهل الدنيا؟

وهكذا فقد أصبح عليّ عليه السلام المقياس لمن يريد الله أو الشيطان فوضع الجميع على المحك وأمام المسؤولية.

وعليّ عليه السلام يعلم أنه سيكون ضحية مبادئه وسيدفع الضريبة باهضة إلا أنه قد جئد نفسه لذلك من أجل أن يكون الإسلام قوياً وتعود معالم عدالته إلى الحياة وأن لا يفتقده المستضعفون عندما يكون الحاكم إسلامياً والمجتمع إسلامياً.

وقد خسر جمع من الصحابة حظهم في دفع الإسلام من خلال عليّ عليه السلام إلى الواقع الإسلامي. أمثال: سعد وابن مسلمة، وأسامة، وعبد الله، وحسان بن ثابت^(١).

وأصرَّ عليّ عليه السلام على تنفيذ خطة عمله وقرارات حكومته وهذد كل من يعترض على الحق وكان يقول:

«ألا وإن كل قطيعة أقطعها عثمان أو مال أخذه من بيت مال المسلمين فهو مردود عليهم في بيت مالهم ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرق في البلدان فإنه إن لم يسهه الحق فالباطل أضيق عليه»^(٢).

(١) انظر الإرشاد للمفيد: ص ١٣٠.

(٢) نهج البلاغة.

وإنَّ أخوف ما يخاف على أي تجربة جديدة تريد أن تشقَّ طريقها بسلام هو من أولئك الذين يخلطونه عملاً صالحاً بآخر سيئاً ابتغاء مرضاة الجميع وكأنَّ الله سبحانه قد جعل صلة بين الحقِّ والباطل.

فعمد أولئك إلى معاتبة عليٍّ عليه السلام في تسويته العطاء ظناً منهم أنَّ لهم في قلب عليٍّ عليه السلام مكاناً. وفي وجدانه لهم فسحة.

فقال عليه السلام : «أناأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه . . .

لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال لهم.

ألا وإنَّ إعطاء المال في غير حقِّه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله.

ولم يضع امرؤ ماله في غير حقِّه وعند غير أهله إلاَّ حرمه الله شكرهم وكان لغيره وذمهم»^(١).

فأمام هذا الموقف وإجراء هذه الخطَّة العادلة بهذا التصميم وعبر هذه الروح فلا يبقى في ساحة العمل من أجل الحقِّ إلاَّ زمرة قليلة كان قد أعدَّها عليٌّ عليه السلام لخوض هذه المهمَّة ولأداء دور تحكيم الدِّين في حياة الناس . . أضاف إلى الحاجة الملحة من قبل قطاع من الناس عاشوا الحرمان والضياع بكلِّ أشكاله هم الآخرون العضد المفدَّى لهذه التجربة الرائدة وهذه الروح الجديدة . كلَّ أولئك هم المضحون مع عليٍّ من أجل المبدأ الصالح الذي رفع شعاره عليه السلام .

بلاغ جديد

لقد حصر علي عليه السلام أهل الأكراش المتهذلة والنوايا المدخولة في زاوية المال وكان أول عمل قام به هو إثارتهم عبر التسوية في العطاء، ف شعر أولئك بالمنقصة إن ظلوا في هذه الزاوية الحرجة، فعبّروا عن معارضتهم للخلافة الجديدة في عدم مؤاخذتها قتلة الخليفة السابق وجعلوه الشعار الذي يحومون حوله ويناشدون المغفلين من الناس به فيما هي أهداف يستبطنها القوم واضحة لمن تأمل .

فاتسعت لهم المساحة من وراء ذلك فأخذوا يتحركون فيها ليوقدوا نيران الفتنة في المجتمع ويضعوا العقابيل في طريق علي عليه السلام .

ولما لم يجد الإمام علي عليه السلام من طريق لإرضاءهم . أو ارتكانهم لمبادئ الإسلام من خلاله أصدر بلاغاً في حقهم عرّف به شخصيتهم وحدّد فيه هويتهم .

فقال عمار لأصحابه قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم فإنه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف والطعن على إمامهم وقد دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير والأعسر العاق يعني طلحة .

فقام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم فدخلوا على علي عليه السلام فقالوا: يا أمير المؤمنين انظر في أمرك وعاتب قومك هذا الحني من قريش فإنهم قد نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك وقد دعونا في السر إلى رفضك هداك الله لرشدك وذاك لأنهم كرهوا الإسوة وفقدوا الأثرة ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوك وعظموه وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقة للجماعة وتآلفاً لأهل الضلالة فرأيك .

فخرج علي عليه السلام فدخل المسجد وصعد المنبر فقال:

أما بعد فإننا نحمد الله ربنا وإلهنا وولينا وولي النعم علينا الذي أصبحت نعمه

علينا ظاهرة وباطنة امتناناً منه بغير حول منا ولا قوة ليلبونا أنشكر أم نكفر فمن شكر زاده ومن كفر عذبه فأفضل الناس عند الله منزلة وأقربهم من الله وسيلة أطوعهم لأمره وأعملهم بطاعته وأتبعهم لسنة رسوله وأحياهم لكتابه ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله وطاعة الرسول.

هذا كتاب الله بين أظهرنا وعهد رسول الله ﷺ وسيرته فينا لا يجهل ذلك إلا جاهل عاند عن الحق منكر، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١).

ثم صاح بأعلى صوته: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم بل الله يمتنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين.

ثم قال: أنا أبو الحسن - وكان يقولها إذا غضب - ثم قال:

ألا إن هذه الدنيا التي أصبحت تمنونها وترغبون فيها وأصبحت تغضبكم وترضيكم ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له فلا تفرنكم فقد حذرتموها واستتموا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله والذلّ لحكمه جلّ ثناؤه.

فأما هذا الفيء فليس لأحد على أخيه فيه أثرة فقد فرغ الله من قسمته فهو مال الله وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتولّ كيف شاء فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكمه لا وحشة عليه^(٢).

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) راجع المعيار والموازنة: ص ١٠٩ الطبعة الأولى.

خطوة على طريق الحلّ

مع ما أشار إليه أمير المؤمنين في بلاغه الذي مرّ فقد أرسل إلى طلحة والزبير اللذين يمثلان الوجه المعبر عن المعارضة لعلّهما من وراء الحوار القائم بينه وبينهم يرجعان عن أمرهما وتعود المياه إلى مجاريها الطبيعية وينطلق الجميع لرضى الصف الإسلامي وتسوية الحياة على أساس الإسلام.

فبعث عمار بن ياسر وعبد الرحمان بن حسل القرشيّ إليهما وهما في ناحية المسجد فأتياهما فدعواهما فقاما حتّى جلسا إليه فقال لهما:

نشدتكما الله هل جئتماني طائعين للبيعة ودعوتماني إليها وأنا كاره لها؟ قالوا: نعم.

فقال: غير مجبورين ولا مقسورين فأسلمتما لي بيعتكما وأعطيتماني عهدكما؟ قالوا: نعم.

قال: فما دعاكما بعد إلى ما أرى؟

قالوا: أعطيناك بيعتنا على أن لا تقضي في الأمور ولا نقطعها دوننا وأن تستشيرنا في كل أمر ولا تسبذ بذلك علينا ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت فأنت تقسم القسم وتقطع الأمر وتمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا!!

فقال: لقد نقمتمنا يسيراً وأرجأتما كثيراً فاستغفرا يغفر لكما ألا تخبراني أذفعتكما عن حقّ وجب لكما فظلمتكما إياه؟ قالوا: معاذ الله.

قال: فهل استأثرت من هذا المال لنفسي بشيء؟ قالوا: معاذ الله.

قال: أفوقع حكم أو حقّ لأحد من المسلمين فجعلته أو ضعفت عنه؟ قالوا: معاذ الله.

قال: فما الذي كرهتما من أمري حتّى رأيتما خلافي؟

قالوا: خلافتك عمر بن الخطاب في القسم إنك جعلت حقنا في القسم كحق

غيرنا وسويت بيتنا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى بأسياقنا ورماحنا
وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا وظهرت عليه دعوتنا وأخذناه قسراً وقهراً ممن لا
يرى الإسلام إلا كرهاً.

هذا هو مبلغ الفهم عند خصوم عليّ عليه السلام للإسلام وكأنه إرث يتوارثونه
وحق يتقاسمونه وتلك آثار التربية المعوجة التي تلقاها قطاع من الناس في ظل
الخلافة.

فكيف يستسيغون علياً عليه السلام وهو القائم على رؤوسهم بمنطق العدالة وشرع
الإسلام ثم هم لم يجدوا علياً عليه السلام متهاوناً وضعيفاً أمام إعصارهم الذي واجهوه
به بل هو ثابت الجأش قوي الهمة في مقاومته والحيلولة دون نفوذ سمومه في حياة
المسلمين ما أمكن إلى ذلك.

ثم لا يجد أدنى مسلم يملك غيرة على دينه وما تمرّ به الأمة من محنة غياب
قائد يأخذ بيدها إلى حيث استقامتها ورشدها فلما أن اختارت موضع أملها ومحقق
إرادتها علياً عليه السلام رأينا هؤلاء وقد انطوا على أنانية مقبنة وحقد ملتات وفهم
للإسلام ساذج.

ومع كل ذلك فلم يعدم أمير المؤمنين موعظتهم وتوجيههم لعلهم يرجعون
عن شططهم وهواهم. فقال لهم عليه السلام :

أما ما ذكرتموه من الاستشارة بكما فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة ولكنكم
دعوتموني إليها وجعلتموني عليها فخفت أن أردكم. فتختلف الأمة فلما أفضت
إلي نظرت في كتاب الله وستة رسوله فأمضيت ما دلّني عليه واتبعت ولم أحتج
إلى رأيكما فيه ولا رأي غيركما ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ولا في
الستة برهانه واحتجج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه.

وأما القسم والأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادية بدء قد وجدت أنا وأنتم
رسول الله ﷺ يحكم بذلك وكتاب الله ناطق به وهو الكتاب الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وأما قولكما جعلت فيتنا وما افاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا
فقد سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم فلم يفضلهم رسول
الله ﷺ في القسم ولا آثرهم بالسبق والله سبحانه موف السابِق والمجاهد يوم
القيامة أعمالهم وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا أخذ الله بقلوبنا
وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر.

ثم قال: رحم الله امراء رأى حقاً فأعان عليه ورأى جوراً فردّه وكان عوناً للحق
على من خالفه^(١).

فلم تجد هذه الخطوة في طريق الحلّ والهداية أهلاً لأن القوم قد ران على
قلوبهم ما كانوا يصنعون.

ولما لم يجدوا بداً من الخروج على عليّ عليّ السلام وهو في أول خلافته إلا أن
يخرجوا من المدينة التي استحكم الإمام عليّ عليّ السلام قبضته فيها وليس أنفع مكان
يمكنهم أن يعيشوا فيه لتشابه النوايا والقلوب فيها إلا الشام لأنها أموية أو البصرة
لأنها عثمانية.

(١) راجع المعيار والموازنة: ص ١٠٩.

العمرة أم الشام والبصرة

تقدّم ممّا مرّ أنّ جملة من أهل البيوتات وأصحاب المكانة الاجتماعية في مجتمع المدينة ومكة لا يرتضون عليّاً منذ أول يوم بزغ نجمه وهو يتهادى خلف رسول الله ﷺ يحطم أمانيتهم ويأتي على تصوراتهم، ولم يك من بد أن يسكتوا حيث النبوة أمّا بعدها فالمجال مفتوح وإشاعة المسوغات لحربه تأخذ طريقها بيسر لا سيما وأنّ هناك من يرتاح على نهيق العبودية والذلّ!!

وعليّ ﷺ يدرك بعمق حجم المعارضة ضده فما عساه يترك الأتّة بدون سائس والأحداث بدون موجّه والأمر بيد الطامعين المترفين. ذلك ما لا يمكن في قاموس عليّ ﷺ ولهذا تصدّي بجدارة وبقوة فأعاد إلى الحياة من جديد روح النقد الموجّه والمتابعة المسؤولة والثورة على الفساد والانحراف أيّا حلّ هذا الانحراف في فرد أو مجموعة أو أمة وكائناً من كان.

- ولهذا شعر أقطاب المعارضة في المدينة أن لا مكان لهم فيها وعليهم أن يغيّروا مكانهم فيختاروا موقِعاً للمواجهة أكثر تماسكاً ولم يكن أحسن من البصرة والشام حيث النزعة العثمانية ومعاوية وكلا هذين التوجهين يمثلان عنواناً صارخاً ضدّ عليّ ﷺ.

فبقي على هؤلاء أن يقنعوا عليّاً في الخروج من المدينة فجاءوه من حيث ما استخدمه من ورقة فضيحة مدّلة لهم في المجتمع وهو المال والتمايز على الغير، فجاء أمير المؤمنين يستأذنه في العمرة فقال: لعلكما تريدان الشام والبصرة؟

فقالا: اللهم غفرأ ما ننوي إلا العمرة.

فأخذ عليهما عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ على أحد من خلقه أن لا يخالفا ولا ينكثا ولا يتوجّها وجهاً غير العمرة حتّى يرجعا إليه فأعطياه ذلك من أنفسهما ثمّ أذن لهما فخرجا.

عن أم راشد مولاة أم هاني أن طلحة والزبير دخلا على علي عليه السلام
فاستأذناه في العمرة فأذن لهما فلما ولّيا ونزلا من عنده سمعتهما يقولان:

«لا والله ما بايعناه بقلوبنا إنما بايعناه بأيدينا».

فأخبرت علياً عليه السلام بمقالتهما فقال:

«إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث
على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً»^(١).

(١) انظر بحار الأنوار: ٣٢/٣١. بتصرف.

مع عائشة

عائشة بنت الخليفة الأول أبي بكر الصديق زوج رسول الله ﷺ المرأة الطموح التي تسعى دوماً أن تكون شيئاً فلم يحالفها حظها لا في بيت زوجها رسول الله ﷺ ولا بعده فبقيت تعيش الغصة والمرارة. ومن تعتمل في داخله الاضطرابات ويستولي عليه داء العظمة لا يقر له قرار ولا تعرف منه كيف يحب وكيف يكره ومتى؟

كانت من أشد الناس على عثمان حتى أنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله ﷺ فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين إليها: هذا ثوب رسول الله ﷺ لم يبل وعثمان قد أبلى سنته، وهي أول من سمى عثمان نعثاً.

ولما قتل عثمان كانت بمكة وبلغ قتله إليها وهي بشراف فلم تشك في أن طلحة صاحب الأمر، وكأنّ هناك مخططاً قد رسموه لهذا الرجل بعد رحيل عثمان تدعّمه عائشة بما لها من اعتبار كونها زوج رسول الله ﷺ، فقالت:

بعداً لنعثل وسحقاً إيه ذا الإصبع إيه أبا شبل إيه يا ابن عمّ لكائي أنظر إلى إصبه وهو يبايع له حتوها لا بل وزعزعوها^(١).

فاستقبلها عبيد بن أبي سلمة فقالت له: ما عندك؟ قال: قتل عثمان قالت: ثمّ ماذا؟

قال: جارت بهم الأمور إلى خير مجاد بايعوا علياً.

فقالت: لوددت أنّ السماء انطبقت على الأرض إن تمّ هذا انظر ماذا تقول؟

قال: هو ما قلت لك يا أمّ المؤمنين فولولت!!

(١) حتوها: أي اجعلوا إصبه متحنية للبيعة وزعزعوها: أي كسروها.

فقال لها: ما شأنك يا أم المؤمنين. والله لا أعرف بين لابتيتها^(١) أحداً أولى بها منه ولا أحق ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته فلماذا تكرهين ولايته؟
قال: فما ردت جواباً.

ثم ردت ركايبها إلى مكة، فكتب إليها طلحة والزبير كتاباً أن خذلي الناس عن بيعة علي وأظهري الطلب بدم عثمان وحملنا الكتاب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير فلما قرأت الكتاب كاشفت وأظهرت الطلب بدم عثمان^(٢).
فقصدت الحجر فاجتمع الناس إليها فقالت:

أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار من أهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا إلى هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ونقموا عليه استعمال من حدث سنه وقد استعمل أمثالهم من قبله ومواضع الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام والله لإصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم!!! والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً نخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه والثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء..

فقال عبد الله بن عامر الحضرمي - وكان عامل عثمان على مكة -: ها أنا أول طالب بدمه وتبعه بنو أمية وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان إلى مكة.
وقدم طلحة والزبير من المدينة إلى مكة ولقيا عائشة فقالت: ما ورائكما؟
قالا: إنا تحملنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم.
فقالت: انهضوا إلى هذه الغوغاء.

فقالوا: نأتي الشام.

فقال ابن عامر: كفاكم الشام معاوية فأتوا البصرة فاستقام الرأي على البصرة^(٣).

(١) لابتيتها: أطرافها.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤٠٧/٢.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٠٥/٣.

موقف أم سلمة

أم سلمة زوج رسول الله ﷺ امرأة تقية على خير عاشت مع رسول الله ﷺ فأشاعت في ربوع بيته المودة والرحمة، وكانت معه حيث هو مع الطاهرين .
لما سمعت أن عائشة تزعم الرحيل إلى البصرة لإثارة الفتنة بين المسلمين كان لها دور الواعظ لها فدخلت على عائشة ثم قالت :

يا هذه أنت سدة^(١) بين رسول الله ﷺ وبين أمته وحجابه عليك مضروب وعلى حرمة، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحبه^(٢) وضم ضفرك^(٣) فلا تنشريه واسكني عقيرتك^(٤) فلا تصمحر بها إن الله من وراء هذه الأمة قد علم رسول الله ﷺ مكانك لو أراد أن يعهد إليك فعل بك فقد نهاك عن الفرطة^(٥) في البلاد إن عمود الدين لن يشأب^(٦) بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن. إن انصدع، حمادي النساء غص الأظراف وضم الذبول والأعطاف، وما كنت قائلة لو أن رسول الله ﷺ عارضك في بعض هذه الفلوات فأنت ناصة قعوداً^(٧) من منهل إلى منهل ومنزل إلى منزل ولغير الله مهواك وعلى رسول الله ﷺ تردين وقد هتكت عنك سجافه^(٨) ونكشت عهده وبالله أحلف لو أن سرت مسبرك ثم قيل لي: ادخلي الفردوس لاستحيبت من رسول الله ﷺ أن اللقاء هانكة حجاباً ضربه علي (ص) فأتقي الله واجعليه حصناً وقاعة الستر منزلاً حتى تلقينه أطوع ما

(١) السدة: الباب.

(٢) تندحبه: تفتحيه.

(٣) الظفر: نسج الشعر وغيره والصفيرة: العقيصه.

(٤) العقيرة: أصل الدار.

(٥) الفرطة: التقدّم.

(٦) أي لا يرد بهن إلى استوائه.

(٧) القعود من الإبل: الذي يقتعده الراعي من كل حاجة.

(٨) السجاف: الستر.

تكونين لربك ما قصرت عنه وأنصح ما تكونين لله ما لزمته وأنصر ما تكونين
للذين ما قعدت عنه .

وبالله أحلف لو حدثتك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لنهشتيني نهش
الرقشاء المطرقة^(١) .

فقالت لها عائشة : ما أعرفني ، بموعظتك وأقبلني لنصيحتك ليس مسيري
على ما تظنين ، ما أنا بالمغترة ولنعم المطلع تطلعت فيه فرقت بين فئتين متشاجرتين
فإن أقعد فقي غير حرج وإن أخرج ما لا غناء عنه من الازدياد به فهو الأجر^(٢) .

ولم تفد هذه الموعظة الجليلة من المرأة الجليلة فيما هو الإصرار من قبل
عائشة لحرب عليّ عليه السلام والخروج أرسلت أم سلمة رسالة إلى أمير
المؤمنين عليه السلام تخبره بنوايا القوم :

أما بعد فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشباع الضلالة يريدون أن يخرجوا بعائشة
إلى البصرة ومعهم عبد الله بن عامر بن كريز ويذكرون أن عثمان قتل مظلوماً
وأنهم يطلبون بدمه والله كافيهم بحوله وقوته ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج
وأمرنا من لزوم البيت لم أدع الخروج إليك والنصرة لك ولكنني باعثة نحوك
ابني عدل نفسي عمر بن أبي سلمة فاستوص به يا أمير المؤمنين خيراً^(٣) .

(١) الرقشاء المطرقة : الأفعى .

(٢) الاحتجاج للطبرسي : ١٦٧/١ .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٤١٠/٢ .

رسالة الأشر إلى عائشة

الأشر الرجل القوي في جماعة أمير المؤمنين والعضد المفدى له وكانت له هبة في قلوب المناوئين للحق فكان من المناسب أن يكتب كتاباً إلى عائشة يحذرها من مغبة التسامح في حرب علي عليه السلام فكان :

أما بعد فإنك طعينة رسول الله ﷺ وقد أمر أن تقزي في بيتك فإن فعلت فهو خير لك وإن أبيت إلا أن تأخذي منسأتك^(١) وتلقي جلبابك وتبدي الناس شعيراتك قاتلتك حتى أردك إلى بيتك والموضع الذي يرضاه لك ربك .

فكتبت إليه في الجواب :

أما بعد فإنك أول العرب شب الفتنه ودعا إلى الفرقة وخالف الأئمة وسعى في قتل الخليفة وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم وقد جاءني كتابك وفهمت ما فيه وسنكفيك وكل من أصبح مماثلاً لك في غيتك وضلالك إنشاء الله^(٢) .

(١) المنسأة: العصا.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤٠٧/٢.

متفرجون ومضحون

في حالات الصُّراع التي تمرّ بها الجماعات والأمم لا يمكن أن يكون ثالث متفرج فهو إن شاء أو أبى فإنه سيلتجئ بالأخير إلى طرف عبر كلمة أو تصريح أو حتى ابتسامة أضف إلى ما لهذا المتفرج من ضعف وخوار وضواء لأنّ الابتعاد عن ساحة الصراع يعني ذلك تماماً.

ومن هنا يتجلّى لنا كم زرع أولئك المتفرجون على الأحداث التي أدارها القدر بين عليّ ومناوئيه من بذور التراجع والانكفاء على الذات وغياب الصورة الصحيحة للحقّ وأهله عند ثلّة من الناس هم أحوج ما يكونون مع الحقّ والحقّ أحوج ما يكون إلى أعداد تقوم به.

ولقد تشاقل جمع ممن صحب رسول الله ﷺ عن نصرة الحقّ وما ذلك إلّا شدة الغش الجاثم على الأبصار والزّين الذي حجب رؤية القلوب ومن يعدم الرؤية يتخبط في ظلام!

عن أبي سهل بن مالك عن أبيه قال: إنّي لواقف مع المغيرة بن شعبة عند نهوض عليّ بن أبي طالب عليه السلام من المدينة إلى البصرة إذ أقبل عمار بن ياسر فقال له: هل لك في الله عزّ وجلّ يا مغيرة فقال: وأين هو يا عمار؟ قال: تدخل في هذه الدعوة فتلحق بمن سبقك.

فقال له المغيرة: أواخر من ذلك يا أبا اليقظان!!

قال عمار: وما هو؟

قال: ندخل بيوتنا ونغلق علينا أبوابنا حتّى يضيء لنا الأمر فنخرج ونحن مبصرون ولا نكون كقاطع السلسلة فرّ. من الضحل فوق في الغمر.

فقال له عمار: هيهات هيهات أجهل بعد علم وعمي بعد استبصار؟ ولكن

اسمع لقولي، فوالله لن تراني إلا في الرعيل الأول.

فطلع عليهما أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

يا أبا اليقظان ما يقول لك الأعور فإنه والله دائماً يلبس الحق بالباطل ويموء فيه ولن يتعلق من الدين إلا بما يوافق الدنيا ويحك يا مغيرة إنها دعوة تسوق من يدخل فيها إلى الجنة.

فقال له المغيرة: صدقت يا أمير المؤمنين إن لم أكن معك فلن أكون عليك^(١).

وتبع المغيرة لفيف من الجبناء عمي القلوب أمثال: سعد وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن عمر.

فكان سعد يقول: لا أشهر سيفاً حتى يعرف المؤمن من الكافر.

وقال أسامة: لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله ولو كنت في زبية الأسد لدخلت فيه معك.

وقال محمد بن مسلمة: أعطاني رسول الله ﷺ سيفاً وقال: إذا اختلف المسلمون فاضرب به عرض أحد والزم بيتك.

وقد شخّص عمار هؤلاء لأمير المؤمنين فقال: دع القوم أما عبد الله فضعيف وأما سعد فحسود وأما محمد بن مسلمة فذنبك إليه أنك قتلت بأخيه مرحباً.

وقام الأشر إلى علي عليه السلام فكلّمه بكلام يحضه على أهل الوقوف فكره ذلك علي عليه السلام حتى شكاه وكان من رأي علي عليه السلام أن لا يذكرهم بشيء.

فقال الأشر: يا أمير المؤمنين إنا وإن لم نكن من المهاجرين والأنصار فإننا فيهم وهذه بيعة عامة والخارج منها عاص والمبطىء عنها مقصر وإن أدبهم اليوم باللسان وغداً بالسيف وما من ثقل عنك كمن خف معك. وإنما أرادك القوم لأنفسهم فأردهم لنفسك.

فقال علي عليه السلام: يا مالك دعني.

وأقبل علي عليه السلام عليهم فقال: أرايتم لو أن من بايع أبا بكر أو عمر أو

(١) أمالي الشيخ المفيد: ص ١٣٥.

عثمان ثم نكث بيعته أكنتم تستحلون قتالهم؟

قالوا: نعم.

قال: وكيف تحرجون من القتال معي وقد بايعتموني؟

قالوا: إننا لا نزعم أنك مخطيء وأنه لا يحل لك قتال من بايعك ثم نكث بيعتك ولكن نشك في قتال أهل الصلاة.

فقال الأشر: دعني يا أمير المؤمنين أوقع بهؤلاء الذين يتخلفون عنك.

فقال له: كف عني، فانصرف الأشر وهو مغضب^(١).

(١) انظر أمالي الطوسي: ٨٧ بتصرف.

مسوغات الحرب عند علي عليه السلام

كان علي عليه السلام يتحرك حيث يتحرك الإسلام في ضمير هذه الأمة التي مر عليها وقت ليس بالقصير ضيّعت فيه كثيراً من قيمها الإسلامية ولو قدر لها البقاء على حالها لانتهدت وأصبحت من الأمم التي نقرأ عنها في التاريخ . لا أثر لها ولا وجود ولانتهى الإسلام تبعاً لها .

تحرك علي عليه السلام مستفيداً من وضع الخلافة في عهد عثمان التي كشرت عن الوجه القبيح لها وأوضحت عبر ممارساتها مراميها وغلباتها، فالتفت البقية الباقية ممن عجزت أيادي التمويه أن تزيفهم عن الحق أو تجرهم إلى مواقع الجهل والحذر حول علي عليه السلام وتشكلت هذه المدرسة العظيمة على أساس الرؤية الصحيحة لمسار الإسلام في الحياة والتضحية من أجل أن يكون وتكون أمتة .

ولهذا فأي شيء يعترض هذه الرؤية في مسارها الجديد وروحها الخلافة يعتبر خروجاً عن الدين، وهذا متفق عليه بين المسلمين، إذا ما لاحظنا نكث البيعة والوقوف معها سلباً في إطارها الشخصي القائم على حقد ملثا أو بغض له جذوره الممتدة في عمق العلاقات . أيضاً عقبة لها آثارها السلبية في خط الخلافة الجديدة .

ولو لم تكن المعارضة قد حملت السلاح بوجه علي وبقيت على ما هي عليه بدون إثارة الأجواء والدعاية ضده بما يشكل بهتاناً وزوراً لتركها أمير المؤمنين عليه السلام تعيش كما يعيش الآخرون .

إلا أنها تكتلت وخرجت تتخذ البصرة موقعاً وناشدت الأمصار في الالتفاف حولها كالشام ولم تراع ذقة لأحد من المسلمين إلا ما يدور حولها ويطوف حول مصالحها الشخصية . . . وهل يعني هذا العمل إلا تدمير الأمة والقضاء على هيبتها

من خلال الخروج على الخلافة وإحباط التجربة الجديدة المنتخبة التي رفعت شعار العدالة وتطبيق السنة وتحكيم كتاب الله؟

وفي هذا الاتجاه فقد سَوَّغ أمير المؤمنين قتالهم مع أنه كان موعوداً من قبل النبي ﷺ أنه سيقاتلهم لأنهم سينكثون البيعة، إلا أن أدب الإسلام وإسلوب الإمامة في الحياة لا يبادر في إنزال العقوبة وإن كان على دراية في حجم الجناية وتشخيصها ومعرفة الجاني إلا أن تصدر الجناية وتأخذ بعدها في المجتمع ليكون الناس على جانب من الوضوح والقناعة في الوقوف ضدها إلا من مرض قلبه وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين!

فمن رسالة له عليه السلام أرسلها إلى أهل الكوفة يألبهم في الوقوف ضد هذا التيار الناكث ويخبرهم بما عليه أمور دار الهجرة والوضع الجديد فيها.

«إن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها وجاشت جيش المرجل وقامت الفتنة على القطب فأسرعوا إلى أميركم وبادروا عدوكم»^(١).

وسأل ابن الكواء وقيس بن عباد أمير المؤمنين عن قتال الناكثين فقال:

إنهما بايعاني بالحجاز وخلعاني بالعراق فاستحللت قتالهما لنكثهما بيعتي وأشار بعض عليه عليه السلام أن لا يتبع الناكثين ولا يرصد لهما القتال فقال:

والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم^(٢) حتى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها ولكن أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً حتى يأتي علي يومي^(٣).

(١) المناقب لابن شهر آشوب: ٢/ ٣٣٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) اللدم: صوت الحجر أو العصا أو غيرها يضرب بها الأرض ضرباً ليس بشديد، يحكى أن الضبع يستغل في حجرها بمثل ذلك فيسكن حتى يصاد ويضرب بها المثل في الحمق.

(٤) نهج البلاغة المختار: ٦.

هذا هو مستوى عائشة

وأزعم الناكثون التحرك إلى البصرة لاثارت الفتنة وشق الصف والخروج على الخلافة، فهينوا إلي أم المؤمنين مراكبها لتكون هي قائدة المسير، ورائدة النهضة، وجاءهم يعلى بن أمية ببعير يسمي (عسكراً) وكان عظيم الخلق شديداً فلما رآته أعجبها، والطريق طويل، والذكريات كثيرة، والقائمون على جزها إلى هذا الموقع الوبيء يسعون لإيجاد جو يبعدها عما كان رسول الله ﷺ يحدثها عن عليّ عليه السلام وفضله لعل الأيام بثقلها الممض وساعاتها الطوال يذكرها بذلك فأنشأ الجمال يحدثها بقوة هذا المركب وشدة كفاتحه للحديث المستمر الذي يمثل مستواء ومدى ما ينسيهما أتعاب الطريق. وكان يكرر في أثناء كلامه (عسكراً) فلما سمعت بذلك استرجعت وقالت: ردوه لا حاجة لي فيه وذكرت حيث سئلت أن رسول الله ﷺ ذكر لها هذا الاسم ونهاها عن ركوبه، وأمرت أن يطلب لها غيره فلم يوجد لها ما يشبهه فغير لها بجلال غير جلاله وقيل لها: قد أصبنا لك أعظم منه خلقاً وأشد منه قوة وأوتيت به فرضيت^(١).

هذه هي أم المؤمنين تتعامل مع نهي رسول الله ﷺ عن ركوب جمل اسمه عسكراً ولا تراعي حرمة لأمر المؤمنين عليه السلام ولهذه الأمة التي طالما كان رسول الله ﷺ يشيد به وبفضله ويوصي في وحدة الأمة من خلاله.

ولما انتهت في مسيرها إلى الحوآب، وهو ماء لبني عامر بن صعصعة نبحتها الكلاب حتى نفرت صعاب إبلها فقال قائل من أصحابها: ألا ترون ما أكثر كلاب الحوآب وما أشد نباهاها؟

فأمسكت زمام بعيرها وقالت: وإنها لكلاب الحوآب؟ ردوني ردوني فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول وذكرت الخبر.

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤٠٧/٢.

فقال لها قائل: مهلاً يرحمك الله فقد جزنا ماء الحوآب.

فقلت: فهل من شاهد؟ فلفقوا لها خمسين أعرابياً جعلوا لها جعلاً فحلفوا لها أن هذا ليس بماء الحوآب فسارت لوجهها^(١).

وهذه أول شهادة في الحياة الإسلامية شهد بها في الإسلام بالزور^(٢) والكذب وهل أفاقت أم المؤمنين من نومها؟ وهل فتح المعجبون بها يوماً عيون قلوبهم على ما لهذه المرأة من الطموح ولو على حساب الأمة والدين!!

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤٠٨/٢.

(٢) انظر من لا يحضره الفقيه للصدوق: ٤٤/٣.

تقييم لأقطاب المعارضة الناكثة

فيما يظهر من سير الأحداث والتصريحات القائمة على المتبنى الشخصي والذهني لكل واحد من أقطاب المعارضة أنّ هناك آفات وهنات وقد تجاوزوها لأنّهما يشتركان في تحقيق هدف واحد وهو الإطاحة بعليّ عليه السلام ولما لم يقدر لهما أي طلحة والزبير أن يسيرا في المجتمع الإسلامي بوحى من قناعتهم المشتركة وإضفاء صيغ لها مساس بالشرعية على هذا المجتمع إلا من خلال عائشة زوج رسول الله ﷺ لهذا نراهما على طول مسيرتهما العدائية لعليّ عليه السلام لم يظهر ما كانا عليه وما أضمر كل واحد للآخر من نوايا سيئة.

وقد استعمل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام هذه الورقة التي لم تقرأ بعد ابتغاء أن تثور الدفائن فيتبدّد الشمل وتضعف الحركة حين أخبر بمسيرهما من مكة إلى البصرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

قد سارت عائشة وطلحة والزبير كلّ منهما يدّعي الخلافة دون صاحبه ولا يدّعي طلحة الخلافة إلا أنّه ابن عمّ عائشة ولا يدّعيها الزبير إلا أنّه صهر أبيها. والله لئن ظفرا بما يريدان ليضربنّ الزبير عنق طلحة وليضربنّ طلحة عنق الزبير ينازع هذا على الملك هذا.

ولقد علمت أنّ راكبة الجمل لا تحلّ عقدة ولا تسير عقبة ولا تنزل منزلة إلا إلى معصية الله حتى تورد نفسها ومن معها مورداً يقتل ثلثهم ويهرب ثلثهم ويرجع ثلثهم.

والله إنّ طلحة والزبير ليعلمان أنّهما مخطئان وما يجهلان ولربّ عالم قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه.

والله لئن أصابوا الذي يريدون ليتزعنّ هذا نفس هذا وليأتين هذا على هذا^(١).

(١) نهج البلاغة المختار: ١٤٦.

أضف إلى هذا ما للرجلين من تاريخ يعجّ بكثير من الاستهتار بالقيم والوقوف ضدّ الرسالة منذ أول أيّامها الغرر وما دخولهم في الإسلام إلّا من وراء الجو الاجتماعي الذي خلّفته الدّعوة في صفوف المحرومين وأهل القلوب السليمة والتوجّهات الناضجة في الحياة وكان ما لا بدّ منه .

وقد تناصر الخبر من الطريّقين بأنّ عثمان وطلحة والزبير وسعداً وعبد الرحمان من جملة أصحاب العقبة الذين نفّروا برسول الله ﷺ .

وكان عثمان وطلحة قد قالّا : أينكح محمّد نساءنا ولا ننكح نساءه ؟ والله لو قد مات لأجلنا على نساءه بالسّهام !!!

وكان طلحة قد تحدّث أن يتزوّج عائشة فأنزل الله سبحانه :

﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ .

ولقد عشق طلحة امرأة يهودية فخطبها ليتزوّجها فأبت إلّا أن يتهود ففعل .

وقد تنازع يوماً هو وعثمان فقال عثمان له : والله إنّك أول أصحاب محمّد تزوّج يهودية .

فقال طلحة : وأنت والله لقد قلت : ما يحبسنا ها هنا ألا نلحق بقومنا .

وقد حسوا في نسبه فقالوا بأنّ أبا طلحة وهو عبد الله كان عبداً راعياً بالبلقاء فلحق بمكّة فادّعاه عثمان بن عمرو بن كعب التيمي فنكح الصعبة بنت دزمهر الفارسيّ وكان بعث بها كسرى إلى اليمن فكان بحضرموت خزاناً وكانت الصعبة بنت الحضرميّ لها راية بمكّة واستبضعت بأبي سفيان فوقع عليها أبو سفيان وتزوّجها عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب التيميّ فجاءت بطلحة فجعلّا أمرهما إلى صعبة فألحقته بعبيد الله فقبل لها كيف تركت أبا سفيان ؟

فقال يد عبيد الله طلقه ويد أبي سفيان نكرة .

وأما بالنسبة إلى الزبير فقد ورد بأنّ العوام أباه كان عبداً لخويلد ثمّ أعتقه وتبنّاه وكان جميلاً ولم يكن من قریش وذلك أنّ العرب في الجاهلية كان إذا كان لأحدهم عبد وأراد أن ينسبه إلى نفسه ويلحق به نسبه أعتقه وزوّجه كريمة من العرب .

ويصدّق ذلك شعر عدي بن حاتم في عبد الله بن الزبير بحضرة معاوية وعنده

جماعة قريش فقال عبد الله لمعاوية: يا أمير المؤمنين ذرنا نكلم عدياً فقد زعم أن عنده جواباً.

فقال: إني أحذركموه.

فقال: لا عليك دعنا وإياه فرضي معاوية.

فقال: يا أبا طريف متى فقئت عينك؟

فقال: يوم فرّ أبوك وقتل شرّ قتلة وضربك الأشر على إسنك فوقعت هارباً من الزحف وأنشد يقول:

أما وأبي يا ابن الزبير لو أتني لقينك يوم الزحف رمت مدى شحطا
وكان أبي في طي وأبو أبي صحيحين لم ينزع عروقهما القبطا

قال معاوية: قد حذرتكموه فأبيتم^(١).

(١) انظر بحار الأنوار: ٢١٨/٣٢ وقرله: صحيحين لم ينزع عروقهما القبطا تعريفي به بأن أباه وأبا أبيه ليسا بصحيحي النسب وأتتهما من القبط ولم يستطع ابن الزبير إنكار ذلك في مجلس معاوية.

الناكثون في حفر أبي موسى

انتهى الموكب الناكث حفر أبي موسى قريباً من البصرة فاستعلم بذلك عثمان بن حنيف وكان والياً على البصرة من قبل عليّ عليه السلام فأرسل إليهم أبا الأسود الدؤلي يعلم له علمهم فجاء حتى دخل على عائشة فسألها عن مسيرها؟ فقالت: أطلب بدم عثمان.

قال: إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد.

قالت: صدقت ولكنهم مع عليّ بن أبي طالب بالمدينة وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم؟

فقال لها: ما أنت من السوط والسيف؟ إنما أنت حبيس رسول الله ﷺ أمرك أن تقرّي في بيتك وتتلّي كتاب ربك ليس على النساء قتال ولا لهنّ الطلب بالدماء وإن عليّاً لأولى بعثمان منك وأمسّ رحماً فإنهما ابنا عبد مناف.

فقالت: لست بمنصرفه حتى أمضي لما قدمت له أفظنّ يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي؟

فقال: والله لنقاتلن قتالاً أهونه الشديد.

ثمّ قام فأتى الزبير فقال: يا أبا عبد الله عهد الناس بك وأنت يوم بويع أبو بكر آخذ بقائم سيفك تقول: لا أحد أحقّ لهذا الأمر من ابن أبي طالب وأين هذا المقام من ذاك؟

فذكر له دم عثمان قال: أنت وصاحبك وليتماه فيما بلغناه قال فانطلق إلى طلحة فاسمع ما يقول فذهب إلى طلحة فوجده مصراً على الحرب والفتنة فرجع إلى عثمان بن حنيف فقال: إنها الحرب فتأهب لها^(١).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤٠٧/٢.

ودعا عثمان بن حنيف عمران بن الحصين وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فبعثه وبعث معه أبا الأسود الدؤلي إلى طلحة والزبير وعائشة.

فقال: انطلقا فاعلما ما أقدم علينا هؤلاء القوم وما يريدون؟

قال أبو الأسود: فدخلنا على عائشة فقال لها عمران بن الحصين: يا أم المؤمنين ما أقدمك بلدنا ولم تترك بيت رسول الله ﷺ الذي فارقت فيه؟ وقد أمرك أن تقرّي في بيتك وقد علمت أنك إنما أصبت الفضيلة والكرامة والشرف وسميت أم المؤمنين وضرب عليك الحجاب بيني هاشم فهم أعظم الناس عليك مئة وأحسنهم عندك يداً ولست من اختلاف الناس في شيء لولا لك من الأمر شيء وعليّ أولى بدم عثمان فاتقي الله واحفظي قرابته وسابقته فقد علمت أنّ الناس بايعوا أباك فما أظهر عليه خلافاً وبايع أبوك عمر وجعل الأمر له دونه فصبر وسلّم ولم يزل بهما برّاً ثمّ كان من أمرك وأمر الناس وعثمان ما قد علمت ثمّ بايعتم عليّاً فغلبنا عنكم فأتتنا رسلكم بالبيعة فبايعنا وسلّمنا.

فلما قضى كلامه قالت عائشة: يا أبا عبد الله ألقيت أخاك أبا محمّد يعني طلحة؟

فقال لها: ما لقيتّه بعد وما كنت لأتّي أحداً ولا أبداً به قبلك.

قالت: فأنّاه فأنظر ماذا يقول؟

قال: فأتيناه فكلّمه عمران فلم يجد عنده شيئاً ممّا يحبّ فخرجنا من عنده فأتينا الزبير وهو متكئ وقد بلغه كلام عمران وما قال لعائشة فلما رأنا قعد وقال:

أيحسب ابن أبي طالب أنّه حين ملك ليس لأحد معه أمر فلما رأى ذلك عمران لم يكلمه فأتى عمران عثمان فأخبره.

ثمّ ذهب إليهما الأحنف بن قيس فقال لعائشة: يا أم المؤمنين وما الذي أقدمك وما أشخصك وما تريدن؟

قالت: يا أحنف قتلوا عثمان.

فقال: يا أم المؤمنين مررت بك عام أول بالمدينة وأنا أريد مكّة وقد أجمع الناس على قتل عثمان ورمي بالحجارة وحيل بينه وبين الماء فقلت لك: يا أم المؤمنين أعلمي أنّ هذا الرجل مقتول ولو شئت لتردّين عنه وقلت فإن قتل فإلى من؟

فقلت: إلى علي بن أبي طالب.

قالت: يا أحنف صفوه حتى إذا جعلوه مثل الزجاجة قتلوه.

فقال لها أقبل قولك في الرضا ولا أقبل قولك في الغضب.

ثم أتى طلحة فقال: يا أبا محمد ما الذي أقدمك وما الذي أشخصك وما تريد؟

قال: قتلوا عثمان.

قال: مررت بك عاماً أول بالمدينة وأنا أريد العمرة وقد أجمع الناس على قتل عثمان ورمي بالحجارة وحيل بينه وبين الماء فقلت لكم: إنكم أصحاب رسول الله ﷺ لو تشاءون أن تردوا عنه فعلتم.

فقلت: دبر فادبر.

فقلت لك: فإن قتل فإلى من؟

فقلت: إلى علي بن أبي طالب.

فقال: ما كنا نرى أمير المؤمنين يرى أن يأكل الأمر وحده^(١).

(١) انظر بحار الأنوار: ٣٢/١٤٠.

الموقف في البصرة

حين نزل الموكب الناكث البصرة قصدهم عثمان بن حنيف فحاربهم فوجدوا أنفسهم في حرج منه لا سيما وأنهم قد جاءوا لتوهم ولم يكونوا قد أعلموا الناس بمقصدهم وغايتهم، والبصرة عثمانية الرأي والناكثون قصدوها باعتبارها كذلك، ولا يتسنى لهم أن يمرروا أهدافهم إلا أن يرفعوا شعار المطالبة بدم عثمان، وهذا مما يحتاج إلى وقت. وفي مباغته عثمان بن حنيف لهم وفتح ألسنة الحراب عليهم تفويت لفرصة التحرك وانتشار أمرهم فاضطروا من موقع الضعف والاحتياج إلى الصلح معه فكتبوا بينهم كتاباً أنّ لعثمان دار الإمارة، وبيت المال، والمسجد إلى أن يصل إليهم عليّ عليه السلام.

فقال طلحة لأصحابه في السر، والله لئن قدم عليّ البصرة لنؤخذن بأعناقنا فأتوا عليّ عثمان بياتاً في ليلة ظلماء وهو يصلي بالناس العشاء الآخرة وقتلوا منهم خمسين رجلاً واستأسروه وشتفوا شعره وحلقوا رأسه وحبسوه ثم بعثا عبد الله بن الزبير في جماعة إلى بيت مال المسلمين فقتل أبا سلمة الزطّي في خمسين رجلاً^(١).

(١) انظر المناقب: ٣٣٥/٢.

عليّ عليه السلام يتحرك نحو البصرة

لما أراد عليّ عليه السلام المسير إلى البصرة قام فخطب الناس فقال بعد أن حمد الله وصلى على رسوله:

إن الله لما قبض نبيه استأثرت علينا قريش بالأمر ودفعتنا عن حقّ نحن أحقّ به من الناس كافة فرأيت أنّ الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين وسفك دمائهم والناس حديثوا عهد بالإسلام والذين بمخض مخض الوطب^(١) يفسده أدنى ومن ويعكسه أقلّ خلق^(٢) فولي الأمر قوم لم يألوا في أمرهم اجتهاداً ثمّ انتقلوا إلى دار الجزاء والله وليّ تمحيص سيئاتهم والعفو عن هفواتهم فما بال طلحة والزبير وليسا من هذا الأمر بسبيل لم يصبرا عليّ حولاً ولا شهراً حتّى وثبا ومرقا ونازعاني أمراً لم يجعل الله لهما إليه سبيلاً بعد أن بايعا طائعين غير مكرهين يرتضعان أمّا قد فطمت ويحييان بدعة قد أميتت آدم عثمان زعما يطالبان؟ والله ما التبعة إلا عندهم وفيهم وإنّ أعظم حجتهم لعلّى أنفسهم وأنا راض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم فإن فاءاً وأنابا فحظّهما أحرزا وأنفسهما غنما وأعظم بها غنيمة وإن أبا أعطينهما حدّ السيف وكفى به ناصراً لحقّ وشافياً من باطل^(٣).

ثمّ نزل عليه السلام .

(١) الوطب: الزقّ الذي يكون فيه السمن واللبن.

(٢) المراد بالخلق إما قدم اللبن ومضيّ زمان عليه أو خلق الزقّ فإنه يفسد اللبن.

(٣) شرح ابن أبي الحديد: ٢٤٧/١ بيروت.

عليّ عليه السلام في الرّبة^(١)

لَمَّا نَزَلَ عَلِيّ عليه السلام الرّبة بعث هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى أبي موسى الأشعريّ وهو الأمير يومئذ على الكوفة لينفر إليه الناس وكتب إليه معه :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس أما بعد : فإنّي بعثت إليك هاشم بن عتبة لتشخص إليّ من قبلك من المسلمين ليتوجهوا إلى قوم نكثوا بيعتي وقتلوا شيعتي وأحدثوا في الإسلام هذا الحدث العظيم فأشخص بالناس إليّ معه حين يقدم عليك فإنّي لم أولك المصير الذي أنت به ولم أقرّك عليه إلا لتكون من أعواني على الحق وأنصاري على هذا الأمر والسلام .

ولمّا أن قدم هاشم الكوفة دعا أبا موسى فقال :

أتبع ما كتب به إليك فأبى ذلك فبعث إلى هاشم يتوعّده فكتب إلى عليّ بامتناعه وأنه شاق بعيد الودّ ظاهر الغلّ والشنآن وأنه هدّده بالسجن والقتل !! فلمّا ورد كتابه على أمير المؤمنين عليه السلام وقد أتاه به المُحِلُّ بن خليفة فسلم عليه ثمّ قال : الحمد لله الذي أدّى الحق إلى أهله ووضع موضعه فكره ذلك قوم وقد والله كرهوا نبوة محمد ﷺ ثمّ بارزوه وجاهدوه فردّ الله كيدهم في نحورهم وجعل دائرة السوء عليهم والله يا أمير المؤمنين لنجاهدّهم معك في كلّ موطن حفظاً لرسول الله ﷺ في أهل بيته إذ صاروا أعداء لهم بعده .

فرحب به عليّ عليه السلام وقال له خيراً ثمّ أجلسه إلى جانبه وقرأ كتاب هاشم وسأله عن الناس وعن أبي موسى فقال : يا أمير المؤمنين ما أثق به ولا آمنه عليّ خلافاً إن وجد من يساعده عليّ ذلك .

فقال عليّ عليه السلام : والله ما كان عندي بمؤتمن ولا ناصح ولقد أردت عزله

(١) الرّبة: قرية من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز .

فأتاني الأشر وسألني أن أقرّه وذكر أن أهل الكوفة به راضون فأقرته .

وبعث عليه السلام بعد ذلك عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر إلى أبي موسى وكتب معهما: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس أما بعد يا ابن الحائك يا عاضّ أير أبيه^(١) فوالله إن كنت لأرى أن بعدك من هذا الأمر الذي لم يجعلك الله له أهلاً ولا جعل لك فيه نصيباً سيمنعك من ردّ أمري والإفتراء عليّ وقد بعثت إليك ابن عباس وابن أبي بكر فخلّهما والمصر وأهله واعتزل عملنا مذموماً مدحوراً فإن فعلت وإلاّ فإني قد أمرتهما أن ينابذاك على سواء إن الله لا يهدي كيد الخائنين فإذا ظهرا عليك قطعاك إرباً إرباً والسلام على من شكر النعمة ووفى بالبيعة وعمل برجاء العافية^(٢) .

قال ابن أبي الحديد: إنّ أبا موسى كان يقول لأهل الكوفة: إنّ علياً إمام هدىً وبيعتة صحيحة إلاّ أنّه لا يجوز القتال معه لأهل القبلة .

ولما بلغ علياً عليه السلام ذلك أرسل إليه هذا الكتاب أيضاً:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس أما بعد فقد بلغني عنك قول هو لك وعليك^(٣) فإذا قدم عليك رسولي فارفع ذيلك وأشدّد مشرك واخرج من حجرك^(٤) واندب من معك فإن حققت فانفذ وإن تفشلت فأبعد وأيم الله لتؤتين حيث أنت ولا تترك حتى تخلط زبدك بخائرك^(٥) وذائبك بجامدك وحتى تعجل عن قعدتك وتحذر من أمامك كحذر من خلفك^(٦) وما هي بالهويناء التي ترجو ولكنها الداهية الكبرى يركب جملها ويذلّ صعبها ويسهل جبلها فاعقل عقلك واملِك أمرك وخذ نصيبك وحظّك فإن كرهت فتنح إلى غير رحب ولا في نجاة فبالحرّي لتكفين

(١) الأير: الذكر وهو مثل ضربه أي من كثرت إخوته اشتدّ ظهره ولعلّ المعنى هنا أخذه بسنة أبيه الكافر ولزومه بجعله وعصبته ومعائبه أو قلة أعوانه وأنصاره ودناءته .

(٢) راجع شرح ابن أبي الحديد: ٢٩٠ / ٤ بيروت .

(٣) لاشتماله على الحقّ والباطل .

(٤) الأمر برفع الذيل وشدّ المنزر كناية عن الاهتمام في الأمر والخروج من الحجر استهانة به حيث جعله ثعلباً أو ضبعاً .

(٥) الخائر: اللّين الغليظ والزبد: خلاصة اللبن وصفوته .

(٦) قال ابن أبي الحديد: أي يأتبكم أهل البصرة مع طلحة وناتيككم بأهل المدينة والحجاز فيجتمع عليكم سيفان من أمامكم ومن خلفكم .

وأنت نائم حتى لا يقال: أين فلان والله إنه لحقّ مع محقّ وما يبالي ما صنع الملحدون والسلام^(١).

ولما بلغه عليه السلام خبر طلحة والزبير وقتلهما حكيم بن جبلة ورجالاً من الشيعة وضربهما عثمان بن حنيف وقتلهما السبابجة^(٢) قام على الغرائر^(٣) فقال: إنه أتاني خبر متفطّع ونبا جليل أنّ طلحة والزبير وردا البصرة فوثبا على عاملي فضرباه ضرباً مبرحاً وترك لا يدري أحى هو أم ميت وقتلا العبد الصالح حكيم بن جبلة في عدّة من رجال المسلمين الصالحين لقوا الله موفون ببيعتهم ماضون على حقهم وقتلا السبابجة خزّان بيت مال المسلمين قتلوهم صبراً وقتلوا طائفة منهم غدرأ. فبكى الناس بكاءً شديداً ورفع أمير المؤمنين عليه السلام يديه يدعو ويقول: اللهم أجز طلحة والزبير جزاء الظالم الفاجر والخفور الغادر^(٤).

وفي الرّبذة لقيه بها آخر الحاجّ فاجتمعوا ليسمعوا من كلامه وهو في خبائه قال ابن عباس فأتيته فوجدته يخصف نعلأ فقلت له نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوج منا إلى ما تصنع فلم يكلمني حتى فرغ من نعله ثم ضمّها إلى صاحبته وقال لي: قومهما. فقلت: ليس لهما قيمة قال: على ذاك، قلت: كسر درهم، قال: والله لهما أحب إليّ من أمركم هذا إلا أن أقسم حقأ أو أدفع باطلاً، قلت: إنّ الحاجّ اجتمعوا ليسمعوا من كلامك فتأذن لي أن أتكلّم فإن كان حسناً كان منك وإن كان غير ذلك كان مني؟ قال: لا أنا أتكلّم ثمّ وضع يده على صدري وكان ششن الكفين فألمني ثمّ قام فأخذت بثوبه وقلت: نشدتك الله والرحم قال: لا تنشدني ثمّ خرج فاجتمعوا عليه فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

أما بعد فإنّ الله بعث محمداً ﷺ وليس في العرب أحد يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة فساق الناس إلى منجاتهم أم والله ما زلت في ساقته ما غيرت ولا بدّلت ولا خنت حتى تولّت بحذافيرها.

مالي ولقريش أم والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلتهم مفتونين وإنّ مسيري هذا عن عهد إليّ فيه، أم والله لأبقرن الباطل حتى يخرج الحقّ من خاصرته ما تنقم منا

(١) نهج البلاغة: ٦٣ المختار من الكتب.

(٢) السبابجة: قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة وحزاس السجن.

(٣) الغرائر: ص ٥١.

(٤) بحار الأنوار: ٩٢/٣٢.

قریش إلا أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا وأنشد:

أدمنتَ لعمري شريك المحض خالصاً وأكلك بالزبد المقشرة البجرا
ونحن وهبناك العلاء ولم تكن علياً وحطنا حولك الجرد والسمرا^(١)

وعلي عليه السلام وهو مشغول بإعداد العدة والتأهب لملاقاة عدوه لا يترك عملاً من شأنه أن يرذ اعتباراً لمسلم بل لا يرذ طلباً لمستضعف وهذه هي الابوة بعينها وهذا هو الذوق السليم الذي يجب أن يكون عليه والي المسلمين وأمير المؤمنين.

أتاه رجل من محارب^(٢) فقال: يا أمير المؤمنين إني تحملت في قومي حمالة^(٣) وإني سألت في طوائف منهم المواساة والمعونة فسبقت إلي ألسنتهم بالنكد فمرهم يا أمير المؤمنين بمعوتي وحثهم على مواساتي.

فقال: أين هم؟ فقال: هؤلاء فريق منهم حيث ترى - قال: فنص راحلته^(٤) فأدلف كأنها ظليم^(٥) فأدلف بعض أصحابه في طلبها فلأيا بلأى^(٦) ما لحقت فانتهي إلى القوم فسلم عليهم وسألهم ما يمنعهم من مواساة صاحبهم؟ فشكوه وشكاهم.

فقال أمير المؤمنين: وصل امرء عشيرته فإنهم أولى بيزه وذات يده ووصلت العشيرة أخاها إن عثر به دهر وأدبرت عنه ديناً فإن المتواصلين المتبازلين مأجورون وإن المتقاطعين المتدابرين موزورون، ثم بعث راحلته.

(١) الإرشاد: ص ١٣٢ ذكر هذه القصة الرضي رضي الله عنه وهو عليه السلام في ذي قار راجع نهج البلاغة في المختار من خطبه ٣٣.

(٢) محارب: اسم قبيلة.

(٣) الحمالة بالفتح ما يتحملة الإنسان من غيره من دية أو غرامة.

(٤) نص راحلته: استخرج أقصى ما عندها من السير.

(٥) الدلف: المشي الرويد والظلم: ذكر النعمة.

(٦) لآئى لأيا: أي أبطأ.

عليّ عليه السلام في ماء العذيب^(١)

ولما نزل عليّ عليه السلام بماء العذيب كتب كتاباً إلى أهل الكوفة وبعثه مع ابنه الحسن عليه السلام وعمّار بن ياسر وهو:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار وسانم العرب
أما بعد: فإني أخبركم في أمر عثمان حتى يكون سمعه كميانه، إن الناس طعنوا
عليه فكنت رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه وأقلّ عتابه^(٢) وكان طلحة والزبير
أهون سيرهما فيه الوجيف^(٣) وأرفق حدائهما العنيف!!! وكان من عائشة فيه فلتة
غضب فأتى له قوم قتلوه وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين
مختيرين واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها وجاشت جيش
المرجل^(٤) وقامت الفتنة على القطب فأسرعوا إلى أميركم وبادروا جهاد عدوكم
إنشاء الله^(٥).

فلما قرأ الكتاب على الناس قام خطباء الكوفة شريح بن هانئ وغيره فقالوا:
والله لقد أردنا أن نركب إلى المدينة حتى نعلم علم عثمان فقد أنبأنا الله به في
بيوتنا ثم بذلوا السمع والطاعة وقالوا: رضينا بأمر المؤمنين ونطيع أمره ولا نتخلف
عن دعوته والله لو لم يستنصرنا لنصرناه سمعاً وطاعة.

(١) ماء العذيب: وهو ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلاً، وقيل: هو واد لبني تميم وهو من منازل حاج الكوفة.

(٢) أكثر استعتابه: أي أكثر طلب العتب منه والرجوع إلى ما يرضى به القوم منه وأقلّ عتابه أي لائمه على وجه الإذلال أما لعدم النفع أو للمصلحة.

(٣) الوجيف: السير السريع.

(٤) جاشت: غلت والمرجل: القدر من النحاس.

(٥) نهج البلاغة: المختار الأول من الكتب.

فلما سمع الحسن بن علي عليه السلام ذلك قام خطيباً فقال: أيها الناس إنه قد كان من أمير المؤمنين علي ما تكفيكم جملته وقد أتيناكم مستنفرين لكم لأنكم جبهة الأمصار ورؤساء العرب وقد كان من نقض طلحة والزبير بيعتهما وخروجهما بعائشة ما قد بلغكم وهو ضعف النساء وضعف رأيهن وقد قال الله تعالى: ﴿الزَّجَالِ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(١) وأيم الله لو لم ينصره أحد لرجوت أن يكون له فيمن أقبل معه من المهاجرين والأنصار ومن يبعث الله له من نجباء الناس كفاية فأنصروا الله ينصركم.

ثم جلس وقام عمار بن ياسر فقال: يا أهل الكوفة إن كانت غابت عنكم أبداننا فقد انتهت إليكم أمورنا إن قاتلي عثمان لا يعتذرون إلى الناس وقد جعلوا كتاب الله بينهم وبين محاجبيهم أحى من أحى وقتل من قتل وإن طلحة والزبير أول من طعن وآخر من أمر ثم بايعا أول من بايع فلما أخطأهما ما أملا نكثا بيعتهما على غير حدث كان وهذا ابن الرسول يستنفركم في المهاجرين والأنصار فأنصروا ينصركم الله^(٢).

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٢) أمالي الطوسي: ٨٧/٢.

عليّ عليه السلام في قائد

عن جابر بن يزيد الجعفي قال: سمعت أبا جعفر محمد بن عليّ عليه السلام يقول: حدثني أبي عن جدي قال:

لما توجه أمير المؤمنين عليه السلام من المدينة إلى الناكثين بالبصرة نزل الرّبذة فلما ارتحل منها لقيه عبد الله بن خليفة الطائي وقد نزل بمنزل يقال له: قائد فقربه أمير المؤمنين عليه السلام ورّحّب به وأجلسه إلى جنبه.

فهو مع عبد الله في هذا ونحوه إذ أقبل سواد كثير من قبل جبال طيء فقال أمير المؤمنين عليه السلام أنظروا ما هذا السواد؟ وقد ذهبت الخيل تركض فلم تلبث أن رجعت فقيل: هذه طيء قد جاءتك تسوق الغنم والإبل والخيل فمنهم من جاءك بهداياه وكرامته ومنهم من يريد النفوذ معك إلى عدوك فقال أمير المؤمنين عليه السلام: جزى الله طيّاً خيراً وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً فلما انتهوا إليه سلّموا عليه.

قال عبد الله بن خليفة فسرّني والله ما رأيت من جماعتهم وحسن هيئتهم وتكلّموا فأقروا والله لعيني ما رأيت خطيباً أبلغ من خطبهم.

وقام عديّ بن حاتم الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أما بعد فإنّي كنت أسلمت على عهد رسول الله ﷺ وأديت الزكاة على عهده وفاتلت أهل الردّة من بعده أردت بذلك ما عند الله وعلى الله ثواب من أحسن وأتقى وقد بلغنا أن رجلاً من أهل مكّة نكثوا بيعتك وخالفوا عليك ظالمين فأتيناك لننصرك بالحق فنحن بين يديك فمرنا بما أحببت ثمّ أنشأ يقول:

فنحن نصرنا الله من قبل ذاكم وأنت بحقّ جثتنا فسننصر
سنكفيك دون الناس طراً بنصرنا وأنت به من سائر الناس أجدر

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : جزاكم الله من حي عن الإسلام وأهله خيراً فقد أسلمتم طائعين وقاتلتم المرتدين ونويتم نصر المسلمين .

وقام سعيد بن عبيد البخري من بني بختري فقال : يا أمير المؤمنين إن من الناس من يقدر أن يعبر بلسانه عما في قلبه ومنهم من لا يقدر أن يبين ما يجده في نفسه بلسانه فإن تكلف ذلك شقّ عليه وإن سكت عما في قلبه برح به الهمة والبرم وإني والله ما كل ما في نفسي أقدر أن أؤديه إليك بلساني ولكن والله لأجهدن على أن أبين لك والله وليّ التوفيق أما أنا فإني ناصح لك في السرّ والعلانية ومقاتل معك الأعداء في كل موطن وأرى لك من الحق ما لم أكن أراه لمن كان قبلك ولا لأحد اليوم من أهل زمانك لفضيلتك في الإسلام وقرابتك من الرسول ولن أفارقك أبداً حتى تظفر أو أموت بين يديك .

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : يرحمك الله فقد أذى لسانك ما يجد ضميرك لنا ونسأل الله أن يرزقك العافية ويثيبك الجنة .

وتكلم نفر منهم فما حفظت غير كلام هذين الرجلين .

ثم ارتحل أمير المؤمنين عليه السلام وأتبعه منهم ستمائة رجل حتى نزل «ذي قار» فنزلها في ألف وثلاثمائة رجل^(١) .

(١) أمالي المفيد : ص ١٧١ وأمالي الطوسي : ٦٧/١ بتصرف .

عليّ عليّ السلام في ذي قار^(١)

لما نزل عليّ عليّ السلام بذي قار أخذ البيعة عليّ من حضره ثمّ تكلم فأكثر من الحمد لله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ ثمّ قال :

قد جرت أمور صبرنا عليها وفي أعيننا القذى تسليماً لأمر الله فيما امتحننا به رجاء الثواب على ذلك وكان الصبر عليها أمثل من أن يتفرّق المسلمون ويسفك دماؤهم نحن أهل البيت وعترّة الرّسول وأحقّ الخلق بسلطان الرّسالة ومعدن الكرامة التي ابتدأ الله بها هذه الأمة وهذا طلحة والزبير ليسا من أهل النبوة ولا من ذرية الرّسول حين رأيا أنّ الله قد ردّ علينا حقنا بعد أعصر لم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتّى وثبا على دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقّي ويفرّقا جماعة المسلمين عني .

ثمّ دعا عليّ عليّ السلام عليهما^(٢) .

والتقى أهل الكوفة بأمر المؤمنين عليّ عليّ السلام بذي قار حيّوا به ثمّ قالوا: الحمد لله الذي خضنا بجوارك وأكرمنا بنصرتك .

فقام أمير المؤمنين عليّ عليّ السلام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أهل الكوفة إنكم من أكرم المسلمين وأقصدهم تقويماً وأعدلهم سنة وأفضلهم سهماً في الإسلام وأجودهم في العرب مركباً ونصاباً أنتم أشدّ العرب وذاً للنبي ﷺ وأهل بيته وإنما جئتم ثقة بعد الله بكم للذي بذلتم من أنفسكم عند نقض طلحة والزبير وخلعهما طاعتي وإقبالهما بعائشة للفتنة وإخراجهما إياها من بيتها حتّى أقدماهما البصرة فاستغفروا طغامها وغوغائها^(٣) مع أنّه قد بلغني أنّ أهل الفضل منهم

(١) ذي قار: موضع قريب من البصرة.

(٢) راجع الإرشاد: ص ١٣٣ ط النجف.

(٣) الطغام: بالفتح أرغاد الناس والغوغاء: الكثر من الناس المختلطون.

وخيارهم في الدين قد اعتزلوا وكرهوا ما صنع طلحة والزبير ثم سكت عليه السلام.

فقال أهل الكوفة: نحن أنصارك وأعوانك على عدوك ولو دعوتنا إلى أضعافهم من الناس احتسبنا في ذلك الخير ورجوانه فدعا لهم أمير المؤمنين وأثنى عليهم ثم قال:

لقد علمتم معاشر المسلمين أن طلحة والزبير بايعاني طائعين غير مكرهين راغبين ثم استأذناني في العمرة فأذنت لهما فسارا إلى البصرة فقتلا المسلمين وفعلا المنكر اللهم إنيهما قطعاني وظلماني وجنياني ونكثا بيعتي وأكبا الناس علي فاحلل ما عقدا ولا تحكم ما أبرما وأرهما المائة فيما عملا^(١).

ولما نفر عليه السلام من ذي قار متوجّهاً إلى البصرة قال: بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ:

أما بعد: فإن الله تعالى فرض الجهاد وعظمه وجعله نصرة له، والله ما صلحت دنيا قط ولا دين إلا به، وإن الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله وشبهه في ذلك وخدع وقد بانت الأمور وتمحضت.

والله ما أنكروا علي منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً وأنهم يطلبون حقاً تركوه ودماً سفكوه ولئن كنت شركتهم فيه إن لهم نصيبهم منه، ولئن كانوا ولّوه دوني فما تبعته إلا قبلهم وإن أعظم حجّتهم لعلّ أنفسهم وإني لعلّ بصيرتي ما التبست علي وإنها للفتنة الباغية فيها اللحم واللحمة^(٢) قد طالت هيئتها^(٣) وأمكنّت درّتها يرضعون أمّاً فطمت ويحيون بيعة تركت ليعود الضلال إلى نصابه ما اعتذر ممّا فعلت ولا أتبرأ ممّا صنعت فيا خيبة للداعي ومن دعا لو قيل له إلى من دعوتك وإلى من أجبت ومن إمامك وما سنته إذا لزاح الباطل عن مقامه ولصمت لسانه فما نطق.

وأيم الله لأفرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه^(٤) ولا يصدرون عنه ولا يلقون بعده

(١) الإرشاد: ص ١٣٣.

(٢) لحم كلّ شيء: لته، واللحمة بالضم: القرابة أي فيها من يظنّ الناس أنهم لبّ الصحابة وفيهم من يدعي قرابة الرسول كالزبير.

(٣) قد طالت هيئتها: الهيئة: الرفق والسكون شبه تلك الفتنة وفتنتها بناقة طال سكونها وأمكنّت من حلبها كناية عن استمرار الفتنة وتمكّنها في أهل الجهل.

(٤) ماتحه: ص ٦٠.

رَبِّاً أَبَدًا وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعِذْرِهِ فِيهِمْ إِذْ أَنَا دَاعِيهِمْ فَمَعُذِرٌ إِلَيْهِمْ فَإِنْ تَابُوا وَأَقْبَلُوا فَالتَّوْبَةُ مَبْذُولَةٌ وَالْحَقُّ مَقْبُولٌ وَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ كُفْرَانٌ وَإِنْ أَبَوْا أُعْطِيَتْهُمْ حُدُّ السَّيْفِ فَكَفَى بِهِ شَافِئاً مَنْ بَاطِلٌ وَنَاصِراً لِمُؤْمِنٍ^(١).

(١) الإرشاد: ص ١٣٤.

حفصة وحقدها الأعمى عليّ عليه السلام

لما نزل عليّ عليه السلام ذي قار كتبت عائشة إلى حفصة أما بعد فإنني أخبرك أنّ عليّاً قد نزل ذي قار وأقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عدتنا وجماعتنا فهو بمنزلة الأشقر إن تقدّم عُقر وإن تأخر نحر.

فدعت حفصة جوارى لها يتغنين ويضربن بالدفوف فأمرتهن أن يقلن في غنائهن: ما الخبر ما الخبر؟ عليّ في السفر كالفرس الأشقر إن تقدّم عقر وإن تأخر نحر.

وجعلت بنات الطلقاء يدخلن عليّ حفصة ويجتمعن لسماع ذلك الغناء.

فبلغ أمّ كلثوم بنت عليّ عليه السلام ذلك فلبست جلابيبها ودخلت عليهن في نسوة متنكرات ثمّ أسفرت عن وجهها فلما عرفتها حفصة خجلت واسترجعت فقالت أمّ كلثوم: لئن تظاهرتما عليه اليوم لقد تظاهرتما عليّ أخيه من قبل فأنزل الله فيكما ما أنزل، فقالت حفصة: كفيّ رحمك الله وأمرت بالكتاب فمزق واستغفرت الله^(١).

(١) شرح ابن أبي الحديد: ٢٩٠/٤.

عليّ عليه السلام يصل البصرة

وحين دخل عليّ عليه السلام البصرة جمع أصحابه فحرضهم على الجهاد وقال :

عباد الله انهدوا إلى هؤلاء القوم منشرحة صدوركم بقتالهم فإنهم نكثوا بيعتي وأخرجوا ابن حنيفة عاملي بعد الضرب المبرح والعقوبة الشديدة وقتلوا السبابة ومثلوا بحكيم بن جبلة العبدى وقتلوا رجالاً صالحين ثم تتبعوا منهم من نجا يأخذونهم في كل حائط وتحت كل رابية ثم يأتون بهم فيضربون رقابهم صبراً ما لهم قاتلهم الله أنى يؤفكون .

انهدوا إليهم وكونوا أشداء عليهم والقوم صابرين محتسبين تعلمون أنكم منازلوهم ومقاتلوهم ولقد وطنتم أنفسكم على الطعن الدعسي والضرب الطلحفي^(١) ومبارزة الأقران .

وأي امرء أحسن من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ورأى من أحد من إخوانه فشلاً فليذب عن أخيه الذي فضل عليه كما يذب عن نفسه فلو شاء الله لجعله مثله^(٢) .

جاء كلامه هذا عليه السلام بعد الإنذار يتلوه الإنذار إلى الناكثين أن يرجعوا إلى رشدهم ويتوبوا إلى ربهم من ذلك ما قاله لعبد الله بن عباس وقد أرسله إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً^(٣) قرنه يركب

(١) الدعسي: بفتح الدال والياء المشددة قال في القاموس: الدعس: شدة الوطء والطعن والطعان والمداغسة: المطاعنة. والطلحف بكسر الطاء وفتح اللام وسكون الحاء: الشديد.

(٢) الإرشاد: ١٣٤ ط النجف.

(٣) عاقصاً: عاطفاً.

الصعب ويقول هو الذلول ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة^(١) فقل له : يقول لك ابن خالك : عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق فما عدا ممّا بدا^(٢).

(١) العريكة: الطيعة.

(٢) نهج البلاغة: المختار من الكتب ٣١.

رسول الناكثين إلى عليّ عليه السلام

بعث طلحة والزبير رجلاً من عبد القيس يقال له خدّاش إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقالوا له: إنا نبعثك إلى رجل طال ما كنّا نعرفه وأهل بيته بالسحر والكهانة وأنت أوثق من بحضرتنا من أنفسنا من أن تمتنع من ذلك منه وإنّ تحاجه لنا حتّى تقفه على أمر معلوم واعلم أنّه أعظم الناس دعوى فلا يكسرتك ذلك عنه ومن الأبواب التي يخدع الناس بها الطعام والشراب والعسل والذهن وأنّ يخالي الرجل فلا تأكل له طعاماً ولا تشرب له شرباً ولا تمسّ له عسلاً ولا دهناً ولا تخل معه واحذر هذا كلّه منه وانطلق على بركة الله فإذا رأيته فاقراً آية السحرة وتعوّذ بالله من كيده وكيد الشيطان فإذا جلست إليه فلا تمكّنه من بصرك كلّه ولا تستأنس به ثمّ قل له: إنّ أخويك في الدين وابني عمّيك يناشدانك القطيعة ويقولان لك: أما تعلم أنّا تركنا الناس لك وخالفنا عشائرتنا فيك منذ قبض الله عزّ وجلّ محمداً ﷺ فلمّا نلت أدنى منال ضيّعت حرمتنا وقطعت رجاءنا ثمّ قد رأيت أفعالنا فيك وقدرتنا على النأي عنك وسعة البلاد دونك وإنّ من كان يصرفك عنّا وعن صلّتنا كان أقلّ لك نفعاً وأضعف عنك دفعاً منا وقد وضع الصبح لذي عينين وقد بلغنا عنك انتهاك لنا ودعاء علينا فما الذي يحملك على ذلك فقد كنّا نرى أنّك أشجع فرسان العرب اتّخذ اللّعن لنا ديناً وترى أنّ ذلك يكسرنا عنك.

فلمّا أتى خدّاش أمير المؤمنين عليه السلام صنع ما أمراه فلمّا نظر إليه عليّ عليه السلام وهو يناجي نفسه ضحك وقال: ها هنا يا أبا عبد قيس وأشار له إلى مجلس قريب منه فقال: ما أوسع المكان أريد أن أوّدي إليك رسالة، قال: بل تطعم وتشرب وتخلّي ثيابك وتدهن ثمّ تؤدّي رسالتك قم يا قنبر فأنزله، قال: ما بي إلّا شيء مما ذكرت حاجة قال: فأخلو بك قال: كلّ سرّ لي علانية، قال: فأنشدك الله الذي هو أقرب إليك من نفسك الحائل بينك وبين قلبك الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور أتقدّم لك الزبير بما عرضت عليك؟ قال: اللّهم

نعم. قال: لو كتمت بعدما سألتك ما ارتدّ إليك طرفك فأنشدك الله هل علمك كلاماً تقولُه إذا أتيتني؟ قال: اللهم نعم، قال عليّ عليه السلام: آية السحرة؟ قال: نعم، قال: فاقراها فقرأها، قال: أتجد قلبك اطمأن؟ قال: أي والذي نفسي بيده قال: فما قال لك؟ فأخبره فقال: قل لهما: كفى بمنطقكما حجة عليكما ولكن الله لا يهدي القوم الظالمين زعمتما أنكما أخوأي في الدين وابنا عمي في النسب، أما النسب فلا أنكره وإن كان النسب مقطوعاً إلا ما وصله الله بالإسلام.

وأما قولكما أنكما أخوأي فإن كنتما صادقين فقد فارقتما كتاب الله عز وجل وعصيتما أمره بأفعالكما في أخيكما في الدين وإلا فقد كذبتما وافتريتما باذعائكما أنكما أخوأي في الدين.

وأما مفارقتكما الناس منذ قبض الله محمداً فإن كنتما فارقتماهم بحق فقد نقضتما ذلك الحق بفراقكما إياي أخيراً وإن فارقتماهم بباطل فقد وقع اثم ذلك الباطل عليكما مع الحدث الذي أحدثتما مع أنّ صفقتكما بمفارقتكما الناس لم يكن إلا لطمع الدنيا زعمتما وذلك قولكما «قطعت رجاءنا» لا تعيين بحمد الله عليّ من ديني شيئاً.

وأما الذي صرفني عن صلتكما فالذي صرفكما عن الحق وحملكما عليّ خلعه من رقابكما كما يخلع الحرون لجامه وهو الله ربّي لا أشرك به شيئاً فلا تقولاً هو أقل نفعاً وأضعف دفعاً فتستحقاً اسم الشرك مع التفاق.

وأما قولكما «إني أشجع فرسان العرب وهربكما من لعني ودعائي فإن لكل موقف عملاً إذا اختلفت الأسنة وماجت لبود الخيل وملاً سحراكما أجوافكما فثم يكفيني الله بكمال القلب.

وأما إذا أبيتما بأنّي أدع الله فلا تجزعا من أن يدعو عليكما رجل ساحر من قوم سحرة زعمتما.

ثم قال: اللهم اقعص الزبير شر قتلة وأسفك دمه عليّ ضلالة وعرف طلحة المذلة وادخر لهما في الآخرة شراً من ذلك إن كان ظلماني وافتريا عليّ وكثما شهادتهما وعصيانني وعصيا رسولك في قل آمين.

قال خدّاش: آمين ثم قال خدّاش لنفسه والله ما رأيت لحية قطّ أبين خطأ

منك حامل حجة ينقض بعضها بعضاً لم يجعل الله لها سماً أنا أبرأ إلى الله
منهما.

ثم قال علي عليه السلام : ارجع إليهما وأعلمهما ما قلت : قال : لا والله حتى
تسأل الله أن يردني إليك عاجلاً وأن يوفقني لرضاه فيك!! ففعل فلم يلبث أن
انصرف وقتل معه يوم الجمل رحمه الله^(١).

(١) راجع الأصول من الكافي : ٣٤٣/١ بتصرف.

بدء المعركة

زحف علي عليه السلام بالناس غداة يوم الجمعة لعشر ليال خلون من جمادي الآخرة سنة ست وثلاثين، على ميمته الأشتر وسعيد بن قيس، وعلى ميسرته عمار وشريح بن هانئ وعلى القلب محمد بن أبي بكر وعدي بن حاتم وعلى الجناح زياد بن كعب وحجر بن عدي وعلى الكمين عمرو بن الحمق وجندب بن زهير وعلى الرجال أبو قتادة الأنصاري. وأعطى رايته محمد بن الحنفية ثم أوقفهم من صلاة الغداة إلى صلاة الظهر يدعوهم ويناشدهم ويقول لعائشة: إن الله أمرك أن تقرّي في بيتك فاتقي الله وارجعي ويقول لطلحة والزبير خباثتما نساءكما وأبرزتما زوجة رسول الله ﷺ واستفززتماها فيقولان: إنما جئنا للطلب بدم عثمان وأن يرد الأمر شورى.

ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام للزبير أما تذكر يوماً كنت مقبلاً بالمدينة تحدثني إذ خرج رسول الله ﷺ فرآك معي وأنت تبسم إلي فقال لك: يا زبير أتحب علياً؟ فقلت: وكيف لا أحبه وبينني وبينه من النسب والمودة في الله ما ليس لغيره. قال: إنك ستقاتله وأنت ظالم له فقلت: أعوذ بالله من ذلك.

ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام دع هذا بايعتني طائعاً ثم جئت محارباً فما عدا ممّا بدا؟ فقال: لا جرم والله لا قاتلتك، فلقية عبد الله ابنه فقال جبناً جبناً؟ فقال: يا بني قد علم الناس أنني لست بجبان ولكن ذكرني علي شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ فحلفت أن لا أقاتله فقال: دونك غلامك فلان فأعتقه كفارة ليمينك.

وقالت له عائشة: لا والله بل خفت سيوف ابن أبي طالب أما إنها طوال حداد تحملها سواعد أنجاد ولئن خفتها فلقد خافها الرجال من قبلك.

فرجع إلى القتال فقليل لأمر المؤمنين عليه السلام إنه قد رجع فقال: دعوه فإن الشيخ محمول عليه ثم قال:

أيها الناس غَضُوا أَبْصَارَكُمْ وَعَضُوا عَلَى نَوَاجِذِكُمْ وَأَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ رَبِّكُمْ وَإِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْكَلَامِ فَإِنَّهُ فُشِلَ .

ونظرت عائشة إليه وهو يجول بين الصفين فقالت: انظروا إليه كأنَّ فعله فعل رسول الله ﷺ يوم بدر أما والله لا ينتظر بك إلا زوال الشمس .

فقال علي عليه السلام : يا عائشة عما قليل لتصبحن نادمين .

فجدَّ الناس في القتال فنهاهم أمير المؤمنين عليه السلام وقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْذَرْتُ وَأَنْذَرْتُ فَكُنْ لِي عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

ثم أخذ المصحف وطلب من يقرأه عليهم «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما» .

فقال مسلم المجاشعي: ها أنذا فأخذه ودعاهم إلى الله فقطعت يده اليمنى فأخذه بيده اليسرى فقطعت فأخذه بأسنانه فقتل، فقالت أمه:

يا رب إن مسلماً أتاهم بمحكم التنزيل إذ دعاهم
يتلو كتاب الله لا يخشاهم فرقلوه رملت لحاهم

فقال عليه السلام الآن طاب الضراب .

وقال لمحمد بن الحنفية والراية في يده: يا بني تزول الجبال ولا تزل عض على ناجذك أعر الله جمجمتك تد في الأرض قدميك ارم ببصرك أقصى القوم وغض بصرك واعلم أنَّ النصر من الله .

ثم صبر سويعة فصاح الناس من كل جانب من وقع النبال فقال عليه السلام :
تقدّم يا بني، فتقدّم وطعن طعناً منكراً، وقال:

اطعن بها طعن أبيك تحمد لا خير في حرب إذا لم توقد
بالمشرفي والقنا المسدد والضرب بالخطي والمهند^(١)

فأمر الأشر أن يحمل فحمل وقتل هلال بن وكيع صاحب ميمنة الجمل:

وخرج عبد الله بن الزبيري قائلاً:

(١) المشرفية: سيف نسب إلى مشارف وهي قرية من أرض العرب، والخطي: رماح تنسب إلى خط موضع باليمامة .

يا ربّ إنّي طالب أبا الحسن ذاك الذي يعرف حقّاً بالفتن
فبرز إليه عليّ عليه السلام قائلاً:
إن كنت تبغي أن ترى أبا الحسن
وضربه ضربة مجزّمة.

فخرج بنو ضبّة وجعل يقول بعضهم:
نحن بنو ضبّة أصحاب الجمل
ردّوا علينا شيخنا بمرتحل
وقال آخر:

نحن بنو ضبّة أعداء عليّ ذاك الذي يعرف فيهم بالوصي
وكان عمرو بن اليشربي يقول:
إن تنكروني فأنا ابن اليشربي قاتل علباء وهند الجمل
ثمّ ابن صوحان عليّ دين عليّ
فبرز إليه عمّار قائلاً:

لا تبرح العرصة يا ابن اليشربي أثبت أقاتلك عليّ دين عليّ
فقطعه وأرداه عن فرسه وحرّ برجله إلى عليّ فقتله بيده.
فخرج أخوه قائلاً:

أضربكم ولو أرى عليّاً عمّمته أبيض مشرفياً
وأسمراً عنطنطاً خطياً أبكي عليه الولد والوليا^(١)
فخرج إليه عليّ عليه السلام متنكراً وهو يقول:

يا طالباً في حربته عليّاً يمنحه أبيض مشرفياً
أثبت ستلقاه بها مليّاً مهذباً سميدعاً كمياً^(٢)

(١) العنطنط: الطويل.

(٢) المليء: الثقة والسميدع: السيد والكمي: الشجاع.

فضربه فرمى نصف رأسه .

فناداه عبد الله بن خلف الخزاعي صاحب منزل عائشة بالبصرة أتيارزني؟
فقال عليه السلام ما أكره ذلك ولكن ويحك يا ابن خلف ما راحتك في القتل
وقد علمت من أنا؟

فقال : ذرني من بذحك يا ابن أبي طالب ثم قال :

إن تدن مني يا علي فتراً فلئنني دان إليك شبراً
بصارم يسقيك كأساً مرّاً ها إن في صدري عليك وترّاً
فبرز إليه علي عليه السلام قائلاً :

يا ذا الذي يطلب مني الوترا إن كنت تبغي أن تزور القبرا
حقاً وتصلني بعد ذاك جمرا فادن تجدني أسداً هزيراً^(١)
أصعطك اليوم زعاقاً صبراً

فضربه فطير جمجمته .

فخرج مازن الضبي قائلاً :

إن تنكروني فأنا بن نهشل فارس هيجا وخطيب فيصل
فقتله .

وحمل أمير المؤمنين عليه السلام على بني ضبة فما رأيتهم إلا كرماد اشتدت به
الريح في يوم عاصف وشذ رجل من الأزد على محمد بن الحنفية وهو يقول : يا
معشر الأزد كروا فضربه ابن الحنفية فقطع يده فقال : يا معشر الأزد فزوا !!!

فخرج الأسود بن البختری السلمي قائلاً :

أرحم إلهي الكل من سليم وانظر إليه نظرة الرحيم

فقتله عمرو بن الحمق .

فخرج جابر الأزدي قائلاً :

(١) الهزير : الأسد .

يا ليت أهلي من عمار حاضري من سادة الأزد وكانوا ناصري
فقتله محمد بن أبي بكر .
وخرج عوف القيني قائلاً :
يا أم يا أم خلا متي الوطن لا أبتغي القبر ولا أبتغي الكفن
فقتله محمد بن الحنفية .
فخرج بشر الضبي قائلاً :
ضبة أبدي للعراق عممة وأضرمي الحرب العوان المضرمة
فقتله عمار .

وكان طلحة يحث الناس ويقول : عباد الله الصبر الصبر ، وكان مروان بن
الحكم يقول : والله ما أطلب ثأري بعثمان بعد اليوم أبداً فرمى طلحة بسهم فأصاب
ركبته والتفت إلى أبان بن عثمان .
وقال : لقد كفيتك أحد قتلة أبيك .
وبهذا قال السيد الحميري :
واختل من طلحة المزهو جُتته سهم بكف قديم الكفر غدار
في كف مروان مروان اللعين أرى رهط الملوك ملوك غير أخيار
وله :

واغتر طلحة عند مختلف القنا عبل الذراع شديد أصل المنكب^(١)
فاختل حبة قلبه بمدلق ريان من دم جوفه المتصبب^(٢)
في مارقين من الجماعة فارقوا باب الهدى وحيا الربيع المخصب
وأما الزبير فتبعه جُرموز وجز رأسه وأتى به إلى أمير المؤمنين .

وبهذا قال السيد الحميري :
أما الزبير فحاص حين بدت له جاؤوا ببرق في الحديد الأشهب

(١) عبل الذراعين : أي ضخمهما .

(٢) دلق السيف من غمده : أخرجه .

حتى إذا أمن الحثوف وتحته عاري النواحق ذو نجاء صهلب
أثوى ابن جزموز عمير شلوه بالقاع منعفراً كشلوا التولب

فقالوا: يا عائشة قتل طلحة والزبير وجرح عبد الله بن عامر من يدي علي
فصالحى علياً فقالت: كبر عمرو عن الطوق^(١) وجلّ أمر عن العتاب ثم تقدّمت.

فحزن عليّ عليه السلام وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون فجعل يخرج واحد بعد
واحد ويأخذ الزمام حتى قتل ثمان وتسعون رجلاً.

ثم تقدّمهم كعب بن سور الأزدي وهو يقول:

يا معشر الناس عليكم أممكم فإنها صلاتكم وصومكم
والحرمة العظمى التي تعمكم لا تفضحوا اليوم فداكم قومكم

فقتله الأشر.

فخرج ابن جفیر الأزدي يقول:

قد وقع الأمر بما لم يحذر والتبيل يأخذن وراء العسكر
وأمننا في حذرهما المشمر فبرز إليه الأشر قائلاً:

اسمع ولا تعجل جواب الأشر واقرب تلاق كأس موت أحمر
ينسيك ذكر الجمل المشمر

فقتله ثم قتل عمر الغنوي وعبد الله بن عتاب بن أسيد ثم جال في الميدان
جولاً وهو يقول:

نحن بنو المموت به غذيننا

فخرج إليه عبد الله بن الزبير فطعنه الأشر وأرداه وجلس على صدره ليقتله
فصاح عبد الله اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي فقصده إليه من كل جانب فخلّاه
وركب فرسه فلما رأوه راكباً تفرّقوا عنه.

وكانت عائشة تنادي بأرفع صوتها أنها الناس عليكم بالصبر فإنما يصبر
الأحرار.

فأجابها كوفي.

(١) أي لم يبق للصلح مجال مثل يضرب.

يا أُمّ يا أُمّ عَفَقَت فاعلموا
أما ترى كم من شجاع يكلم
والأُمّ تغذوا ولدها وترحم
وتجتلي هامته والمعصم
وقال آخر

قلت لها وهي على مهوات
فقال الحجاج بن عمر الأنصاري:
إِنَّ لَنَا سِوَاكَ أَقْهَات
فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ثَاوِيَات

يا معشر الأنصار قد جاء الأجل
فبادروه نحو أصحاب الجمل
إني أرى الموت عياناً قد نزل
ما كان في الأنصار جبن وفشل
فكُل شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ جَلِيل

وقال خزيمة بن ثابت:

لم يغضبوا لله إلا للجمل
والموت أحرى من فرار وفشل
والموت خير من مقام في خمل
والقول لا ينفع إلا بالعمل
وقال شريح بن هانئ:

لا عيش إلا ضرب أصحاب الجمل
وقال هانئ بن عروة المذحجي:

يا لك حرباً جثها جمالها
هَذَا عَلَيَّ حَوْلُهُ أَقْيَالُهَا
قائدة ينقصها ضلالها

وقال سعيد بن قيس الهمداني:

قل للوصي اجتمعت قحطانها
وقال عمار:

إني لعمّار وشيخي ياسر
والحق في كفّ عليّ ظاهر
صاح كلانا مؤمن مهاجر
طلحة فيها والزبير غادر

وقال الأشتر:

هذا علي في الذبي مصباح نحن بذا في فضله فصاح
وقال عدي بن حاتم:

أنا عدي ونماني حاتم هذا علي بالكتاب عالم
لم يعصه في الناس إلا ظالم
وقال عمرو بن الحمق:

هذا علي قائد يرضى به أخو رسول الله في أصحابه
من عوده النامي ومن نصابه
وقال رفاعة بن شداد البجلي:

إن الذي قطعوا الوسيلة ونازعوا علي في الفضيلة
في حربه كالنعجة الأكيلة

وشكت السهام الهودج حتى كأنه جناح نسر أو شوك قنفذ.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام ما أراه يقاتلكم غير هذا الهودج اعقروا الجمل.

وقال لمحمد بن أبي بكر: أنظر إذا عرقب الجمل فأدرك أختك فوارها.

فأتاه علي عليه السلام ودق رمحه على الهودج وقال: يا عائشة أهكذا أمرك
رسول الله ﷺ أن تفعلي؟ فقالت: يا أبا الحسن ظفرت فأحسن وملكيت فأسجع.

فقال علي عليه السلام لمحمد بن أبي بكر: شأنك وأختك فلا يدنو أحد منها سواك.

فقال لها محمد: ما فعلت بنفسك؟ عصيت ربك وهتكت سترك ثم أبحت
حرمتك وتعرضت للقتل فذهب بها إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي^(١) ودخل
عليها عمار بن ياسر ومعه الأشر فقالت: من معك يا أبا اليقظان؟ فقال مالك
الأشر فقالت: أنت فعلت بعبد الله ما فعلت؟ فقال: نعم ولولا كوني شيخاً كبيراً
وطاويماً لقتلته وأرحت المسلمين منه، قالت: أو ما سمعت قول النبي ﷺ إن
المسلم لا يقتل إلا عن كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتل النفس التي حرم
الله قتلها؟ فقال: يا أم المؤمنين علي أحد الثلاثة قاتلناه ثم أنشد:

(١) المناقب: ٢/٣٣٩ ط النجف بتصريف.

أعائش لولا أنني كنت طاوياً ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكاً
عُشّة يدعو والرجال تجوزه بأضعف صوت اقتلونني ومالكاً
فلم يعرفوه إذ دعاهم وعمه خذّب عليه في العجاجة باركاً^(١)
فنجاه مني أكله وشبابه وإني شيخ لم أكن متماسكاً^(٢)

فقال لها عمار: يا أمة كيف رأيت ضرب بنيك دون دينهم بالسيف؟ فقالت:
استبصرت يا عمار من أنك غلبت؟ فقال: أنا أشد استبصاراً من ذلك أم والله لو
ضربتمونا حتى تبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنكم على الباطل.

فقالت له عائشة: هكذا يخيل إليك اتق الله يا عمار فإن سنك قد كبرت ودق
عظمك وفني أجلك وأذهبت دينك لابن أبي طالب!!

فقال عمار: إني والله اخترت لنفسي في أصحاب رسول الله ﷺ فرأيت علياً
أقرأهم لكتاب الله عز وجل وأعلمهم بتأويله وأشدّهم تعظيماً لحرمة وأعرفهم
بالسنة مع قرابته من رسول الله ﷺ وعظم عنائه وبلائه في الإسلام فسكت^(٣).

(١) رجل خذّب: بكسر الخاء وفتح الدال وتشديد الباء أي ضخم.

(٢) كشف الغمّة: ٢٤٠/١.

(٣) أمالي المفيد: ١ - ١٤٢ ط بيروت.

عليّ عليه السلام يطوف على القتلى بعد المعركة

قال عليّ عليه السلام عند تطوافه على القتلى :

هذه قريش جدعت أنفي وشفيت نفسي فقد تقدّمت إليكم أحذركم عضّ
السيف وكنتم أحداثاً لا علم لكم بما ترون ولكنه الحين وسوء المصراع وأعوذ بالله
من سوء المصراع.

ثم مرّ عليّ معبد بن المقداد فقال : رحم الله أبا هذا أما إنه لو كان حيّاً لكان
رأيه أحسن من رأي هذا.

فقال عمار بن ياسر : الحمد لله الذي أوقعه وجعل خذه الأسفل ، إنا والله يا
أمير المؤمنين لا نبالي من عند الحق من والد وولد.

قال أمير المؤمنين عليه السلام : رحمك الله وجزاك عن الحق خيراً.

ومرّ عليه السلام بعبد الله بن ربيعة بن دراج وهو في القتلى وقال : هذا البائس ما
كان أخرجه ؟ أدين أخرجه أم نصر لعثمان ؟ والله ما كان رأي عثمان فيه ولا في أبيه
بحسن .

ثم مرّ بمعبد بن زهير بن أبي أمية فقال : لو كانت الفتنة برأس الثريا لتناولها
هذا الغلام والله ما كان فيها بذي نخيرة ولقد أخبرني من أدركه وإنه ليولول فرقاً^(١)
من السيف .

ثم مرّ عليه السلام بمسلم بن قرظة فقال : البرّ أخرج هذا!! والله لقد كلّمني أن
أكلم له عثمان في شيء كان يدّعيه قبله بمكة فأعطاه عثمان وقال : لولا أنت ما
أعطيته إن هذا ما علمت بش أخو العشيرة ثم جاء المشوم للحين ينصر عثمان .

(١) فرقاً: خوفاً.

ثُمَّ مَرَّ ﷺ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ فَقَالَ: هَذَا خَالَفَ أَبَاهُ فِي الْخُرُوجِ وَأَبُوهُ حِينَ لَمْ يَنْصُرْنَا قَدْ أَحْسَنَ فِي بَيْعَتِهِ لَنَا وَإِنْ كَانَ قَدْ كَفَّ وَجَلَسَ حِينَ شَكَّ فِي الْقِتَالِ مَا أَلُومُ الْيَوْمَ مِنْ كَفِّ عَنَّا وَعَنْ غَيْرِنَا وَلَكِنَّ الْمَلِيمَ الَّذِي يَقَاتِلُنَا.

ثُمَّ مَرَّ ﷺ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ فَقَالَ: أَمَّا هَذَا فَقُتِلَ أَبُوهُ يَوْمَ قَتَلَ عُثْمَانَ فِي الدَّارِ فَخَرَجَ مَغْضَبًا لِقَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ غَلَامٌ حَدَثَ جَبِنَ لِقَتْلِهِ.

ثُمَّ مَرَّ ﷺ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي عُثْمَانَ بْنِ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ فَقَالَ: أَمَّا هَذَا فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَقَدْ أَخَذَتْ الْقَوْمَ السِّیُوفُ هَارِبًا يَعْذُو مِنَ الصَّفِّ فَتَنَهَيْتُ^(١) عَنْهُ فَلَمْ يَسْمَعْ مِنْ نَهْنِهَتِي حَتَّى قَتَلَهُ وَكَانَ هَذَا مِمَّا خَفِيَ عَلَى فُتَيَانَ قُرَيْشٍ أَغْمَارُ^(٢) لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ خَدَعُوا وَاسْتَنْزَلُوا فَلَمَّا وَقَفُوا لِحُجْوَا^(٣) فَقَتَلُوا.

ثُمَّ مَشَى قَلِيلًا فَمَرَّ بِكَعْبِ بْنِ سَوْرٍ فَقَالَ: هَذَا الَّذِي خَرَجَ عَلَيْنَا فِي عُنُقِهِ الْمَصْحَفُ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَاصِرُ أُمَّهُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى مَا فِيهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا فِيهِ ثُمَّ اسْتَفْتَحَ فُخَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ أَمَّا إِنَّهُ دَعَا اللَّهَ أَنْ يَقْتُلَنِي فَقَتَلَهُ اللَّهُ اجْلِسُوا كَعْبُ بْنُ سَوْرٍ فَأَجْلَسَ فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ يَا كَعْبُ لَقَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ حَقًّا؟ ثُمَّ قَالَ: اضْجَعُوا كَعْبًا وَمَرَّ ﷺ عَلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ فَقَالَ: هَذَا النَّاكثُ بَيْعَتِي وَالْمَنْشِيءُ الْفِتْنَةَ فِي الْأُمَّةِ وَالْمَجْلِبُ عَلَيَّ وَالذَّاعِي إِلَى قَتْلِي وَقَتْلِ عَتْرَتِي اجْلِسُوا طَلْحَةَ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ فَأَجْلَسَ فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ يَا طَلْحَةُ قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ حَقًّا؟ ثُمَّ قَالَ: اضْجَعُوا طَلْحَةَ وَسَارَ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَتَكَلِّمُ كَعْبًا وَطَلْحَةَ بَعْدَ قَتْلِهِمَا؟ فَقَالَ: أَمْ وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعَا كَلَامِي كَمَا سَمِعَ أَهْلُ الْقَلِيبِ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ^(٤) وَكَانَ بِجَانِبِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَتَابٍ بْنُ أُسَيْدٍ^(٥)، فَقَالَ ﷺ لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتَلَتْ تَحْتَ بَطُونِ الْكُؤَاكِبِ أَدْرَكَتْ وَتَرَى^(٦) مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ

(١) نهنت عنه: أي كفت وزجرت.

(٢) الأغمار: جمع الغمر بالضم ويفتحين وهو الذي لم يجزب الأمور.

(٣) لحج السيف وغيره بالكسر أي نشب في الغمد فلا يخرج.

(٤) الإرشاد: ١٣٥ ط النجف.

(٥) عبد الرحمان من التابعين وأبوه كان أمير مكة في زمن الرسول.

(٦) الرتر: الجنابة التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أو نهب أو سبي.

وأفليتتني أعيان بني جمح لقد أتلعوا أعناقهم^(١) إلى أمر لم يكونوا أهله فوقصوا
دونه^(٢).

(١) أتلعوا أعناقهم: رفعوها.

(٢) نهج البلاغة: ٢١٧ من الخطب المختارة والوقص: كسر العنق.

في البصرة

بعث أمير المؤمنين عليه السلام محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر إلى عائشة أن ترتحل وتلحق بيثها الذي تركت فيه رسول الله ﷺ فقالت: والله لا أريم^(١) عن هذا البلد أبداً!! فرجعا إلى أمير المؤمنين وأخبراه بقولها فغضب ثم ردهما إليها وبعث معهما الأشر فقال: والله لتخرجن أو لتحملن احتمالاً.

ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام يا معشر عبد القيس اندبوا إلى الحرّة الخيرة من نسائكم فإن هذه المرأة من نسائكم فإنها قد أبت أن تخرج لتحملوها احتمالاً فلما علمت بذلك قالت لهم: قولوا فليجهزني فأتوا أمير المؤمنين عليه السلام فذكروا له ذلك فجهزها وبعث معها بالنساء^(٢).

وقال عبد الله بن عباس فأتيتها وهي في قصر بني خلف في جانب البصرة قال: فطلبت الإذن عليها فلم تأذن فدخلت عليها من غير إذنها فإذا بيت قفار لم يعد لي فيه مجلس فإذا هي من وراء ستريين قال: فضربت ببصري فإذا في جانب البيت رحل عليه طنفسة^(٣) قال: فمددت الطنفسة فجلست عليها فقالت من وراء الستر: يا بن عباس أخطأت السنة دخلت بيتنا بغير إذنا وجلست على متاعنا بغير إذنا!! فقال لها ابن عباس رحمه الله نحن أولى بالسنة منك ونحن علمناك السنة وإنما بيتك الذي خلفك فيه رسول الله ﷺ فخرجت منه ظالمة لنفسك غاشة لدينك عاتية على ربك عاصية لرسول الله ﷺ فإذا رجعت إلى بيتك لم ندخله إلا بإذنك ولم نجلس على متاعك إلا بأمرك إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعث إليك يأمرك بالرحيل إلى المدينة وقلّة العرجة^(٤).

(١) لا أريم: أي لا أنتقل.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢/٢٧٤.

(٣) الطنفسة: البساط والحصير من سعف عرضه ذراع.

(٤) العرجة: الإقامة.

فقالت: رحم الله أمير المؤمنين ذلك عمر بن الخطاب. فقال ابن عباس: هذا والله أمير المؤمنين وإن تربدت^(١) فيه وجوه ورغمت فيه معاطس^(٢) أما والله لهو أمير المؤمنين وأمس برسول الله ﷺ رحماً وأقرب قرابة وأقدم سبقاً وأكثر علماً وأعلى مناراً وأكثر آثاراً من أبيك ومن عمر فقالت: أبيت ذلك فقال: أما والله إن كان إباؤك فيه لقصير المدة عظيم التبعة ظاهر الشؤم بين النكد وما كان إباؤك فيه إلا حلب شاة حتى صرت ما تأمرين وتنهين ولا ترفعين ولا تضعين وما كان مثلك إلا كمثل الحضرمي بن نجمان أخي بني أسد حيث يقول:

ما زال إهداء القصائد بيننا شتم الصديق وكثرة الألقاب
حتى تركتهم كأن قلوبهم في كل مجمعة طنين ذباب

قال: فأراقت دمعها وأبدت عويلها وتبدأ نشيجها ثم قالت: أخرج والله عنكم فما في الأرض بلد أبغض إلي من بلد تكونون فيه!!

فقال ابن عباس رحمه الله: فلم؟ والله ماذا بلاءنا عندك ولا بصنيعنا إليك إنا جعلناك للمؤمنين أمماً وأنت بنت أم رومان وجعلنا أباك صديقاً وهو ابن أبي قحافة حامل قصاع الودك^(٣) لابن جذعان إلى أضيافه؟! فقالت: يا بن عباس تمنون علي برسول الله ﷺ؟ فقال: ولم لا يمين عليك بمن لو كان منك قلامة منه منتنتا به!! ونحن لحمه ودمه ومنه وإليه وما أنت إلا حشيتة^(٤) من تسع حشايا خلفهن بعده لست بأبيضهن لوناً ولا بأحسنهن وجهاً ولا بأرشدن عرقاً ولا بأنضرهن ورقاً ولا بأطراهن أصلاً فصرت تأمرين فتطاعين وتدعين فتحابين وما مثلك إلا كما قال أخو بني فهر.

منتت على قومي فأبدوا عداوة فقلت لهم كفوا العداوة والشكرا
ففيه رضا من مثلكم لصديقه واحج به أن تجمعوا البغي والكفرا^(٥)

قال ابن عباس: ثم نهضت وأتيت أمير المؤمنين فأخبرته بمقالتها وما رددت

(١) تريد وجه فلان: أي تغير من الغضب.

(٢) المعاطس: الأنوف.

(٣) الودك: السم.

(٤) الحشية: الفراش المحشو كثر عن النساء والتعبير عنهن بالفرش.

(٥) أحج به: أي هو ألزم لحجتكم.

عليها فقال: أنا كنت أعلم بك حيث بعثك^(١).

ولما وصلت عائشة إلى المدينة راجعة من البصرة لم تزل تحرّض الناس على
أمير المؤمنين عليه السلام وكتبت إلى معاوية وأهل الشام مع الأسود بن البخثري
تحرّضهم عليه عليه السلام^(٢).

(١) رجال الكشي: ترجمة عبد الله بن عباس ص ٥٥ ط النجف.

(٢) الاحتجاج: ٤٦٢/٢ ط النجف.

إعلان العفو العام

من كلام لعليّ عليه السلام بالبصرة حين انتصر على أعداء الله عز وجل فقال بعد الحمد والثناء: أما بعد فإن الله ذو رحمة واسعة ومغفرة دائمة، وعفو جم وعقاب أليم قضى أن رحمته ومغفرته وعفوه لأهل طاعته من خلقه وبرحمته اهتدى المهتدون وقضى أن نقمته وسطواته وعقابه على أهل معصيته من خلقه وبعد الهدى والبيئات ما ضل الضالون فما ظنكم يا أهل البصرة وقد نكثتم بيعتي وظاهرتم عليّ عدوي؟

فقام إليه رجل فقال: نظنّ خيراً ونراك قد ظهرت وقدرت فإن عاقبت فقد اجترمنا ذلك وإن عفوت فالعفو أحب إلى الله تعالى.

فقال: قد عفوت عنكم فإياكم والفتنة فإنكم أول الرعية نكث البيعة وشق عصا هذه الأمة.

ثم جلس للناس فبايعوه^(١).

وجاء عبد الله ابن عباس إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: إن لي إليك حاجة فقال عليه السلام: ما أعرفني بالحاجة التي جئت فيها تطلب الأمان لابن الحكم؟ قال: نعم أريد أن تؤمّنه قال: أمته^(٢).

وفي النهج: قالوا أخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع بالحسن والحسين إلى أمير المؤمنين فكلّماه فيه فخلّى سبيله فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام أولم يبايعني بعد قتل عثمان؟ لا حاجة لي في بيعته إنها كفت

(١) الإرشاد: ص ١٣٧.

(٢) الخرائج للراوندي: ص ٨٣.

يهودية لو بايعني بيده لغدر بسبته^(١) أما إن له إمرة كلعة الكلب أنفه^(٢) وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر^(٣).

وعن هاشم بن مساحق عن أبيه أنه شهد يوم الجمل وأن الناس لما انهزموا اجتمع هو ونفر من قریش فيهم مروان فقال بعضهم لبعض، والله لقد ظلمنا هذا الرجل ونكثنا بيعته على غير حدث كان منه ثم لقد ظهر علينا فما رأينا رجلاً قط كان أكرم سيرة ولا أحسن عفواً بعد رسول الله ﷺ منه فتعالوا فلندخل عليه ولنعتذر مما صنعنا قال: فدخل عليه فلما ذهب متكلمنا يتكلم قال: انصتوا أكفكم إنما أنا رجل منكم فإن قلت حقاً فصدقوني وإن قلت غير ذلك فردوه عليّ ثم قال:

أنشدكم بالله أتعلمون أن رسول الله ﷺ قبض وأنا أولى الناس برسول الله ﷺ وبالناس؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فبايعتم أبا بكر وعدلتم عني فبايعت أبا بكر كما بايعتموني وكرهت أن أشق عصا المسلمين وأن أفرق بين جماعتهم.

ثم إن أبا بكر جعلها لعمر من بعده وأنتم تعلمون أنني أولى الناس برسول الله ﷺ وبالناس من بعده فبايعت عمر كما بايعتموه فوفيت له ببيعته حتى لما قتل جعلني سادس ستة فدخلت فيما أدخلني وكرهت أن أفرق جماعة المسلمين وأشق عصاهم فبايعتم عثمان فبايعته ثم طعتم علي عثمان فقتلتموه وأنا جالس في بيتي ثم أتيتموني غير داع لكم ولا مستكره لأحد منكم فبايعتموني كما بايعتم أبا بكر وعمر وعثمان فما جعلكم أحق أن تفوا لأبي بكر وعمر وعثمان ببيعتهم منكم بيعتي؟

قالوا: يا أمير المؤمنين كن كما قال العبد الضالِح «لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين».

فقال ﷺ كذلك أقول: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين^(٤).

(١) السبة: بالفتح الإست.

(٢) يريد قصر مدة إمارته وكانت تسعة أشهر وقيل ستة أشهر وقيل أربعة أشهر وعشرة أيام.

(٣) نهج البلاغة: في المختار (٧١) والأكبش الأربعة بني عبد الملك: الوليد وسليمان ريزيد وهشام.

(٤) أمالي الطوسي: ص ٥١٨ ط بيروت نقلنا هذا الحديث على ما فيه من وقفات للتأمل حولبيعة علي ﷺ للخلفاء الذين سبقوه على ما فيها من مخالفة كثير من النصوص الصحيحة إلا أننا رأينا الاستفادة من عفوه وروحه الطيبة اتجاه أولئك الناكثين ولهذا نبهنا.

رسالته ﷺ إلى أهل الكوفة

بعد معركة الجمل

ورد كتاب أمير المؤمنين ﷺ مع ابن سلمة إلى أهل الكوفة فكبر الناس تكبيرة سمعها عامة الناس واجتمعوا لها في المسجد ونودي الصلاة جمعاً فلم يتخلف أحد وقرأ الكتاب فكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى قرظة بن كعب ومن قبله من المسلمين سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد فإنا لقينا القوم الناكثين لبيعتنا والمفارقين لجماعتنا الباغين علينا في أمتنا فحججناهم فحاكمناهم إلى الله فأدالنا عليهم فقتل طلحة والزبير وقد تقدمت إليهما بالمعذرة وأقبلت إليهما بالنصيحة واستشهدت عليهما صلحاء الأمة فما أطاعا المرشدين ولا أجابا الناصحين.

ولاذ أهل البغي بعائشة فقتل حولها من أهل البصرة عالم جسيم وضرب الله وجه بقيتهم فأدبروا كما كانت ناقة الحجر بأشأم عليهم منها على أهل ذلك المصر مع ما جاءت به من الحوب الكبير في معصيتها ربها ونبيها واغترارها في تفريق المسلمين وسفك دماء المؤمنين بلا بيّنة ولا معذرة ولا حجة ظاهرة.

فلما هزمهم الله أمرت أن لا يتبع مدبر ولا يجهز على جريح ولا يكشف عورة ولا يهتك ستر ولا يدخل دار إلا بإذن وآمنت الناس.

وقد استشهد منا رجال صالحون ضاعف الله حسناتهم ورفع درجاتهم وأثابهم ثواب الصادقين الصابرين.

وجزاكم الله من أهل مصر عن أهل بيت نبيكم أحسن جزاء العاملين بطاعته

والشاكرين لنعمته فقد سمعتم وأطيعتم وأجبتهم إذا دعيتم فنعم الإخوان والأعوان
على الحق أنتم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(١).

(١) بحار الأنوار: ١٩٨/٢٥٢/٣٢.

٢ - القاسطون

القاسطون في صفين:

هذه فصول المعركة الثانية بعد استخلاف علي عليه السلام والتي مثلت قوتين متصارعتين قوة الإسلام والدفاع عنه والتضحية دونه، واللا دينية المتلفة بالثوب الإسلامي المرقع.

في هذه المعركة التي تعتبر أقوى المعارك التي خاضها علي عليه السلام على التأويل تلوح أمامك أعلام للردة عن الإسلام، فمعاوية هو القائد لهذا الفوج المرتد القاسط، وابن النابغة المخطط لمسيرته الغاوية ورعاع الناس المغفلين شاكة في السلاح، والنسك الأغبياء قد أحاطوا بمنبر الشام المعلق عليه قميص عثمان المخضب بالدماء يذرفون دموع التماسيح عليه.

كما ترى في الطرف المقابل رايات رسول الله ﷺ يقودها الفهم والإدراك والوعي والبصيرة.

وقد استعرضت هذه الفصول بدون أن أجد حاجة إلى تحليلها فالحق واضح والباطل كذلك. وهدفني في عرضها بهذا الشكل والأسلوب لإيماني بالقراء الكرام أنهم قد تجاوزوا تلك المراحل ولم يبق علينا إلا أن نوfer لهم النصوص نقيّة الثوب واضحة المقاصد والله من وراء القصد.

والحمد لله رب العالمين

من البصرة إلى الكوفة

دخل أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة بعد رجوعه من البصرة ومعه أشراف من أهل البصرة وغيرهم فاستقبلهم أهل الكوفة فيهم قراؤهم وأشرافهم فدعوا له وقالوا: يا أمير المؤمنين أين تنزل أتزل القصر؟ قال: لا، ولكن أنزل الرحبة فنزلها وأقبل حتى دخل المسجد الأعظم فصلّى فيه ركعتين ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال:

أما بعد يا أهل الكوفة فإنّ لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدلوا أو تغيروا. دعوتكم إلى الحقّ فأجبتكم وبدأتكم بالمنكر فغيّرتكم ألا إنّ أفضلكم فيما بينكم وبين الله فأما في الأحكام والقسم فأنتم أسوة ممن أجابكم ودخل فيما دخلتم فيه.

ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ وأما طول الأمل فينسي الآخرة.

ألا إنّ الدنيا قد ترخلت مدبرة وإنّ الآخرة ترحلت مقبلة ولكلّ واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة!!! اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل.

الحمد لله الذي نصر وليه وخذل عدوه وأعزّ الصادق المحقّ وأذلّ الناكث المبطل عليكم بتقوى الله وطاعة من أطاع الله من أهل بيت نبيكم الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المنتحلين المدعين القالين لنا يتفضلون بفضلنا ويجاحدوننا أمرنا وينازعوننا حقنا ويباعدوننا عنه فقد ذاقوا وبال ما اجتروحوا فسوف يلقون غيًّا ألا إنّ الله قد قعد عن نصرتي منكم رجال وأنا عليهم عاتب زار فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يعبأوا^(١) ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة^(٢).

(١) الاعتبار: إعطاء العتبى وهي الرضا.

(٢) صفين لابن مزاحم: ص ٤ ط ٢ تحقيق عبد السلام هارون منشورات مكتبة المرعشي ١٤٠٤ هـ - ق.

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعي - وكان صاحب شرطته - فقال :

والله إني لأرى الهجر وإسماع المكروه لهم قليلاً - والله لئن أمرتنا لنقتلهم فقال عليّ عليه السلام : سبحان الله يا مالك جزت المدى وعدوت الحد وأغرقت في النزع فقال : يا أمير المؤمنين لبعض الغشم أبلغ في أمور تنوبك من مهادنة الأعادي فقال عليّ : ليس هكذا قضى الله يا مالك قتل النفس بالنفس فما بال الغشم . وقال : «ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً» والإسراف في القتل أن تقتل غير قاتلك فقد نهى الله عنه وذلك هو الغشم فقام إليه أبو بردة بن عوف الأزدي - وكان ممن تخلف عنه - فقال : يا أمير المؤمنين أرايت القتلى حول عائشة والزبير وطلحة بم قتلوا؟ قال : قتلوا شيعتي وعمالي وقتلوا أخا ربعة العبدى رحمة الله عليه في عصابة من المسلمين قالوا : لا ننكث كما نكثتم ولا نغدر كما غدرتم فوثبوا عليهم فقتلوهم فسألتهم أن يدفعوا إليّ قتلة إخواني أقتلهم بهم ثم كتاب الله حكم بيني وبينكم فأبوا عليّ فقاتلوني وفي أعناقهم بيعتي ودماء قريب من ألف رجل من شيعتي فقتلتهم بهم أفي شك أنت من ذلك؟ قال : قد كنت في شك فأما الآن فقد عرفت واستبان لي خطأ القوم وإنك المهدي المصيب ثم إن علياً عليه السلام تهباً لينزل وقام رجال ليتكلموا فلما رأوه نزل جلسوا وسكتوا ودخل سليمان بن صرد الخزاعي فعاتبه عليّ عليه السلام وعذله وقال له : «ارتبت وتربصت وراوغت وقد كنت من أوثق الناس في نفسي وأسرعهم - فيما أظن - إلى نصرتي فما قعد بك عن أهل بيت نبيك وما زهدك في نصرهم؟ فقال يا أمير المؤمنين لا تردن الأمور على أعقابها، ولا تؤنبنني بما مضى منها واستبق مودتي تخلص لك نصيحتي وقد بقيت أمور تعرف فيها وليك من عدوك فسكت عنه وجلس سليمان قليلاً ثم نهض فخرج إلى الحسن بن عليّ عليه السلام وهو قاعد في المسجد فقال : ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التبكيك والتوبيخ؟ فقال له الحسن إنما يُعاتب من ترجى مودته ونصيحته . فقال : إنه بقيت أمور سيستوسق^(١) فيها القنا وينتضى فيها السيوف ويحتاج فيها إلى أشباهي فلا تستغشوا^(٢) عتبي ولا تتهموا نصيحتي . فقال له الحسن عليه السلام : رحمك الله ما أنت عندنا بالظنين .

(١) الاستيساق : الاجتماع . والقنا : الرماح .

(٢) استغشه واغتشه : ظن به الغش .

وعن محمد بن مخنف قال: دخلت مع أبي علي عليه السلام حين قدم من البصرة وهو عام بلغت الحلم فإذا بين يديه رجال يؤت بهم ويقول لهم ما بطأ بكم عني وأنتم أشراف قومكم؟ والله لئن كان من ضعف النية وتقصير البصيرة إنكم لبور^(١) والله لئن كان من شك في فضلي ومظاهرة علي إنكم لعدو. قالوا: حاش لله يا أمير المؤمنين نحن سلمك وحرب عدوك ثم اعتذر القوم فمنهم من ذكر عذره ومنهم من اعتل بمرض ومنهم من ذكر غيبة فنظرت إليهم فإذا عبد الله بن المعتم العبسي، وإذا حنظلة بن الربيع التميمي - وكلاهما كانت له صحبة - وإذا أبو بردة بن عوف الأزدي وإذا غريب بن شرحبيل الهمداني.

ونظر علي إلى أبي فقال لكن مخنف بن سليم وقومه لم يتخلفوا ولم يكن مثلهم مثل القوم الذين قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيَبْطِئْنَ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَكُمْ شَهِيداً وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾^(٢).

(١) البور: الهالك.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٧٢ و٧٣ راجع صفين: ص ٤.

توزيع المسؤوليات والمهام الإدارية

بعث يزيد بن قيس الأرحبي على المدائن وجو خا كلها.
ومخنف بن سليم على إصفهان وهمدان.
وقرظة بن كعب على البهقباذات^(١).
وقدامة بن مظعون على كسكر.
وعدي بن الحارث على مدينة بهر سير وآستانها^(٢).
وأبا حسان البكري على آستان العالي^(٣).
وسعد بن مسعود الثقفي على آستان الزوابي^(٤).
وربعتي بن كاس على سجستان.

وخُليد إلى خراسان فسار خليد حتى إذا دنا من نيسابور بلغه أنّ أهل خراسان قد كفروا ونزعوا يدهم من الطاعة وقدم عليهم عمال كسرى من كابل فقاتل أهل نيسابور فهزمهم وحصر أهلها وبعث إلى عليّ عليه السلام بالفتح والسبي، ثمّ صمد لبنات كسرى فنزلن على أمان فبعث بهنّ إلى عليّ عليه السلام فلما قدمن عليه قال: أزوّجكنّ؟ قلن: لا إلا أن تزوّجنا ابنك فإنّا لا نرى لنا كفواً غيرهما فقال عليه السلام اذهبا حيث شئتما.

فقام نرسا فقال: مر لي بهنّ فإنّها منك كرامة وبيني وبينهنّ قرابة ففعل

(١) ثلاث كور ببغداد منسوبة إلى قباذ بن فيروز والد أنو شيروان.

(٢) بهر سير: من نواحي سواد بغداد.

(٣) الأستان العالي: كورة في غربي بغداد من السواد تشتمل على أربعة طاسيج: وهي الأنبار وبادرويا وقطربل ومسكن.

(٤) في العراق أربعة أنهر نهران فوق بغداد ونهران تحتها.

فأنزلهن نرسا معه وجعل يطعمهن ويسقيهن في الذهب والفضة ويكسوهن كسوة الملوك ويسط لهن الديباج.

وبعث الأشتر على الموصل ونصيبين ودارا وسنجار وهيت وعانات وما غلب عليه من تلك الأرضين من أرض الجزيرة.

وبعث معاوية بن أبي سفيان الضحّاك بن قيس على ما في سلطانه من أرض الجزيرة وكان في يديه حرّان والرّقة والرّها وقرقيسيا وكان من كان بالكوفة وبالبصرة من العثمانية قد هربوا فنزلوا الجزيرة في سلطان معاوية.

فخرج الأشتر وهو يريد الضحّاك بحرّان فلما بلغ ذلك الضحّاك بعث إلى أهل الرّقة فأمدّوه وكان جلّ أهلها عثمانيّة فجاءوا وعليهم سِمّاك بن مخزومة وأقبل الضحّاك يستقبل الأشتر فالتقى الضحّاك وسماك بمرج قربنا بين حرّان والرّقة فرحل الأشتر حتّى نزل عليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً حتّى كان عند المساء فرجع الضحّاك بمن معه فصار ليلته كلّها حتّى أصبح بحرّان فدخلها وأصبح الأشتر فرأى ما صنعوا فتبعهم حتّى نزل عليهم بحرّان فحصرهم وأتى الخبر معاوية فبعث إليهم عبد الرّحمان بن خالد في خيل يغيثهم.

فلما بلغ ذلك الأشتر كتّب كتابه وعبأ جنوده وخيله ثمّ ناداهم الأشتر: ألا إنّ الحّي عزيز ألا إنّ الدّمار منيع ألا تنزلون أيّها الثعالب الرّواغة؟ احتجرتم احتجار الضّباب فنادوا يا عباد الله أقيموا قليلاً علمتم والله أن قد أتيتم.

ثم مضى الأشتر حتّى مرّ على أهل الرّقة فتحرّزوا منه ثمّ مضى حتّى مرّ على أهل قرقيسيا فتحرّزوا منه وبلغ عبد الرّحمان بن خالد انصراف الأشتر فانصرف^(١).

وأمر عليه السلام نرسا على أهل السّواد برضا منهم وطلب فجلس نرسا عند أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا نرسا أخبرني عن ملوك فارس كم كانوا؟ قال: كانت سيرتهم ملوكهم في هذه المملكة الآخرة اثنين وثلاثين ملكاً قال: فكيف كانت سيرتهم!! قال: ما زالت سيرتهم في عظم أمرهم واحدة حتّى ملكنا كسرى بن هرمز فاستأثر بالمال والأعمال وخالف أولينا وأخرب الذي للناس وعمر الذي له واستخفّ بالناس وأوغر نفوس فارس حتّى ثاروا عليه فقتلوه فأرملت نساؤه ويتم أولاده.

(١) كتاب صفين: ص ١١.

فقال: يا نرسا إنّ الله عزّ وجلّ خلق الخلق بالحقّ ولا يرضى من أحد إلاّ بالحقّ وفي سلطان الله تذكرة ممّا حوّل الله وإنّها لا تقوم مملكة إلاّ بتدبير ولا يدّ من إمرة ولا يزال أمرنا متماسكاً ما لم يشتم آخروننا أولنا فإذا خالف آخروننا أولنا وأفسدوا هلكوا وأهلكوا^(١).

(١) كتاب صفين: ص ١٤.

مساجلات من أجل أخذ البيعة والولاء

كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البجلي - وكان عاملاً لعثمان على ثغر همدان - مع زحر بن قيس الجعفي :

أما بعد فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال .

وإني أخبرك عمن سرنا إليه من جموع طلحة والزبير عند نكثهم بيعتهم وما صنعوا بعاملي عثمان بن حنيف أتني هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار حتى إذا كنت بالعذيب بعثت إلى أهل الكوفة بالحسن بن عليّ وعبد الله بن العباس وعمّار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة فاستنفروهم فأجابوا فسرت بهم حتى نزلت بظهر البصرة فأعذرت في الدّعاء وأقلت العثرة وناشدتهم عقد بيعتهم فأبوا إلا قتالي فاستعنت بالله عليهم فقتل من قتل وولّوا مدبرين إلى مصرهم فسألوني ما كنت دعوتهم إليه قبل اللقاء فقبلت العافية ورفعت عنهم السيف واستعملت عليهم عبد الله بن عباس وسرت إلى الكوفة وقد بعثت إليكم زحر بن قيس فاسأل عما بدا لك .

فلما قرأ جرير الكتاب قام فقال : يا أيها الناس هذا كتاب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو المأمون على الدين والدنيا وقد كان من أمره وأمر عدوّه ما نحمد الله عليه وقد بايعه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقّهم بها .

إلا أن البقاء في الجماعة والفناء في الفرقة وعليّ حاملكم على الحق ما استعتمت فإن ملتم أقام ميلكم .

فقال الناس : سمعاً وطاعة رضيّا رضيّا فأجاب جرير وكتب جواب كتابه بالطّاعة . ثمّ قام زحر بن قيس خطيباً فكان ممّا حفظ من كلامه أن قال : الحمد لله

الذي اختار الحمد لنفسه وتولاه دون خلقه لا شريك له في الحمد ولا نظير له في المجد ولا إله إلا الله وحده لا شريك له القائم الدائم إله السماء والأرض وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق الواضح والكتاب الناطق داعياً إلى الخير وقائداً إلى الهدى ثم قال:

إن علياً كتب إليكم كتاباً لا يقال بعده إلا رجيع من القول ولكن لا بد من رد الكلام إن الناس بايعوا علياً بالمدينة من غير محابة له ببيعتهم لعلمه بكتاب الله وسنن الحق وإن طلحة والزبير نقضا بيعته علي غير حدث وألبا عليه الناس ثم لم يرضيا حتى نصبا له الحرب وأخرجوا أم المؤمنين فلقيهما فأعذر في الدعاء وأحسن في البقية وحمل الناس علي ما يعرفون هذا عيان ما غاب عنكم وإن سألتكم الزيادة فزدناكم ولا قوة إلا بالله^(١).

فأقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد علي علي^{عليه السلام} بالكوفة فبايعه ودخل فيما دخل فيه الناس من طاعة علي والزموم لأمره.

وكتب^{عليه السلام} إلى الأشعث بن قيس مع زياد بن مرحب الهمداني والأشعث علي أدريجان عامل لعثمان - وقد كان عمرو بن عثمان تزوج ابنة الأشعث بن قيس قبل ذلك - وكان ما يلي:

أما بعد فلولاً هنأت كنّ فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس ولعلّ أمرك يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله.

ثم إنه كان من بيعة الناس إتياني ما قد بلغك وكان طلحة والزبير ممن بايعاني ثم نقضا بيعتي علي غير حدث وأخرجوا أم المؤمنين وصارا إلى البصرة فسرت إليهما فالتقينا فدعوتهم إلى أن يرجعوا فيما خرجوا منه فأبوا فأبلغت في الدعاء وأحسن في البقية.

وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه أمانة وفي يديك مال من مال الله وأنت من خزائن الله عليه حتى تسلمه إلي ولعلي أن لا أكون شرّ ولاتك لك إن استقمت ولا قوة إلا بالله.

فلما قرأ الكتاب قام زياد بن مرحب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها

(١) كتاب صفين: ص ١٥.

الناس إنه من يكفه القليل لم يكفه الكثير إن أمر عثمان لا ينفع فيه العيان ولا يشفي منه الخبر غير أن من سمع به ليس كمن عاينه إن الناس بايعوا علياً راضين به وإن طلحة والزبير نقضا بيعته على غير حدث ثم آذنا بحرب فأخرجنا أم المؤمنين فصار إليهما فلم يقاتلهم وفي نفسه منهم حاجة فأورثه الله الأرض وجعل له عاقبة المؤمنين .

ثم قام الأشعث فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن أمير المؤمنين عثمان ولآني آذربيجان فهلك وهي في يدي وقد بايع الناس علياً وطاعتنا له كطاعة من كان قبله وقد كان من أمره وأمر طلحة والزبير ما قد بلغكم وعليّ المأمون على ما قد غاب عنا وعنكم من ذلك الأمر .

فلما أتى منزله دعا أصحابه وقال: إن كتاب عليّ قد أوحشني وهو آخذ بمال آذربيجان وأنا لاحق بمعاوية، فقال القوم: الموت خير لك من ذلك أتدع مصرعك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام؟

فاستحى الأشعث فصار حتى قدم على عليّ عليه السلام ^(١) .

وأمر عليه السلام الأحنف بن قيس أن يكتب إلى قومه - بني سعد - كتاباً يحثهم على الخروج والمسير إليه، وكتب معاوية بن صعصعة وهو ابن أخي الأشعث إليهم أبياتاً في ذلك فلما انتهى كتاب الأشعث وشعر معاوية إلى بني سعد ساروا بجماعتهم حتى نزلوا الكوفة فعزت بالكوفة وكثرت ثم قدمت عليهم ربيعة ^(٢) .

(١) كتاب صفين: ص ٢٠ .

(٢) كتاب صفين: ص ٢٧ .

رسول عليّ عليه السلام إلى معاوية

أراد عليّ عليه السلام أن يبعث رسولاً إلى معاوية فقال له جرير: ابعثني إليه فأدعوه عليّ أن يسلم لك هذا الأمر ويكون أميراً من أمراءك وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وجلهم قومي وأهل بلادي وقد رجوت أن لا يعصوني .

فقال له الأشر: لا تبعثه ودعه ولا تصدّقه فوالله إني لأظنّ هواء هواهم ونيتهم ففقال له عليّ عليه السلام: دعه حتّى ننظر ما يرجع به إلينا .

فبعثه عليّ عليه السلام وقال له حين أراد أن يبعثه: إنّ حولي من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الدين والرأي من قد رأيت وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله ﷺ فيك: «من خير ذي يمن»^(١) انت معاوية بكتابي فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه وأعلمه أنّي لا أرضى به أميراً وأنّ العامة لا ترضى به خليفة .

فانطلق جرير حتّى أتى الشام ونزل بمعاوية فدخل عليه فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

أما بعد يا معاوية فإنّه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصرين^(٢) وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل مصر وأهل العروض وعمان وأهل البحرين واليمامة فلم يبق إلاّ أهل هذه الحصون التي أنت فيها ولو سال عليها سيل من أوديته غرقها وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرّجل .

ودفع إليه كتاب عليّ عليه السلام وفيه:

بسم الله الرّحمن الرّحيم أما بعد فإنّ بيعتي لزمتك بالمدينة وأنت بالشام لأنّه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان عليّ ما بويعوا عليه فلم يكن للشاهد أن

(١) أي من خير اليمن .

(٢) الحرمان: مكّة والمدينة، والمصران: البصرة والكوفة .

يختار ولا للغايب أن يرذ وإتاما الشورى للمهاجرين والأنصار إذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً كان ذلك لله رضى فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيراً.

وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضاً بيعتي فكان نقضهما كردتهما فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون فادخل فيما دخل فيه المسلمون فإن أحب الأمور إلي فيك العافية إلا أن تتعرض للبلاء فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك.

وقد أكثر في قتلة عثمان فأدخل فيما دخل فيه الناس وحاكم القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله فأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن.

ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعرض فيهم الشورى.

وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايع ولا قوة إلا بالله.

فلما قرأ الكتاب قام جرير فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن أمر عثمان قد أعيا من شهبه فما ظنكم بمن غاب عنه وإن الناس بايعوا علياً غير واثق ولا مواتور وكان طلحة والزبير ممن بايعه ثم نكثا بيعته على غير حدث، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن ألا وإن العرب لا تحتمل السيف وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس وقد بايعت العامة علياً ولو ملكنا والله أمورنا لم نختر لها غيره ومن خالف هذا استعذب فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس.

فإن قلت: استعملني عثمان ثم لم يعزلني فإن هذا أمر لو جاز لم يقم لله دين وكان لكل امرئ ما في يده ولكن الله لم يجعل للآخر من الولاة حق الأول وجعل تلك أموراً موطأة وحقوقاً ينسخ بعضها بعضاً.

فقال معاوية: أنظر ونظر واستطلع رأي أهل الشام^(١).

(١) كتاب صفين لنصر بن مزاحم: ص ٢٧.

واستحثة جرير بالبيعة فقال: يا جرير إنها ليس بخلسة وإنه أمر له ما بعده
فأبلغني ربي حتى أنظر^(١).

(١) كتاب صفين: ص ٣٣.

تشااور ومطارحات نظر

ودعا معاوية ثقاته وشاورهم في الأمر فقال له عتبة بن أبي سفيان: استعن على هذا الأمر بعمر بن العاص وأئمن له بدينه فإنه من قد عرفت وقد اعتزل أمر عثمان في حياته وهو لأمرك أشد اعتزلاً إلا أن يروى فرصة.

فكتب معاوية إلى عمرو:

أما بعد فإنه قد كان من أمر عليّ وطلحة والزبير ما قد بلغك وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة عليّ وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني أقبل أذكرك أمراً.

فلما قرىء الكتاب على عمرو استشار ابنه عبد الله ومحمداً، فقال: ما

تريان؟

فقال عبد الله: أرى أن نبي الله قبض وهو عنك راض والخليفتان من بعده وقتل عثمان وأنت عنه غائب فقرّر في منزلك فليست مجعولاً خليفة ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنياً قليلة أوشك أن تهلك فتشقي فيها.

وقال محمد: أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها ولن يصوم هذا الأمر وأنت فيه خامل يتصاغر أمرك فالحق بجماعة أهل الشام فكن يداً من أيديها واطلب بدم عثمان فإنك قد استسلمت فيه إلى بني أمية.

فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي وأنا ناظر فيه.

فلما جنّ الليل رفع صوته ينشد أبياتاً في ذلك يردّها فقال عبد الله ترخل الشيخ. فدعى عمرو غلاماً له يقال له: وردان وكان داهياً مارداً فقال ارحل يا وردان ثم قال: حظ يا وردان، فقال له وردان: خلطت يا أبا عبد الله أما إنك إن

شئت أنبأتك بما في نفسك؟ قال: هات ويحك قال: أعتزكت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت: عليّ معه الآخرة في غير دنيا، وفي الآخرة عوض من الدنيا ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض من الآخرة فأنت واقف بينهما!

قال عمرو: فإنك والله ما أخطأت فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيم في بيتك فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك!! قال: الآن لما شهدت العرب مسيري إلى معاوية.

فارتحل وسار حتى قدم على معاوية وعرف ذلك معاوية فباعده وكايد كل واحد منهما صاحبه!!! فلما دخل عليه قال: أبا عبد الله طرقتنا في ليلتنا هذه ثلاثة أخبار ليس فيها ورد ولا صدر.

قال عمرو: وما ذاك؟ قال: ذاك إن محمد بن أبي حذيفة قد كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه وهو من آفات هذا الدين.

ومنها: إن قيصر زحف بجماعة الروم إليّ ليغلب على الشام.

ومنها: إن علياً نزل الكوفة متهيأً للمسير إلينا.

قال عمرو: ليس كل ما ذكرت عظيماً.

أما أمر ابن أبي حذيفة فما يعظمك من رجل خرج في أشباهه أن تخرج إليه الخيل حتى تقتله أو تأتيك به وإن فاتك لا يضرّك.

وأما قيصر فاهد له من وصفاء الروم ووصائفها^(١) وآنية الذهب والفضة وسله المودعة فإنه إليها سريع.

وأما عليّ فلا والله يا معاوية لا تسوّي العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء وأن له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من قريش وأنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه^(٢).

وبناءً على اقتراحات عمرو بعث معاوية مالك بن هبيرة في طلب ابن أبي حذيفة فأدركه فقتله وبعث إلى قيصر بالهدايا فوادعه.

(١) الوصفاء: جمع وصيف الغلام دون المراهق، والمؤنث وصيفة وجمعها وصائف.

(٢) كتاب صفين: ص ٣٣.

فبقي أمر عليّ عليه السلام فقال معاوية لعمره: ما ترى في عليّ؟ قال: أرى فيه خيراً أذاك في هذه البيعة خير أهل العراق ومن عند خير الناس في أنفس الناس ودعوتك أهل الشام في ردّ هذه البيعة خطر شديد ورأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي وهو عدوّ لجريّر فأرسل إليه ووطّئ له ثقاتك فليقتلوا في الناس أنّ عليّاً قتل عثمان وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل فإنّها كلمة جامعة لك أهل الشام عليّ ما تحبّ ومن تعلّق بقلبه شيء لم يخرج به شيء أبداً.

فدعا معاوية يزيد بن لبيد وبسر بن أرطاة وعمرو بن سفيان ومخارق بن الحرث الزبيدي وحمزة بن مالك وحابس بن سعيد الطائي ثمّ كتب إلى شرحبيل أنّ جرير بن عبد الله قدم علينا من قبل عليّ بأمر فظيع فأقدم.

فاستشار شرحبيل أهل اليمن من أهل حمص فاختلفوا عليه فقام إليه عبد الرحمن بن غنم وهو صاحب معاذ وختنه وكان أفقه أهل الشام فنهاء عن المسير إلى معاوية ووعظه ونهاء أيضاً عياض اليمانيّ وكان ناسكاً.

فأبى شرحبيل إلا أن يسير إلى معاوية.

فلما تقدّم عليه تلقاه الناس فأعظموه ودخل عليّ معاوية فقال له معاوية: يا شرحبيل إنّ جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة عليّ وعليّ خير الناس لولا أنّه قتل عثمان وحبست نفسي عليك وإنّما أنا رجل من أهل الشام أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا.

فقال شرحبيل: اخرج فانظر فخرج فلقى هؤلاء نفر الموطؤون له كلّهم يخبره بأنّ عليّاً قتل عثمان فرجع مغضباً إلى معاوية فقال: يا معاوية أباي الناس إلا أنّ عليّاً قتل عثمان والله لئن بايعت له فنخرجك من الشام أو لنقتلنك!

قال معاوية: ما كنت لأخالف عليكم ما أنا إلا رجل من أهل الشام.

وخرج شرحبيل فأتى حصين بن نمير فقال: ابعث إلى جرير فبعث إليه حصين أن زرنا فإنّ عندنا شرحبيل بن السمط فاجتمعا عنده.

فتكلّم شرحبيل فقال: يا جرير أتيتنا بأمر ملقّق لتلقينا في لهوات الأسد وأردت أن تخلط الشام بالعراق وأطريت عليّاً وهو قاتل عثمان والله سائلك عما قلت يوم القيامة.

فردّ عليه جرير وقال: يا شرحبيل أما قولك إنّني جئت بأمر ملقّق فكيف يكون

أمرأ ملفقاً وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار وقوتل على رده طلحة والزبير .

وأما قولك : إني ألقيتك في لهوات الأسد ففي لهواتها ألقيت نفسك .

وأما خلط العراق بالشام فخلطها على حق خير من فرقتها على باطل .

وأما قولك إن علياً قتل عثمان فوالله ما في يديك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد ولكنك ملت إلى الدنيا وشيء كان في نفسك عليّ زمن سعد بن أبي وقاص^(١) فبعث معاوية شرحبيل إلى مدائن الشام يدعوهم إلى الطلب بدم عثمان فبدأ بأهل حمص فأجابه إلاً نساك من أهل حمص فإنهم قاموا إليه فقالوا: بيوتنا قبورنا ومساجدنا وأنت أعلم بما ترى، حتى استفرغ مدائن الشام كلها وقبلوا ما أتاها به^(٢) .

وكان معاوية قد أتى جريراً قبل ذلك في منزله فقال : يا جرير أني رأيت رأياً قال : هاته ، قال : اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي وأسلم له هذا الأمر واكتب إليه بالخلافة!!! فقال جرير : اكتب بما أردت واكتب معك فكتب معاوية بذلك إلى علي .

فكتب علي إلى جرير :

أما بعد فإنما أراد معاوية أن لا يكون لي في عنقه بيعة وأن يختار من أمره ما أحب وأراد أن يرثك حتى يذوق أهل الشام وإن المغيرة بن شعبه قد كان أشار علي أن أستعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة فأبيت ذلك عليه^(٣) .

ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلّين عضداً فإن بايعك الرجل وإلا فأقبل^(٤) .

(١) كتاب صفين : ص ٤٤ بتصرف .

(٢) كتاب صفين : ص ٥٠ بتصرف .

(٣) جاء المغيرة إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له يا أمير المؤمنين إن معاوية من قد عرفت وقد ولاء الشام من كان قبلك فوله أنت كيما تتشق عرى الأمور ثم أعزله إن بدا لك . فقال له أمير المؤمنين عليه السلام أنضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته إلى خلعها؟ قال : لا قال : لا يسألني الله عز وجل عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء أبداً وما كنت متخذ المضلّين عضداً لكن ابعت إليه وادعوه إلى ما في يدي من الحق فإن أجاب فرجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم وإن أبى حاكمته إلى الله راجع أمالي الطوسي : ٨٥ / ١ فيه ثمة .

(٤) راجع كتاب صفين : ص ٥٢ .

وكتب إليه ثانية :

فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل ثم خيره وخذه بالجواب بين
حرب مخزية أو سلم مخطية فإن اختار الحرب فانبذ له وإن اختار السلم فخذه
بييعته^(١).

فلما بايع معاوية أهل الشام قال لجرير الحق بصاحبك وكتب إليه
بالحرب^(٢).

(١) كتاب صفين : ص ٥٥.

(٢) كتاب صفين : ص ٥٦ بتصرف.

خيار الحرب

من كلام له ﷺ وقد أشار إليه أصحابه بالاستعداد للحرب بعد إرساله جرير إلى معاوية: إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام وصرف لأهله عن خير إن أرادوه ولكن قد وقت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً والرأي عندي مع الأناة فأرودوا ولا أكره لكم الاستعداد لحرب أهل الشام.

ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه وقلبت ظهره وبطنه فلم أر لي إلا القتال أو الكفر بما أنزل على محمد ﷺ.

إنه قد كان على الأمة وإل أحدث أحداثاً وأوجد الناس مقالاً فقالوا ثمّ نعموا فغيروا^(١).

وتكلم معه ﷺ ناس أن يستأني بالأمر ولا يعجل القتال فقال:

أما بعد فإن الله وارث العباد والبلاد ورب السموات السبع والأرضين السبع وإليه ترجعون يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء أما الدبرة^(٢) فإنها على الضالين العاصين ظفروا أو ظفر بهم^(٣).

وإليك نماذجاً من كلامه ﷺ وهو يستنفر الناس ويبين لهم مبررات حربه مع القاسطين فيما تقرأه في الصفحات التالية.

(١) نهج البلاغة: ٤٣ من المختار من كلامه ﷺ.

(٢) الدبرة: الخسارة.

(٣) راجع شرح نهج البلاغة: ١٧١/٣.

عليّ عليه السلام يتحرك لقتال القاسطين

لَمَّا عَزَمَ أمير المؤمنين عليه السلام على المسير إلى الشام قال:
اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ^(١) السفر وَكَآبَةِ المنقلب^(٢) وَسُوءِ المنظر^(٣) فِي
النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ .
اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ
لَأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَصْحَبًا وَالْمُسْتَصْحَبَ لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفًا^(٤) .
ثُمَّ قَالَ :

اتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا إِمَامَكُمْ فَإِنَّ الرِّعْيَةَ الصَّالِحَةَ تَنْجُو بِالْإِمَامِ الْعَادِلِ أَلَا
وَإِنَّ الرِّعْيَةَ الْفَاجِرَةَ تَهْلِكُ بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ وَقَدْ أَصْبَحَ مُعَاوِيَةُ غَاصِبًا لِمَا فِي يَدَيْهِ مِنْ
حَقِّي نَاكِثًا لِيُعْتِي طَاعِنًا فِي دِينِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ .
فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَنَالَكُمْ سَخَطُهُ بِعَصْيَانِكُمْ لَهُ^(٥) .
وَقَالَ عليه السلام لِمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكُمْ مِيَامِينَ
الرَّأْيِ مُرَاجِحِ الْحَلَمِ ، مُقَاوِيلِ الْحَقِّ ، مُبَارِكُو الْفِعْلِ وَالْأَمْرِ ، وَقَدْ أَرَدْنَا الْمَسِيرَ إِلَى
عَدُونَا وَعَدُوِّكُمْ فَأَشِيرُوا عَلَيْنَا بِرَأْيِكُمْ^(٦) .

(١) الوَعْثَاءُ : المشقة .

(٢) الْكَآبَةُ : الحزن والمنقلب : المصير .

(٣) هُوَ أَنْ يَرَى فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ مَا يَكْرَهُ .

(٤) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ : ٤٦ مِنْ الْمَخْتَارِ مِنْ كَلَامِهِ عليه السلام .

(٥) رَاجِعِ الْإِرْشَادَ : ١٣٩ ط النجف الخطبة طويلة أخذنا منها هذه الأسطر مخافة التطويل .

(٦) كِتَابُ صَفِين : ص ٩٢ .

رأي المهاجرين والأنصار

مدرسة علي عليه السلام هي التي تتحدث عن الإسلام الذي أراده الله تعالى وهي ترجمان حركة النبي الأعظم ﷺ وحركة النبوات التي قبله وقد أراد الله تعالى لأناس نور الله قلوبهم بالإيمان أن ينتمو إلى هذه المدرسة العظيمة وينهلوا من مناهلها العذبة ويأخذوا دروساً في الجهاد والصبر ومعرفة الحياة وتطويع الدنيا لرسالة الله تعالى بروح صادقة وإقبال رائد.

ولعلنا ونحن أخذنا علي عاتقنا أن لا نطيل في القول ولا نسهب حيث منهجة الكتاب لا تسمح بذلك إلا أن التأثر النفسي والتعلق الروحي الذي تشده كلمات هؤلاء الرواد الأحرار في مدرسة علي عليه السلام يجعلان المسلم يطوف معهم ويفهم أن التاريخ لا يصنعه إلا أمثال هؤلاء وأن المواقف لا يشبتها في حركة الحياة إلا المجاهدون والصّابرون والعارفون وهم أولئك الذين لازموا علياً في حركته في سلمه وحربه في كل شأن من شؤون حياته فأرخصوا النفوس وطلقوا الدنيا من أجله، وما بلغه هؤلاء من التفقه في الدين ووعيهم في مسيرة الحياة ظلّ علماً للهداية ونبراساً تهتدي به الأجيال.

فها هو عمرو بن الحمق يتحدث إلى علي عليه السلام وهو يومئذ عازم على المسير لحرب معاوية فيقول له:

والله يا أمير المؤمنين إنّي ما أجبّتك ولا بايعتك علي قرابة بيني وبينك ولا إرادة مال تؤتيني ولا إرادة سلطان ترفع به ذكري ولكنتي أجبّتك بخصال خمس: أنك ابن عم رسول الله ﷺ، وأول من آمن به، وزوج سيد نساء الأمة فاطمة بنت محمّد ووصيه وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله ﷺ وأسبق الناس إلى الإسلام وأعظم المهاجرين سهماً في الجهاد فلو أنّي كلّفت نقل الجبال الرواسي ونزح البحور الطوامي حتّى يأتي عليّ يومي في أمر أقوى به وليك وأهين به عدوك

ما رأيت أتي قد أذيت فيه كل الذي يحق علي من حقك .

فقال **عليه السلام** : اللهم نرّ قلبه بالتقى واهده إلى صراطك المستقيم ليت أن في جندي مائة مثلك!! فقال : حجر : إذا والله يا أمير المؤمنين صخ جندك وقلّ فيهم من يغشك^(١) .

وقام عمار بن ياسر فذكر الله بما هو أهله وحمده وقال :

يا أمير المؤمنين ، إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل أشخص بنا قبل استعمار نار الفجرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة وادعهم إلى رشدهم وحضهم فإن قبلوا سعدوا وإن أبوا إلا حربنا فوالله إن سفك دمائهم والجذ في جهادهم لقربة عند الله وهو كرامة منه^(٢) .

وقام قيس بن عباد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أمير المؤمنين انكمش بنا إلى عدونا ولا تعزّد^(٣) فوالله لجهادهم أحب إلي من جهاد الترك والروم لإدهانهم^(٤) في دين الله ، واستذلّهم أولياء الله من أصحاب محمد **ﷺ** من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان إن غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سبّوه وفيئنا لهم في أنفسهم حلال ونحن لهم فيما يزعمون قطين^(٥) .

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خزيمة بن ثابت ، وأبو أيوب الأنصاري وغيرهما لم تقدّمت أشياخ قومك وبدأتهم يا قيس بالكلام؟ فقال : أما إني عارف بفضلكم معظم لشأنكم ولكنتي وجدت في نفسي الضغن الذي جاش في صدوركم حين ذكرت الأحزاب فقال بعضهم لبعض ليقم رجل منكم فليجب أمير المؤمنين عن جماعتكم فقالوا : قم يا سهل بن حنيف فقام سهل فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أمير المؤمنين نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت ورأينا رأيك

(١) انظر كتاب صفين : ص ٩٢ .

(٢) جذلة : فرجة .

(٣) كتاب صفين : ص ٩٢ .

(٤) الانكماش : الإسراع . والتعريد : الأحجام .

(٥) الإدهان : الغش والمصانعة .

(٦) القطين : الخدم والأتباع والرقين .

ونحن كف يمينك وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة فتأمرهم بالشخص وتخيرهم بما صنع الله لهم في ذلك من الفضل فإنهم هم أهل البلد وهم الناس فإن استقاموا لك استقام الذي تريد وتطلب وأما نحن فليس عليك منا خلاف متى دعوتنا أجبتك ومتى أمرتنا أطعناك .

فعندها قال علي عليه السلام سيروا إلى أعداء الله سيروا إلى أعداء السنن والقرآن سيروا إلى بقية الأحزاب قتلة المهاجرين والأنصار .

فقام رجل من بني فزارة يقال له أربد فقال : أتريد أن تسيروا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم كلاهما الله إذا لا تفعل ذلك فقام الأشتر فقال من لهذا أيها الناس ؟ وهرب الفزاري واشتد الناس أثره فلحق بمكان من السوق تباع فيه البراذين فوطئوه بأرجلهم وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قتل فأتى علي عليه السلام فقيل يا أمير المؤمنين قتل الرجل قال : ومن قتله ؟

قالوا : قتله همدان وفيهم شوبة من الناس فقال : قتيل عمية لا يدري من قتله ديته من بيت مال المسلمين .

وقام الأشتر فحمد الله وأثنى عليه فقال : يا أمير المؤمنين لا يهدنك ما رأيت ولا يؤيسنك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن جميع من ترى من الناس شيعتك وليسوا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ولا يحبون بقاء بعدك فإن شئت فسر بنا إلى عدوك والله ما ينجو من الموت من خافه ولا يعطى البقاء من أحبه وما يعيش بالآمال إلا شقي وإنا لعلى بينة من ربنا إن نفساً لن تموت حتى يأتي أجلها فكيف لا نقاتل قوماً كما وصف أمير المؤمنين وقد وثب عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس فأسخطوا الله وأظلمت بأعمالهم الأرض وباعوا خلاقهم^(١) بعرض من الدنيا يسير .

فقال علي عليه السلام : الطريق مشترك والناس في الحق سواء ومن اجتهد رأيه في نصيحة العامة فله ما نوى وقد قضى ما عليه^(٢) .

ودخل عبد الله بن المغنم العبسي ، وحنظلة بن الربيع التميمي في رجال كثير

(١) الخلاق : الحفظ والنصيب من الخير .

(٢) كتاب صفين : ص ٩٢ .

من غطفان وبني تميم على أمير المؤمنين، فقال له التميمي: «يا أمير المؤمنين إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منا ورأينا لك رأياً فلا تردّه علينا فإننا نظرنا لك ولمن معك أقم وكاتب هذا الرجل ولا تعجل إلى قتال أهل الشام فإنني والله ما أدري ولا تدري لمن تكون إذا التقيتم الغلبة وعلى من تكون الدّبرة.

وقام ابن المعتّم فتكلّم وتكلّم القوم الذين دخلوا معهما بمثل ما تكلّم به فحمد عليّ الله وأثنى عليه وقال:

أما بعد فإنّ الله وارث العباد والبلاذ وربّ السموات السبع والأرضين السبع وإليه ترجعون يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممّن يشاء، ويعزّز من يشاء ويذلّ من يشاء أما الدّبرة فإنّها على الضّالّين العاصين ظفروا أو ظفر بهم وأيم الله إنّي لأسمع كلام قوم ما أراهم يريدون أن يعرفوا معروفاً ولا ينكروا منكراً».

فقام إليه معقل بن قيس اليربوعي ثمّ الرّياحي فقال:

يا أمير المؤمنين إنّ هؤلاء والله ما أتوك بنصح ولا دخلوا عليك إلا بغشّ فاحذرهم فإنّهم أدنى العدو.

فقال له مالك بن حبيب: يا أمير المؤمنين، إنّه بلغني أنّ حنظلة هذا يكاتب معاوية فادفعه إلينا نحبسه حتّى تنقضي غزاتك ثمّ تنصرف.

وقام إلى عليّ عليه السلام عيّاش بن ربيعة وقائد بن بكير العبسيان، فقالا: يا أمير المؤمنين، إنّ صاحبنا عبد الله بن المعتّم قد بلغنا أنّه يكاتب معاوية فاحبسه أو أمكنا منه نحبه حتّى تنقضي غزاتك وتنصرف فأخذا يقولان هذا جزاء من نظر لكم وأشار عليكم بالرأي فيما بينكم وبين عدوّكم فقال لهما عليّ: «الله بيني وبينكم وإليه أكلكم وبه أستظهر عليكم اذهبوا حيث شئتم».

ثمّ بعث عليّ عليه السلام إلى حنظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب - وهو من الصحابة - فقال: يا حنظلة أعلني أم لي؟ قال: لا عليك ولا لك. قال: فما تريد؟ قال: أشخص إلى الرّها^(١). فإنّه فرج من الفروج أصمد له حتّى ينقضي هذا الأمر^(٢).

(١) الرّها: بضم أوله والمد والقصر: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام.

(٢) راجع كتاب صفين: ص ٩٢.

ثُمَّ قام عدي بن حاتم الطائي بين يدي عليّ عليه السلام فحمد الله بما هو أهله وأثنى عليه ثُمَّ قال: يا أمير المؤمنين ما قلت إلا بعلم ولا دعوت إلا إلى حق ولا أمرت إلا برشد فإن رأيت أن تستأني هؤلاء القوم وتستديهم حتى تأتيهم كتبك ويقدم عليهم رسلك فعلت فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا والعافية أوسع لنا ولهم وإن يتمادوا في الشقاق ولا ينزعوا عن الغي فسر إليهم وقد قدّمنا إليهم العذر ودعوناهم إلى ما في أيدينا من الحق فوالله لهنّ من الله أبعد وعلى الله أهون من قوم قاتلناهم بناحية البصرة أمس لما أجهد لهم الحق فتركوه براكاء^(١) القتال حتى بلغنا منهم ما نحبّ وبلغ الله منهم رضاه فيما يرى.

فقام زيد بن حصين الطائي - وكان من أصحاب البرانس^(٢) المجتهدين - فقال: الحمد لله حتى يرضى ولا إله إلا الله ربنا ومحمد رسول الله نبينا أما بعد فوالله لئن كنّا في شكّ من قتال من خالفنا لا يصلح لنا النية في قتالهم حتى نستديمهم ونستأنهم ما الأعمال إلا في تباب ولا السعي إلا في ضلال والله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ إنا والله ما ارتبنا طرفه عين فيمن يبتغون دمه فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم القليل في الإسلام حظهم أعوان الظلمة ومسددي أساس الجور والعدوان ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ولا التابعين بإحسان.

ودخل يزيد بن قيس الأرحبيّ على عليّ عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين نحن على جهاز وعدة وأكثر الناس أهل قوة ومن ليس بمضعف وليس به علة فمر مناديك فليناد بالناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة فإنّ أخا الحرب ليس بالسؤوم ولا النؤوم ولا من إذا أمكنه الفرص أجّلها واستشار فيها ولا من يؤخر الحرب في اليوم إلى غد وبعد غد.

فقال زياد بن النضر: لقد نصح لك يا أمير المؤمنين يزيد بن قيس، وقال ما يعرف فتوكل على الله وثق به وأشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معاناً فإن يرد الله بهم خيراً لا يدعوك رغبة عنك إلى من ليس مثلك في السابقة مع النبي ﷺ والقدم في الإسلام والقراية من محمد ﷺ وإلا يُنبوا ويقبلوا ويأبوا إلا حربنا نجد حربهم علينا هيّنا ورجونا أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم بالأمس.

(١) البراءة: بضم الراء وفتحها الابتراك في الحرب وهو أن يجتر القوم على أركبهم والمناوذة: مفاعلة من النوخ وهو البروك.

(٢) البرانس: بالضم قلنسوة طويلة أوكل ثوب رأسه منه.

ثم قام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقال: يا أمير المؤمنين إن القوم لو كانوا الله يريدون أو الله يعملون ما خالفونا ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من الأسوة وحباً للأثرة وضناً بسلطانهم وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم وعلى إحن في أنفسهم وعداوة يجدونها في صدورهم لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة قتلت فيها آباءهم وإخوانهم^(١).

(١) كتاب صفين: ص ٩٨.

الحسان عليه السلام يستنفران الناس

خطب الإمام الحسن المجتبي عليه أفضل الصلاة والسلام في أهل الكوفة يحرضهم على جهاد عدو الله معاوية والذين معه فقال:

الحمد لله لا إله غيره وحده لا شريك له، ثم إن مما عظم الله عليكم من حقه وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره ولا يؤذى شكره ولا يبلغه قول ولا صفة ونحن إنما غضبنا الله ولكم فإنه من علينا بما هو أهله أن نشكر فيه آلاءه وبلاءه ونعماءه قول يصعد إلى الله فيه الرضا وتنتشر فيه عارفة الصدق يصدق الله فيه قولنا ونستوجب فيه المزيد من ربنا قولاً يزيد ولا يبيد فإنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم واستحكمت عقدتهم.

فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده فإنه قد صغر ولا تخاذلوا فإن الخذلان يقطع نياط القلوب وإن الإقدام على الأستة نجدة وعصمة لأنه لم يمتنع قوم قط إلا دفع الله عنهم العلة وكفاهم جوائح الذلة وهداهم إلى معالم الملة.

ثم أشد:

والصلح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

ثم قام الحسين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وقال:

يا أهل الكوفة أنتم الأحبة الكرماء والشعار دون الدثار فجدوا في إحياء ما دثر بينكم وتسهيل ما توغر عليكم.

ألا إن الحرب شرها ذريع وطعمها فظيع وهي جرع مستحساة فمن أخذ لها أهبتها واستعد لها عدتها ولم يألم كلومها عند حولها فذاك صاحبها ومن عاجلها

قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها فتراك ممتن لا ينفع قومه وأن يهلك نفسه
نسأل الله ببقوته أن يدعمكم بإلفته^(١)، ثم نزل.

(١) راجع شرح نهج البلاغة: ١/٦٢٨.

موقف أهل البصرة

كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى واليه في البصرة عبد الله بن عباس وهو:
أما بعد فاشخص إليّ بمن قبلك من المسلمين والمؤمنين وذكرهم بلائي
عندهم وعفوي عنهم واستبقائي لهم ورغبهم في الجهاد وأعلمهم الذي لهم في
ذلك من الفضل والسلام. فلما وصل كتابه عليه السلام إلى ابن عباس قام في الناس
فقرأ عليهم الكتاب وحمد الله وأثنى عليه وقال:

يا أيها الناس استعدّوا للشخص إلى إمامكم وانفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا
بأموالكم وأنفسكم فإنكم تقاتلون المحلّين القاسطين الذين لا يقرأون القرآن ولا
يعرفون حكم الكتاب ولا يدينون دين الحقّ مع أمير المؤمنين وابن عمّ رسول الله ﷺ
الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والضادع بالحقّ والقيّم بالهدى والحاكم بحكم
الكتاب الذي لا يرتشي في الحكم ولا يدهن الفجار ولا تأخذه في الله لومة لائم.

فقام إليه الأحنف بن قيس فقال: نعم والله لنجيبتك ولنخرجنّ معك على العسر
واليسر والرضا والكره نحسب في ذلك الخير ونأمل به من الله العظيم من الأجر.
وقام إليه خالد بن المعمر السدوسي فقال: سمعنا وأطعنا فمتى استنفرتنا نفرنا
ومتى دعوتنا أجبتنا.

وقام إليه عمرو بن مرحوم العبدي فقال: وفقّ الله أمير المؤمنين وجمع له أمر
المسلمين ولعن المحلّين القاسطين الذين لا يقرؤون القرآن نحن والله عليهم حنقون
ولهم في الله مفارقون فمتى أردتنا صحبك خيلنا ورجلنا إنشاء الله.

فأجاب الناس إلى المسير ونشطوا وخفّوا واستعمل ابن عباس على البصرة أبا
الأسود الدؤلي وخرج حتّى قدم على عليّ عليه السلام بالنجيلة^(١).

(١) كتاب صفين: ص ١٠٠.

عليّ عليه السلام يرسل الدفعة الأولى من المحاربين

قبل أن يذهب أمير المؤمنين إلى النخيلة دعا زياد بن النضر وشريح بن هانئ وكانا على مذبح والأشعرين - قال: يا زياد اتق الله في كل مُفسى ومُضبح وخف على نفسك الدنيا الغرور ولا تأمنها على حال من البلاء واعلم أنك إن لم تزع نفسك عن كثير ممّا يُحبّ مخافة مكروهة سمت بك الأهواء إلى كثير من الضر فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغي والظلم والعدوان فإنّي قد وليتكم هذا الجند فلا تستطيعون عليهم وإنّ خيركم عند الله أتقاكم وتعلم من عالمهم وعلم جاهلهم واحلم عن سفيهم فإنك إنّما تدرك الخير بالحلم وكف الأذى والجهل.

فقال زياد: أوصيت يا أمير المؤمنين حافظاً لوصيتك مؤدّباً بأدبك يرى الرشد في نفاذ أمرك والعني في تضييع عهدك.

فأمرهما أن يأخذا في طريق واحد ولا يختلفا وبعثهما في اثني عشر ألفاً على مقدّمته شريح بن هانئ على طائفة من الجند، وزياد على جماعة فأخذ شريح يعتزل بمن معه من أصحابه على حدة ولا يقرب زياد بن النضر فكتب زياد إلى عليّ عليه السلام مع غلام له أو مولى يقال له شوذب:

لعبد الله عليّ أمير المؤمنين من زياد بن النضر، سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أمّا بعد فإنك وليتني أمر الناس وإنّ شريحاً لا يرى لي عليه طاعة ولا حقاً وذلك من فعله لي استخفاف بأمرك وترك لعهدك والسلام.

وكتب شريح بن هانئ:

سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أمّا بعد فإنّ زياد بن النضر حين أشركته في أمرك وولّيته جنداً من جنودك تنكّر واستكبر ومال به العجب والخيلاء والزهو إلى ما لا يرضاه الربّ تبارك وتعالى من القول والفصل فإن رأى أمير المؤمنين أن يعزله عنا ويبعث مكانه من يحبّ فليفعل فإنّا له كارهون والسلام.

فكتب إليهما عليّ عليه السلام :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى زياد بن النضر وشريح بن هانيء سلام عليكمما فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني قد وليت مقدمتي زياد بن النضر وأمرته عليها وشريح علي طائفة منها أمير فإن أنتما جمعكما بأس فزياد بن النضر على الناس وإن افرقتما فكل واحد منكما أمير الطائفة التي وليناه أمرها واعلما أن مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع ومن نفص الشعاب والشجر والخمر^(١) في كل جانب كي لا يغتركما عدو أو يكون لكما كمين ولا تسيرن الكتائب والقبائل من لدن الصباح إلى المساء إلا علي تعبئة فإن دهمكم داهم أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدمتم في التعبئة وإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قُبل الأشراف^(٢) أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار كي ما يكون ذلك لكم رداءً وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال وبأعالي الأشراف ومناكب الهضاب^(٣) يرون لكم لئلا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن وإياكم والتفرق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً وإذا غشيكم ليل فنزلتم فحفوا عسكركم بالرماح والأترسة ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم وما أقمتكم فكذلك فافعلوا كي لا تصاب لكم غفلة ولا تلغى منكم غرة فما قوم حفوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون واحرسا عسكركما بأنفسكما وإياكما أن تذوقا نوماً حتى تصبحا إلا غراراً أو مضمضة^(٤) ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا إلى عدوكما، وليكن عندي كل يوم خبركما ورسول من قبلكما فإني ولا شيء إلا ما شاء الله حثيث السير في آثاركما. عليكمما في حربكما بالتؤدة وإياكم والعجلة إلا أن تمكنكم فرصة بعد الإعذار والحجة وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكمما إلا أن تبدأ أو يأتيكما أمري إن شاء الله - والسلام^(٥).

(١) النفيضة: الجماعة يبعثون في الأرض متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف، والشعاب: جمع شعبة وهو ما انشعب من التلعة والوادي أي عدل عنه وأخذ في طريق غير طريقه. والخمر بالتحريك: ما وارك من الشجر والجبال ونحوها.

(٢) الأشراف: الأماكن العالية.

(٣) المنكب من الأرض: الموضع المرتفع.

(٤) لما جعل للنوم ذوقاً أمرهم أن لا ينالوا منه إلا بالستهم ولا يسيغره فشبهه بالمضمضة بالماء وإلقائه من الفم من غير ابتلاع.

(٥) كتاب صفين: ص ١٢١.

وهكذا فقد أبتلي عليّ عليه السلام من أول يوم باختلاف في صفّه وعدم اتفاق ذلك أنّ النعرات القبلية قد حكمت على كثير من عقول الناس ولم ينفك منها إلا القليل الذين هدى الله ونحن إذ لا نشكك في نواياهم وفي إخلاصهم لأمير المؤمنين عليه السلام كذلك لا نغفل ما حدث من تضييع الفرصة في اتحاد الكلمة وتذويب الذات من أجل الهدف الكبير الذي ناشدهم به عليّ في كتبه ورسائله وخطبه، وكأنّه عليه السلام في وادٍ وهم في وادٍ آخر ولا حول له ولا قوّة في عملية تغيير الأُمّة التي اجتمعت كلمتها على الغباء في الموقف.

(١) كتاب صفين: ص ١١١.

(٢) غمص الناس: أي احتقرهم ولم يرهّم شيئاً وسفه الحقّ أي جهله أو عدّه سفهاً.

عليّ عليه السلام في النخيلة

كان عليّ عليه السلام قد كتب كتاباً إلى عمرو بن العاص وفيه :

أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها وصاحبها مقهور فيها لم يصب منها شيئاً قط إلا فتحت له حرصاً وأدخلت عليه مؤنة تزيد رغبة فيها ولن يستغني صاحبها بما نال عما لم يبلغه ومن وراء ذلك فراق ما جمع والسعيد من وعظ بغيره فلا تحبط أجرك أبا عبد الله ولا تجارين معاوية في باطله فإن معاوية غمص الناس وسفه الحق .

فجاءه جواب عمرو بن العاص وهو في النخيلة .

من عمرو بن العاص إلى عليّ بن أبي طالب أما بعد فإن الذي فيه صلاحنا وألفة ذات بيننا أن تنيب إلى الحق وأن تجيب إلى ما تدعون إليه من شوري فصبر الرجل منا نفسه على الحق وعذره الناس بالمحاجة والسلام^(١) .

وروي عن ابن نباتة قال : قال عليّ عليه السلام ما يقول الناس في هذا القبر بالنخيلة ؟ - وبالنخيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله - فقال الحسن بن عليّ عليه السلام يقولون هذا قبر هود لما عصاه قومه جاء فمات ها هنا ، فقال : كذبوا لأننا أعلم به منهم هذا قبر يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بكر يعقوب .

ثم قال : أها هنا أحد من مهرة ؟ فأتني بشيخ فقال أين منزلك ؟ قال : على شاطئ البحر ، قال : أين أنت من الجبل الأحمر ؟ قال : أنا قريب منه .

قال : فما يقول قومك فيه ؟ قال : يقولون : إن فيه قبر ساحر ، قال : كذبوا ذلك قبر هود النبي ﷺ وهذا قبر يهودا بن يعقوب بكره .

(١) كتاب صفين : ص ١١١ .

وحين علم معاوية نزول علي عليه السلام النخيلة ألبس منبر دمشق قميص عثمان مختضباً بالدم وحول المنبر سبعون ألف شيخ يبكون حوله فخطبهم وحثهم على القتال فأعطوه الطاعة وانقادوا له وجمع إليه أطرافه واستعد للقاء علي عليه السلام^(١).

وفي النخيلة حيث تجمعت العساكر على أهبة الاستعداد لحرب معاوية ويغطي سماءهم الأهازيج والأراجيز والهمم تراقص كالعرائس وعلي عليه السلام يطوف على مقاتليه مشجعاً ومرشداً يتابع الأفواه فيسجل التصريحات التي تنبئ عن قوة حيناً وعن ضعف أخرى أو عن عدم دراية ثالثة. قال زياد بن النضر الحارثي لعبد الله بن بديل بن ورقاء: إن يومنا ويومهم ليوم عصيب، ما يصبر عليه إلا كل مشيع القلب صادق النية رابط الجأش وأيم الله ما أظن ذلك اليوم يُبقي منا ومنهم إلا الرذال. قال عبد الله بن بديل: والله أظن ذلك. فقال علي عليه السلام: ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركم، لا تظهروه ولا يسمعه منكم سامع إن الله كتب القتل على قوم والموت على آخرين وكل آتية منيته كما كتب الله له فطوبى للمجاهدين في سبيل الله والمقتولين في طاعته.

فلما سمع هاشم بن عتبة مقاتلهم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وعملوا في عباد الله بغير رضا الله فأحلوا حرامه وحرموا حلاله واستولاهم الشيطان ووعدهم الأباطيل ومناههم الأمانى حتى أزاغهم عن الهوى وقصد بهم قصد الردى وحبب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها كرهبتنا في الآخرة إنجاز موعود ربنا وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله ﷺ رحماً وأفضل الناس سابقة وقدماً وهم يا أمير المؤمنين منك مثل الذي علمنا ولكن كتب عليهم الشقاء ومالت بهم الأهواء وكانوا ظالمين فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة وقلوبنا منشرحة لك ببذل النصيحة، وأنفسنا تنصرك جذلة على من خالفك وتولى الأمر دونك والله ما أحب أن لي ما في الأرض مما أقلت وما تحت السماء ومما أظلت وإني واليت عدواً لك أو عاديّاً ولياً لك.

فقال علي: اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك والمرافقة لنبيك ﷺ^(٢).

(١) كتاب صفين: ص ١٢٦ بتصرف.

(٢) كتاب صفين: ص ١١٢.

ولما أراد أمير المؤمنين عليه السلام الشخصوس من النخيلة قام في الناس لخمس ماضين من شوال فقال أما بعد ذلكم فإني قد بعثت مقدماتي وأمرتهم بلزوم هذا الملقاط^(١) حتى يأتيهم أمري فقد أردت أن أقطع هذه النطفة إلى شردمة منكم موطنين بأكناف دجلة فأنهضهم معكم إلى أعداء الله إن شاء الله وقد أمرت على المصر عقبة بن عمرو الأنصاري ولم آلكم ولا نفسي فإياكم والتخلف والترنص فإني قد خلفت مالك بن حبيب اليربوعي وأمرته ألا يترك متخلفاً إلا ألحقه بكم عاجلاً إن شاء الله .

فقام إليه معقل بن قيس الرياحي فقال : يا أمير المؤمنين والله لا يتخلف عنك إلا ظنين ولا يترنص بك إلا منافق فأمر مالك بن حبيب أن يضرب أعناق المتخلفين قال علي عليه السلام : قد أمرته بأمرى وليس مقصراً في أمري إنشاء الله^(٢) .

وقال مالك بن حبيب يا أمير المؤمنين أخرج بالمسلمين فيصيبوا أجر الجهاد والقتال وتخلفني في حشر الرجال؟ فقال له علي عليه السلام : إنهم لن يصبوا من الأجر شيئاً إلا كنت شريكهم فيه وأنت ها هنا أعظم غناء منك عنهم لو كنت معهم فقال : سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين^(٣) .

(١) الملقاط : السميت الذي أمرهم بلزومه وهو شاطئ الفرات .

(٢) كتاب صفين : ص ١٣٢ .

(٣) كتاب صفين : ص ١٣٣ .

المسير إلى الشام حتى بدء المعركة

ثم خرج أمير المؤمنين عليه السلام من النخيلة التي كان معسكراً فيها إلى دير أبي موسى وهو من الكوفة على فرسخين، ثم خرج حتى نزل على شاطئ نرس^(١) بين مسجد حمام أبي بردة وحمام عمر فصلّى بالناس المغرب، ثم أقام حتى صلى الغداة ثم شخص حتى بلغ إلى بيعة إلى جانبها نخل طوال فلما رآها قال: «والنخل باسقات لها طلع نضيد فترلها ومكث بها قدر الغداء».

ثم خرج منها حتى وصل بابل وكان يقول إن ببابل أرضاً قد خسف بها فحرك دابته فلما جاز جسر الصّراة^(٢) نزل فصلّى بالناس العصر وفيها وقعت ردة الشمس له عليه السلام.

ثم خرج حتى أتى دير كعب ثم خرج منها فبات بساباط فأتاه دهاقينها يعرضون عليه الثّل والطعام فقال: لا ليس ذلك لنا عليكم فلما أصبح هو بمظلم ساباط قال «أتبنون بكلّ ريع آية تعبثون» وبعدها توجه نحو كربلاء فلما نزلها فصلّى بها وبعد أن سلم رفع من تربتها فشمها ثم قال: واهاً لك يا تربة ليحشرنّ معك قوم يدخلون الجنة بغير حساب.

ويروى حين أتى كربلاء قيل له هذه كربلاء فقال نعم ذات كرب وبلاء ثم أومىء بيده إلى مكان آخر فقال ها هنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم ثم أومىء بيده إلى مكان آخر ثم قال: ها هنا مراق دمائهم.

ثم مضى إلى مدينة بهرسير وإذا رجل من أصحابه عليه السلام يقال له جرير بن

(١) نرس: بفتح النون في أوله: نهر حفره نرسي بن بهرام بنواحي الكوفة مأخوذ من الفرات.

(٢) الصّراة: بالفتح نهر يأخذ من نهر عيسى من بلدة يقال لها المحول بينها وبين بغداد فرسخ وهو من أنهار نهر الفرات.

سهم ينظر إلى آثار كسرى ويتمثل بقول الأسود بن يعفر:

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد

فقال ﷺ: ألا قلت: «كم تركوا من جثات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين»^(١).

إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثن إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية إياكم وكفر النعم لا تحل بكم النقم.
ثم قال: انزلوا بهذه النجوة^(٢).

وجاء ﷺ حتى مرّ بالأنبار فاستقبله أهلها ونزلوا عن خيولهم ثم جاءوا يشتدون معه وبين يديه ومعهم براذين^(٣) قد أوقفوها في طريقه.

فقال: ما هذه الدواب التي معكم وما أردتم بهذا الذي صنعتكم؟ قالوا: أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا نعظم به الأمراء وأما هذه البراذين فهديّة لك وقد صنعنا للمسلمين طعاماً وهيئنا لدوابكم علفاً كثيراً.

فقال ﷺ: أما هذا الذي زعمتم أنه فيكم خلق تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء وأنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم فلا تعودوا له وأما دوابكم هذه فإن أحببتهم أن أخذها منكم وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم.

وأما طعامكم الذي صنعتكم لنا فإننا نكره أن نأكل من أموالكم إلا بضمن، قالوا: يا أمير المؤمنين نحن نقومه ثم نقبل ثمنه، قال: إذا لا تقومونه قيمته نحن نكتفي بما هو دونه، قالوا: يا أمير المؤمنين فإن لنا من العرب موالٍ ومعارف أتمنعنا أن نهدي لهم أو تمنعهم إن تقبلوا منا؟ فقال: كل العرب لكم موالٍ وليس لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم وإن غصبكم أحد فأعلمونا، قالوا: يا أمير المؤمنين إننا نحب أن تقبل هديتنا وكرامتنا قال: ويحكم فنحن أغنى منكم.

فتركهم وسار حتى نزل بأرض الجزيرة فاستقبله بنو تغلب والنمر بن قاسط

(١) سورة الدخان، الآيات: ٢٤ - ٢٩.

(٢) النجوة: المكان المرتفع، والفجوة: ما اتسع من الأرض.

(٣) جمع البرذون يقع على الذكر والأنثى يقال بالفارسية بابو.

بجزور فقال عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبي: يا يزيد، قال: لبيك يا أمير المؤمنين قال: هؤلاء قومك من طعامهم فاطعم ومن شرابهم فاشرب قال: نعم.

ثم سار حتى أتى الرقة وجل أهلها عثمانية فزوا من الكوفة إلى معاوية فأغلقوا أبوابها دونه فتحصنوا وكان رئيسهم سيماك بن مخرمة الأسدي بالرقة في طاعة معاوية وكان قد فارق علياً في نحو من مائة رجل من بني أسد ثم كاتب معاوية وأقام بالرقة حتى لحق بهم منهم سبعمائة رجل.

وروي أن علياً عليه السلام لما نزل الرقة نزل على موضع يقال له: البليخ على جانب الفرات فنزل راهب هناك من صومعته فقال لعلي عليه السلام إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا كتبه أصحاب عيسى بن مريم أعرضه عليك؟ قال: نعم فقرأ الراهب الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم الذي قضى فيما قضى واطر فيما سطر أنه باعث في الأميين رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويذللهم على سبيل الله لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة بل يعفو ويصفح أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل نشر وفي كل صعود وهبوط تذلل ألسنتهم بالتكبير والتهليل والتسبيح وينصره الله على من ناواه، فإذا توفاه الله اختلفت أمته من بعده ثم اجتمعت فلبث ما شاء الله ثم اختلفت فيمر رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقضي بالحق ولا يرتشي بالحكم الدنيا أهون عليه من الرماد في يوم عصفت به الريح، والموت أهون عليه من شرب الماء على الظمآن، يخاف الله في السر وينصح له في العلانية ولا يخاف في الله لومة لائم، فمن أدرك ذلك النبي ﷺ من أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضوانه والجنة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره فإن القتل معه شهادة.

ثم قال: أنا مصاحبك فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك.

فبكى علي عليه السلام ثم قال: الحمد لله الذي لم أكن عنده منسياً الحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار.

فمضى الراهب معه فكان فيما ذكروا يتغذى مع أمير المؤمنين ويتعشى حتى أصيب يوم صفين فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه السلام اطلبوه فلما وجدته صلى عليه ودفنه وقال هذا منا أهل البيت واستغفروا له مراراً.

ووافى علياً عليه السلام بالزقة معقل بن قيس الرياحي في ثلاثة آلاف فارس^(١). ولما اكتملت الجيوش رأى علي عليه السلام أن يعبر الفرات متوجهاً نحو عدوه فقال لأهل الزقة: جسروا لي جسراً أعبر عليه من هذا المكان إلى الشام فأبوا وقد كانوا ضموا السفن إليهم فنهض من عندهم ليعبر على جسر منبج وخلف عليهم الأشر فناداهم فقال: يا أهل هذا الحصن: إني أقسم بالله إن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها لأجردن فيكم السيف فلاقتلن مقاتلتكم ولأخربن أرضكم ولأخذن أموالكم فلقي بعضهم بعضاً فقالوا: إن الأشر يفي بما يحلف عليه وإنما خلفه علي عندنا ليأتينا بشر فبعثوا إليه إنا ناصبون لك جسراً فأقبلوا.

فأرسل الأشر إلى علي عليه السلام فجاء ونصبوا له الجسر فعبروا الأثقال والرجال وأمر الأشر فوقف في ثلاثة آلاف فارس حتى لم يبق من الناس أحد إلا عبر ثم عبر آخر الناس ولما قطع علي عليه السلام الفرات دعا زياد بن النضر وشريح بن هانئ فسرّحهما أمامه نحو معاوية في اثني عشر ألفاً فلما انتهيا إلى معاوية لقيهما أبو الأعور السلمي في جنود من الشام وهو على مقدمة فدعواه إلى الدخول في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فأبى فبعثوا إلى علي عليه السلام إنا قد لقينا أبا الأعور السلمي بسور الرّوم في جند من أهل الشام فدعونه وأصحابه إلى الدخول في طاعتك فأبى علينا فمرنا بأمرك.

فأرسل علي عليه السلام إلى الأشر فقال: يا مالك إن زياداً وشريحاً أرسلنا إليّ يعلماني أنّهما لقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام بسور الرّوم فنبأني الرسول أنّه تركهم متواقفين فالتجأ إلى أصحابك النجا فإذا أتيتهم فأنت عليهم وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدؤك حتى تلقاهم وتسمع منهم.

ولا يجرمك شأنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة. واجعل على ميمتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف من أصحابك وسطاً ولا تدن منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس حتى أقدم إليك فإني حيث السير إليك إنشاء الله.

وكتب إلى زياد وشريح - وكان الرسول الحارث بن جمهان الجعفي: أما بعد

(١) راجع كتاب صفين لنصر: ص ١٤٧ فيه تفصيل أخذنا منه ما يناسب خطة عملنا في هذا الكتاب.

فلأني قد أمرت عليكما مالكا فاستمعا له وأطيعا أمره فإنه من لا يخاف ربه ولا سقاة^(١) ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ولا إسراعه إلى ما البطؤ عنه أمثل وقد أمرته بمثل الذي أمرتكما أن لا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم ويدعوهم ويعذر إليهم.

فخرج الأشتر حتى قدم على القوم فاتبع ما أمره به علي بن أبي طالب وكف عن القتال ولم يزالوا متواقفين حتى إذا كان عند المساء حمل عليهم أبو الأعور فثبتوا له واضطربوا ساعة ثم إن أهل الشام انصرفوا.

ثم خرج إليهم هاشم بن عتبة في خيل ورجال حسن عدتها وعددها فخرج إليهم أبو الأعور فاقتلوا يومهم ذلك تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال وصبر بعضهم لبعض ثم انصرفوا.

وبكر عليهم الأشتر فقتل من أهل الشام عبد الله بن المنذر التنوخي قتله ظبيان بن عمارة التميمي وما هو يومئذ إلا فتى حديث السن وإن كان الشامي لفارس أهل الشام وأخذ الأشتر يقول: ويحكم أروني أبا الأعور.

ثم إن أبا الأعور دعا الناس فرجعوا نحوه فوقف على تل من وراء المكان الذي كان فيه أول مرة وجاء الأشتر حتى صف أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور أول مرة فقال الأشتر لسنان بن مالك النخعي: انطلق إلى أبي الأعور فادعه إلى المبارزة، فقال: إلى مبارزتي أو مبارزتك؟ فقال الأشتر: أولو أمرتك بمبارزته فعلت؟ قال: نعم والذي لا إله إلا هو تعالى لو أمرتني أن أعترض صفهم بسيفي فعلته حتى أضربه بالسيف فقال: يا ابن أخي أطل الله بقاءك قد والله ازددت فيك رغبة لا ما أمرتك بمبارزته إنما أمرتك أن تدعوه لمبارزتي فإنه لا يبارز إن كان ذلك من شأنه إلا ذوي الأسنان والكفاءة والشرف وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف ولكثك حديث السن وليس يبارز الأحداث فاذهب فادعه إلى مبارزتي.

فأتاهم فقال: أنا رسول فأمثوني فأمثوه فجاء حتى انتهى إلى أبي الأعور فقال له: إن الأشتر يدعوك إلى المبارزة قال: فسكت عني طويلاً ثم قال: إن خفة الأشتر وسوء رأيه هو الذي دعاه إلى إجلاء عمال عثمان واقترائه عليه يعج محاسنه ويجهل حقه ويظهر عداوته ومن خفة الأشتر أنه سار إلى عثمان في داره وقراره

(١) الرهق: خفة العقل والسقاط: العثرة والزلة.

فقتله فيمن قتله وأصبح مبتغى^(١) بدمه لا حاجة لي في مبارزته! فقلت: إنك قد تكلمت فاسمع حتى أجيبك فقال: لا حاجة لي في جوابك ولا الإستماع منك اذهب عني وصاح بي أصحابه فانصرف عنه ولو سمع لأسمعته عذر صاحبي وحقته فرجعت إلى الأشر فأخبرته أنه قد أبى المبارزة فقال: لنفسه نظر.

قال: فتواقفنا حتى حجز بيننا وبينهم الليل وبتنا متحارسين فلما أن أصبحنا نظرنا فإذا هم انصرفوا^(٢).

(١) مبتغى: مطلوب.

(٢) البحار: ٣٢، ٤٣٠ بتقديم وتأخير وتصرف.

الخطاب الأخير إلى معاوية

قالت طائفة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام له: يا أمير المؤمنين أكتب إلى معاوية ومن قبله من قومك فإن الحجة لا تزاد عليهم بذلك إلا عظماً فكتب عليه السلام إليهم: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قبله من قريش سلام عليكم فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد فإن لله عبادة آمنوا بالتنزيل وعرفوا التأويل وفقهوا في الدين وبين الله فضلهم في القرآن الحكيم وأنتم في ذلك الزمان أعداء الرسول ﷺ مكذبون بالكتاب مجمعون على حرب المسلمين من ثقتهم منهم حبستموه أو عذبتهموه وقتلتهموه حتى أراد الله تعالى إعزاز دينه وإظهار أمره فدخلت العرب في الدين أفواجاً وأسلمت هذه الأمة طوعاً وكرهاً فكنتم فيمن دخل هذا الدين إماً رغبة وإما رهبة على حين فاز أهل السبق بسبقهم وفاز المهاجرون والأنصار بفضلهم ولا ينبغي لمن ليست لهم مثل سوابقهم في الدين ولا فضائلهم في الإسلام أن ينازعهم الأمر الذي هم أهله وأولى به فيجور ويظلم ولا ينبغي لمن كان له عقل أن يجهل قدره ولا يعدو طوره ويشقي نفسه بالتماس ما ليس بأهله فإن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من الرسول وأعلمها بالكتاب وأفقهها في الدين أولهم إسلاماً وأفضلهم جهاداً وأشدّهم بما تحمله الرعية من أمر الله اضطلاعاً فاتقوا الله الذي إليه ترجعون «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون».

واعلموا أن خيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون وأن شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم فإن للعالم بعلمه فضلاً وإن الجاهل لا يزداد بمنازعة العالم إلا جهلاً.

ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وحقق دماء هذه الأمة فإن قبلتم أصبتم رشدكم واهتديتم لحظكم وإن أبيتم إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة لن

تردادوا من الله إلا بعداً ولن يزداد الرب عليكم إلا سخطاً والسلام.

فكتب إليه معاوية جواب هذا الخطاب سطرأ واحداً

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

فقال علي عليه السلام لما أتاه هذا الجواب: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين»^(١).

(١) كتاب صفين: ٣/١٥٠.

نزول صفين

وكان نزوله ﷺ بصفين للليالي بقين من ذي الحجة سنة ست وثلاثين فطلب وصفاً لعسكره، وأمر الناس أن يضعوا أثقالهم وهم أكثر من مائة ألف ووزع الناس على مراكز القتال وأخذ أهل الشام كذلك مواضعهم ومصافهم ثم قال ﷺ أيها الناس إن هذا موقف من نطف فيه نطف^(١) يوم القيامة ومن فلج فيه فلج يوم القيامة.

ثم قال ﷺ لما رأى نزول معاوية بصفين:

لقد أتانا كاشراً عن نابه يهبط الناس على اعتزابه^(٢)
فليأتنا الدهر بما أتى به

فكتب إليه معاوية: عافانا الله وإياك ما أحسن العدل والإنصاف من عمل وأقبح الطيش ثم النفس^(٣) في الرجل وكتب بعده:

اربط حمارك لا يُنزع سويئته	إذا يردُ وقيدُ العير مكروب ^(٤)
ليست ترى السيدَ زيداً في نفوسهم	كما تراه بنو كوزٍ ومرهوب ^(٥)
إن تسألوا الحقَّ يُعطى الحقُّ سائله	والدرعُ مُحَقَّبَةٌ والسيفُ مقروب ^(٦)
أو تأنفون فإنا معشر أنف	لا نطعمُ الضَّيْمَ إنَّ السَّمَّ مشروب

(١) أي أن فسدت حاله اليوم في هذا الجهاد فسدت حاله غداً عند الله.

(٢) ص ٥٢.

(٣) النفس: كثرة الكلام.

(٤) السرية: كساء كالبرذعة وقيد مكروب: أي ضيق.

(٥) زيد هو زيد بن حصين بن ضرار المعروف بزيد الخيل وهو فارسهم.

(٦) الدرع محقبة: أي بحالها والسيف في قرابه.

وكتب إليه جواب كتابه أما بعد :

فإن للحرب عراماً شراً إن عليها قائداً عَشْزَراً^(١)
ينصف من أحجر أو تنمراً على نواحيها مزجاً زَمْجَراً^(٢)
إذا وئنين ساعة تغشمر^(٣)

وكتب بعده :

ألم تر قومي إذا دعاهم أخوهم أجابوا وإن يغضب على القوم يغضبوا
هم حفظوا غيبي كما كنت حافظاً لقومي أخرى مثلها إذ تغيبوا
بنو الحرب لم تقعد بهم أمهاتهم أبائهم آباء صدق فأنجبوا

فتراجع الناس كل من الفريقين إلى معسكره وذهب شباب من الناس إلى الماء ليستقوا فمنعهم أهل الشام وقد كانوا نزلوا منزلاً اختاروه مستويّاً بساطاً واحداً وقد صفّ أبو الأعور عليها الخيل والرجالة - أي الشريعة - وقدم المرامية ومعهم أصحاب الرّماح والدّرّق وعلى رؤوسهم البيض ، ففزع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبروه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال ائت معاوية فقل له : إنا سرنا إليك مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم وإنك قدمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالحرب ونحن من رأينا الكفّ حتّى ندعوك ونحتجّ عليك وهذه أخرى قد فعلتموها قد حلتم بين الناس وبين الماء فخلّ بينهم وبينه حتّى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئنا له وندع الناس يقتتلون على الماء حتّى يكون الغالب هو الشارب فعلنا .

فلما مضى صعصعة برسالته إلى معاوية قال معاوية لأصحابه : ما ترون؟ فقال الوليد بن عقبة : امنعهم الماء كما منعه ابن عفّان حصروه أربعين يوماً يمنعونه برد الماء ولين الطعام اقتلهم عطشاً قتلهم الله .

وقال عمرو بن العاص : خلّ بين القوم وبين الماء فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم فأعاد الوليد مقالته .

وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان أخا عثمان من الرضاعة : امنعهم

(١) العرام : بالضم الشراسة والهوج ، والعشزرة : الشديد القوي .

(٢) أحجر : ظلم الناس ، وتنمّر : تنكّر ، والمزج : بكسر الميم السريع النفوذ .

(٣) الغشمة : إتيان الأمر بغير تثبّت .

الماء إلى الليل فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا وكان رجوعهم هزيمتهم امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة فقال صعصعة: إنما يمنع الماء يوم القيامة الفجرة الكفرة شربة الخمر ضربك وضرب هذا الفاسق يعني الوليد فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه فقال معاوية كّفوا عن الرجل فإنما هو رسول.

ولما رجع صعصعة إلى عليّ عليه السلام وأخبره بذلك سوى معاوية صفوف جيشه وأرسل إلى أبي الأعور امنعهم الماء^(١).

فلما سمع الأشعث ذلك أتى عليّاً من ليلته فقال يا أمير المؤمنين أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف؟ خلّ عتاً وعن القوم فوالله لا نرجع حتّى يزدّه أو نموت ومُرّ الأشر فليعلّ بخيله فيقف حيث تأمره فقال: ذاك إليكم فرجع الأشعث فنادى في الناس: من كان يريد الماء أو الموت فميعاده الصّبح فإنّي ناهض إلى الماء فأتاه من ليلته اثنا عشر ألف رجل وشدّ عليه سلاحه وهو يقول:

ميعادنا اليوم بياض الصّبح هل يصلح الزاد بغير ملح
لا لا ولا أمر بغير نصح دَبّوا إلى القوم بطعن سمح
مثل العزالي بطعان نفع لا صلح للقوم وأين صلحي
حسبي من الإقحام قاب رمحي

فلما أصبح دبّ في الناس وسيوفهم على عواتقهم وجعل يلقي رمحه ويقول: بأبي أنتم وأمي تقدّموا قاب رمحي هذا فلم يزل ذلك دأبه حتّى خالط القوم وحسر عن رأسه ونادى: أنا الأشعث بن قيس خلّوا عن الماء. فنادى أبو الأعور السّلميّ أما والله لا حتّى تأخذنا وإياكم السيوف فقال: قد والله أظنّها دنت منا، وكان الأشر قد تعالّى بخيله حيث أمره عليّ فبعث إليه الأشعث أن أقحم الخيل فأقحمها حتّى وضع سنايكها في الفرات وأخذت القوم السيوف فولّوا مدبرين^(٢).

فصار الماء في أيدي أهل العراق فقالوا: والله لا نسقيهم فأرسل إليهم عليّ عليه السلام خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكريكم وخلّوا بينهم وبين الماء فإنّ الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم^(٣).

(١) راجع شرح ابن أبي الحديد: ٣/٣٢٥، ط مصر.

(٢) كتاب صفين: ٣/١٦٦.

(٣) انظر صفين: ٣/١٦٢.

هدنة مؤقتة

لَمَّا مَلَكَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَاءَ بِصَفَيْنِ سَمَحَ لِأَهْلِ الشَّامِ بِالمِشَارَكَةِ فِيهِ وَالمِساهِمَةِ اسْتِمَالَةً لِقُلُوبِهِمْ وَمَكَثَ أَبَامًا لَا يَرْسِلُ إِلَى مَعَاوِيَةَ أَحَدًا وَلَا يَأْتِيهِ مِنْ مَعَاوِيَةَ أَحَدٌ وَاسْتَبْطَأَ أَهْلَ الْعِرَاقِ إِذْنَهُ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ وَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَلَفْنَا ذُرَارِيَنَا وَنِسَاءَنَا بِالكُوفَةِ ائِذْنَ لَنَا فِي قِتَالِ الْقَوْمِ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ قَالُوا إِنَّكَ تَكْرَهُ الْحَرْبَ كِرَاهِيَةً لِّلْمَوْتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّكَ فِي شَكٍّ فِي قِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَّا قَوْلُكُمْ كُلَّ ذَلِكَ كِرَاهِيَةً لِّلْمَوْتِ فَوَاللَّهِ مَا أَبَالِي دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجْتُ إِلَى الْمَوْتِ إِلَيَّ، وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: شَكَا فِي أَهْلِ الشَّامِ فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعُشُوا إِلَى ضَوْئِي وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِأَثَامِهَا^(١).

فَبَعَثَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَعَاوِيَةَ بِشَرِّ بْنِ عَمْرٍو وَسَعِيدِ بْنِ قَيْسٍ وَشَبْثِ بْنِ رَبْعِي فَقَالَ: ائْتُوا هَذَا الرَّجُلَ فَادْعُوهُ إِلَى الطَّاعَةِ وَالجَمَاعَةِ وَإِلَى اتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

فَقَالَ شَبْثُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا نَظْمَعُهُ فِي سُلْطَانِ تَوَلَّيْهِ إِيَّاهُ وَمَنْزِلَةَ يَكُونُ لَهُ بِهَا أَثَرَةٌ عِنْدَكَ إِنْ هُوَ بَايَعَكَ؟ قَالَ: ائْتُوهُ الْآنَ وَالْقُوَّةَ وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ وَانْظُرُوا مَا رَأَيْهِ فِي هَذَا.

فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَابْتَدَأَ بِشَرِّ بْنِ عَمْرٍو بْنِ مُحَصَّنٍ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ يَا مَعَاوِيَةَ فَإِنَّ الدُّنْيَا مِنْكَ زَائِلَةٌ وَإِنَّكَ رَاجِعٌ إِلَى الْآخِرَةِ وَإِنَّ اللَّهَ مُجَازِيكَ بِعَمَلِكَ وَمَحَاسِبُكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَإِنِّي أَنَا شَدِيدُ اللَّهِ أَنْ تَفَرِّقَ جَمَاعَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ تَسْفِكَ دِمَاءَهَا بَيْنَهَا.

(١) نهج البلاغة: ٥٤ من المختار من كلامه.

فقطع معاوية عليه الكلام فقال: فهلاً أوصيت صاحبك؟ فقال: سبحان الله! إن صاحبي لا يوصي، إن صاحبي ليس مثلك، صاحبي أحق الناس بهذا الأمر في الفضل والذين والسابقة في الإسلام والقربة من الرسول.

قال معاوية: فتقول، ماذا؟

قال: أدعوك إلى تقوى ربك وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دينك وخير لك في عاقبة أمرك، قال: ولطل دم عثمان؟ لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً.

فذهب سعيد بن قيس ليتكلم فبدره شبت بن ربيعي فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معاوية قد فهمت ما رددت على ابن محصن إنه لا يخفى علينا ما تطلب إنك لا تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم إلا أن قلت لهم: قتل إمامكم مظلوماً فهلّموا نطلب بدمه فاستجاب لك سفلة طغام رذال وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي تطلب ورب مبتغى أمراً وطالب له يحول الله دونه وربما أوتي المتمني أمنيته وربما لم يؤتها ووالله ما لك في واحدة منهما خير والله إن أخطأت ما ترجو إنك لشّر العرب حالاً ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحقّ صلي للنار فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله فحمد معاوية الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فإن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحبيب الشريف سيد قومه منطقته ثم عتبت بعد فيما لا علم لك به ولقد كذبت ولويت أيتها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما وصفت وذكرت انصرفوا من عندي فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف.

فخرج القوم وشبت يقول: أعلينا تهزل بالسيف؟ أما والله لنعجلته إليك. فأتوا علياً عليه السلام فأخبروه بالذي كان من قوله وذلك في شهر ربيع الآخر^(١).

(١) كتاب صفين: ٣/١٨٨.

موقف قرّاء أهل العراق والشام

وخرج قرّاء أهل العراق وقرّاء أهل الشام فعسكروا في ناحية صفين في ثلاثين ألفاً وعسكر عليّ عليه السلام على الماء، وعسكر معاوية فوقه على الماء أيضاً ومشّت القرّاء بين عليّ عليه السلام ومعاوية منهم: عبيدة السلماني، وعلقمة بن قيس النخعي، وعبد الله بن عتبة، وعمار بن عبد القيس فدخلوا على معاوية، فقالوا: يا معاوية ما الذي تطلب؟

قال: أطلب بدم عثمان.

قالوا: ممّن تطلب بدم عثمان؟

قال: أطلبه من عليّ.

قالوا: أو عليّ قتله؟

قال: نعم هو قتله وآوى قتلته.

فانصرفوا من عنده فدخلوا على عليّ عليه السلام وقالوا: إنّ معاوية زعم أنّك قتلت عثمان قال: اللّهم لكذب عليّ لم أقتله، فرجعوا إلى معاوية فأخبروه فقال: إنّ لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالاً.

فرجعوا إليه عليه السلام وقالوا: يزعم أنّك إنّ لم تكن قتلت بيدك فقد أمرت ومالأت على قتل عثمان.

فقال: اللّهم لكذب فيما قال.

فرجعوا إلى معاوية فقالوا: إنّ عليّاً يزعم أنّه لم يفعل، فقال معاوية إنّ كان صادقاً فليقدنا من قتلة عثمان فإنهم في عسكره وجنده وأصحابه وعضده فرجعوا إلى عليّ عليه السلام فقالوا: إنّ معاوية يقول لك إنّ كنت صادقاً فادفع إلينا قتلة عثمان أو مكنا منهم فقال لهم: إنّ القوم تأولوا عليه القرآن ووقعت الفرقة وقتلوه في

سلطانه وليس على ضربهم قود فخصم علي معاوية .

فقال لهم معاوية إن كان الأمر كما تزعمون فلم ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ولا مئمن ها هنا معنا؟ فقال علي عليه السلام : إن الناس تبع المهاجرين والأنصار هم شهود للمسلمين في البلاد على ولاتهم وأمرأ دينهم فرضوا بي وبايعوني ولست أستحل أن أدع ضرب معاوية يحكم على هذه الأمة ويركبهم ويشق عصاهم .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك فقال : ليس كما يقول فما بال من هو ها هنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر؟

فانصرفوا إليه عليه السلام فأخبروه بقوله فقال : ويحكم هذا للبدرين دون الصحابة وليس في الأرض بدري إلا وقد بايعني وهو معي أو قد أقام ورضي فلا يغرنكم معاوية من أنفسكم ودينكم^(١) .

فتراسلوا ثلاثة أشهر ربيعاً الآخر وجماديين فيفزعون الفرعة فيما بين ذلك فيزحف بعضهم إلى بعض وتحجز القراء بينهم .

(١) البحار: ٤٤٩/٣٢ بتصرف .

مكيدة لمعاوية

حتى إذا كان في رجب وخشي معاوية أن يبايع القراء علياً عليه السلام جدّ في المكر وكتب في سهم: من عبد الله الناصح إني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات فيفرقكم فخذوا حذرکم ثم رمى السهم في عسكر علي عليه السلام فوقع السهم في يد رجل فقراه ثم أقرأ صاحبه فلما قرأه من أقبل وأدبر قالوا: هذا أخ لنا ناصح كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية فلم يزل السهم يقرأ ويرتفع حتى رفع إلى علي عليه السلام وبعث معاوية فأتى رجال من العملة إلى عاقول^(١) من النهر بأيديهم المرور والزبل^(٢) يحفرون فيها بحيال عسكر علي عليه السلام فقال عليه السلام: ويحكم إن الذي يعالج معاوية لا يستقيم له ولا يقوى عليه إنما يريد أن يزيلكم عن مكانكم فانتهوا عن ذلك ودعوه.

فقالوا له: هم والله يحفرون والله لشر تحلن وإن شئت فأقم فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم ملياً وارتحل علي عليه السلام في أخريات الناس وهو يقول:

ولو أتني أطعتُ عَصَبْتُ قومي إلى ركن اليمامة أو شَمَام^(٣)
ولكنني إذا أبرمتُ أمراً مُنيتُ بِخَلْفِ آراءِ الطَّغَامِ

فارتحل معاوية حتى نزل بمعسكر علي عليه السلام الذي كان فيه.

فدعا علي عليه السلام الأستر، فقال: ألم تغلبني على رأيي أنت والأشعث؟ فدونكما فقال الأشعث: أنا أكفيك يا أمير المؤمنين سأداوي ما أفسدت اليوم من ذلك فجمع كندة فقال لهم: يا معشر كندة لا تفضحوني اليوم ولا تخزوني فإنما أنا

(١) عاقول النهر: ما أعوج منه.

(٢) المرور: جمع مرّ بالفتح وهو المسحاة، والزبل: جمع زبيل وهو الجراب والفقة.

(٣) شَمَام: جبل لبني الباهلة.

أقارع بكم أهل الشام فخرجوا معه رجلاً يمشون وبيده رمح له يلقيه على الأرض ويقول: امشوا قيس رمحي هذا فيمشون فلم يزل يقيس الأرض برمحه ويمشون معه حتى أتى معاوية وسط بني سليم واقفاً على الماء وقد جاءه أداني عسكره فاقتتلوا قتالاً شديداً على الماء ساعة وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا وأقبل الأشر في جند من أهل العراق فحمل على معاوية والأشعث يحارب في ناحية أخرى فانحاز معاوية في بني سليم فردوا وجوه إبله قدر ثلاث فراسخ ثم نزل ووضع أهل الشام أثقالهم والأشعث يهدر ويقول: أرضيتك يا أمير المؤمنين؟ وقال الأشر: يا أمير المؤمنين قد غلب الله لك على الماء^(١) فقال علي عليه السلام لأصحابه: أيها الناس إن الخطب أعظم من منع الماء^(٢) واستمر القتال إلى أن مضى ذو الحجة حيث تداعى الناس أن يكف بعضهم عن بعض إلى أن ينقضي المحرم لعل الله أن يجري صلحاً واجتماعاً فكف الناس بعضهم عن بعض^(٣).

(١) البحار: ٣٢، ٤٥١.

(٢) كتاب صفين: ١٩٣/٣.

(٣) انظر صفين: ١٩٦/٣.

توقف القتال في المحرم الحرام

لَمَّا تَوَادَعَ الطَّرْفَانِ فِي الْمَحْزَمِ اخْتَلَفَ الرُّسُلُ فِيمَا بَيْنَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَعَاوِيَةَ رَجَاءَ الصَّلَاحِ فَأَرْسَلَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَعَاوِيَةَ عَدِيَّ بْنِ حَاتِمٍ وَشَبِثَ بْنَ رَبِيعِيٍّ، وَيزِيدَ بْنَ قَيْسٍ، وَزِيَادَ بْنَ حَفْصَةَ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ حَمَدَ اللَّهُ تَعَالَى عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ:

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَيْنَاكَ لِنَدْعُوكَ إِلَى أَمْرٍ يَجْمَعُ اللَّهُ بِهِ كَلِمَتَنَا وَأَمْتَنَا وَيَحْقِنُ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ نَدْعُوكَ إِلَى أَفْضَلِ النَّاسِ سَابِقَةً وَأَحْسَنِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ آثَاراً وَقَدْ اجْتَمَعَ لَهُ النَّاسُ وَقَدْ أَرْشَدَهُمُ اللَّهُ بِالَّذِي رَأَوْا وَأَتَوْا فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرَكَ وَغَيْرَ مَنْ مَعَكَ فَانْتَ يَا مَعَاوِيَةَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَصِيبَكَ اللَّهُ وَأَصْحَابُكُمْ بِمِثْلِ يَوْمِ الْجَمَلِ.

فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ: كَأَنَّكَ إِنَّمَا جِئْتَ مَتَهَدِّدًا وَلَمْ تَأْتِ مُصْلِحًا هِيَهَاتَ يَا عَدِيَّ إِنِّي لَابْنُ حَرْبٍ مَا يَقَعُّعُ لِي بِالشَّنَانِ^(١) أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّكَ مِنَ الْمَجْلِبِينَ عَلَى عِثْمَانَ وَإِنَّكَ لَمَنْ قَتَلْتَهُ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ.

فَقَالَ لَهُ شَبِثُ بْنُ رَبِيعِيٍّ وَزِيَادُ بْنُ خَصْفَةَ وَتَنَازَعَا كَلَامًا وَاحِدًا: أَتَيْنَاكَ فِيمَا يَصْلِحُنَا وَإِيَّاكَ فَأَقْبَلْتَ تَضْرِبُ لَنَا الْأَمْثَالَ دَعِ مَا لَا يَنْفَعُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَأَجْبِنَا فِيمَا لَا يَعْمَنُ وَإِيَّاكَ نَفْعُهُ.

وَتَكَلَّمَ يَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ: إِنَّا لَمْ نَأْتِكَ إِلَّا لِنَبْلُغَكَ الَّذِي بَعَثْنَا بِهِ إِلَيْكَ وَلِتُؤَدِّيَ عَنْكَ مَا سَمِعْنَا مِنْكَ وَلَمْ نَدْعُ أَنْ نَنْصَحَ لَكَ وَأَنْ نَذْكُرَ مَا ظَنَّنَا أَنَّ فِيهِ عَلَيْكَ حُجَّةٌ أَوْ أَنَّهُ رَاجِعٌ بِكَ إِلَى الْأُمَّةِ وَالْجَمَاعَةِ إِنَّ صَاحِبَنَا مِنْ قَدْ عَرَفْتَ وَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ فَضْلَهُ وَلَا أَظُنُّهُ يَخْفَى عَلَيْكَ إِنَّ أَهْلَ الدِّينِ وَالْفَضْلِ لَا يَعْدِلُونَكَ بِعَلِيٍّ وَلَا يَسَاوُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مَعَاوِيَةَ وَلَا تَخَالَفْ عَلِيًّا فَإِنَّا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا قَطُّ أَعْلَمَ بِالتَّقْوَى وَلَا أَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا وَلَا أَجْمَعَ لَخِصَالِ الْخَيْرِ كُلِّهَا مِنْهُ.

(١) الشَّنَانُ: جَمْعُ الشَّنِّ بَفَتْحِ أَوَّلِهِ: الْقُرْبَةُ الْخُلُقُ كَانُوا يَحْرُكُونَهَا لِلْإِبْلِ إِذَا أَرَادُوا الْإِسْرَاعَ فِي السَّيْرِ.

فحمد الله معاوية وأثنى عليه وقال: أما بعد فإنكم دعوتكم إلى الجماعة والطاعة فأما التي دعوتكم إليها فنعمما هي وأما الطاعة لصاحبكم فإنه لا نرضى به إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه أرايتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلنهم به ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.

فقال له شيبث: أيسرك يا معاوية إن أمكنت من عمار بن ياسر فقتلته؟

قال: وما يمنعني من ذلك والله لو أمكنتي صاحبكم من ابن سمية ما أقتله بعثمان ولكن كنت أقتله بنائل مولى عثمان!!! فقال شيبث: وإله السماء ما عدلت معدلاً ولا والذي لا إله إلا هو لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تنذر الهام عن كواهل الرجال وتضيق الأرض الفضاء عليها برحبها فقال معاوية: إذا كان ذلك كانت عليك أضيق ثم رجع القوم عن معاوية فبعث إلى زياد بن خضفة من بينهم فأدخل عليه فحمد معاوية الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا أخا ربيعة فإن علياً قطع أرحامنا وقتل إمامنا وآوى قتلة صاحبنا وإنني أسألك النصره عليك بأسرتك وعشيرتك ولك علي عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أولئك أي المصرين أحببت قال زياد فلما قضى معاوية كلامه حمدت الله وأثنت عليه ثم قلت: أما بعد فإنني لعلني بيته من ربي وبما أنعم الله علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ثم قمت فقال معاوية لعمر بن العاص وكان إلى جانبه: ما لهم غضبهم^(١) الله ما قلبهم إلا قلب رجل واحد^(٢).

وخرج أبو أمامة الباهلي وأبو الدرداء فدخلا على معاوية فقالا: يا معاوية علام تقاتل هذا الرجل؟ فوالله لهو أقدم منك سلماً وأحق منك بهذا الأمر وأقرب من رسول الله ﷺ فعلام تقاتله؟ قال: أقاتله على دم عثمان فإنه آوى قتله فقولوا له: فليقدنا من قتله وأنا أول من بايعه من أهل الشام فانطلقوا إلى علي عليه السلام فأخبروه فقال: إنما يطلب الذين ترون فخرج عشرون ألفاً وأكثر متسربلين في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، فقالوا: كلنا قتله فإن شاءوا فليروموا ذلك منا.

فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً من القتال^(٣).

(١) الغضب: القطع.

(٢) كتاب صفين: ١٩٩/٣ بتصرف.

(٣) البحار: ٣٢، ٤٥١.

رسل معاوية إلى عليّ عليه السلام

وبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري إلى عليّ عليه السلام وبعث معه شرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد فدخلوا عليه عليه السلام فتكلم حبيب وحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهادياً يعمل بكتاب الله وينيب إلى أمر الله فاستنقلتم واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان لنقتلهم به فإن قلت: إنك لم تقتله فاعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شوري بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم.

فقال له عليّ عليه السلام: ومن أنت لا أم لك والولاية والعزل والدخول في هذا الأمر اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل لذاك فقام حبيب بن مسلمة، وقال: والله لتريتي حيث تكره فقال له عليّ عليه السلام: ما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك اذهب فصوب وصعد ما بدا لك فلا أبقي الله عليك إن أبقيت.

فقال شرحبيل بن السمط: إن كلمتك فلعمري ما كلامي لك إلا نحو كلام صاحبي فهل عندك جواب غير الذي أجبتة؟ قال: نعم. قال: فقله، فحمد الله عليّ عليه السلام وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد فإن الله سبحانه بعث محمداً ﷺ فأنقذ به من الضلالة ونعش به من الهلكة وجمع به بعد الفرقة ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه فاستخلف الناس أبا بكر ثم استخلف أبو بكر عمراً فأحسن السيرة وعدل في الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحق بالأمر فغفرنا ذلك لهما.

ثم ولي أمر الناس عثمان فعمل بأشياء عابها الناس عليه فسار إليه ناس فقتلوه ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمرهم فقالوا لي: بايع فأبيت عليهم فقالوا لي: بايع فإن الأمة لن ترضى إلا بك وإننا نخاف إن لم تفعل أن يفرق الناس فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية إيتاي الذي لم يجعل الله له سابقة في

الذين ولا سلف صدق في الإسلام طليق ابن طليق وحزب من الأحزاب لم يزل الله
ولرسوله عدوًّا هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين مكرهين فيا عجباً لكم
ولانقيادكم له وتدعون آل نبيكم الذي لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن
تعدلوا بهم أحداً من الناس إني أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيكم ﷺ
وإمارة الباطل وإحياء معالم الدين أقول قولي هذا وأستغفر الله لنا ولكل مؤمن
ومؤمنة ومسلم ومسلمة.

فقال له شرحبيل ومعن بن يزيد: أتشهد أن عثمان قتل مظلوماً؟ فقال لهما:
إني لا أقول ذلك. قالوا: فمن لا يشهد أن عثمان قتل مظلوماً فنحن براء منه ثم
قاما فانصرفا.

فقال علي عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءُ إِذَا وَلَّوْا
مَدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يَأْمُرُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ﴾^(١).

ثم أقبل على أصحابه فقال: لا يكن هؤلاء في ضلالتهم بأولي بالجد منكم
في حقكم وطاعة إمامكم ثم مكث الناس متوادعين إلى انسلاخ المحرم^(٢).

(١) سورة النحل، الآيتين: ٨٠ - ٨١.

(٢) البحار: ٣٢، ٤٥٥ وصفين: ٣/٢٠٠.

النداء للقتال

فلما انسلخ شهر المحرم واستقبل الناس صفرأ من سنة سبع وثلاثين بعث عليّ عليه السلام نفرأ من أصحابه حتّى إذا كانوا من عسكر معاوية حيث يسمعونهم الصوت قام يزيد بن الحارث فنادى عند غروب الشمس يا أهل الشام إنّ أمير المؤمنين عليأ عليه السلام وأصحاب رسول الله ﷺ يقولون لكم: إنا والله لم نكف عنكم شكأ في أمركم ولا بقأ عليكم وإنما كففنا عنكم لخروج المحرم وقد انسلخ وإنا قد نابذنا إليكم على سواء فإن الله لا يحب الخائنين.

فسار الناس إلى رؤسائهم وخرج معاوية، وعمرو بن العاص يكتبان الكتائب ويعبئان العساكر وأوقدوا النيران وجاءوا بالشموع وبات عليّ عليه السلام ليلته تلك كلها يعبأ الناس ويكتب الكتائب ويدور في الناس ويحرضهم.

فخرجوا أول صفر وهو يوم الأربعاء فاقتتلوا قتالأ شديداً جلّ النهار ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيل ورجال حسن عددها وعدتها فخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي فاقتتلوا يومهم ذلك تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال ثم انصرفوا وقد صبر القوم بعضهم لبعض.

وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر، وخرج إليه عمرو بن العاص فاقتتل الناس كأشد قتال وجعل عمار يقول: يا أهل الإسلام أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين فلما أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله أتى إلى النبي ﷺ فأسلم وهو والله فيما يرى راهب غير راغب ثم قبض الله رسوله وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم ألا وإنه معاوية فاقتلوه والعنوه فإنه ممّن يطفى نور الله ويظاهر أعداء الله.

وكان مع عمار زياد بن النضر على الخيل فأمره أن يحمل في الخيل فحمل

فصبروا له وشدّ عمار في الرّجالة فأزال عمرو بن العاص عن موقفه ورجع الناس يومهم ذلك^(١).

ولمّا كان اليوم الخامس خرج عبد الله بن العباس فخرج إليه الوليد بن عقبة وأكثر من سبّ بني عبد المطلب فأرسل إليه ابن عباس أبرز إليّ فأبى أن يفعل وقاتل ابن عباس ذلك اليوم قتالاً شديداً ثمّ انصرفوا وكلّ غير غالب.

وخرج ذلك اليوم شمر بن أبرهة بن الصباح الحميري فلحق بعليّ عليه السلام في ناس من قراء أهل الشام فقتل ذلك في عضد معاوية وعمرو بن العاص.

وقال عمرو: يا معاوية إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلاً له من محمّد ﷺ قرابة قريبة ورحم مائة وقدم في الإسلام ليس لأحد مثله قد سار إليك بأصحاب محمّد المعدودين وفرسانهم وأشرفهم ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل وعليّ على الحقّ فبادر الأمر قبل اضطرابه عليك فقام معاوية في أهل الشام خطيباً وحثّهم على القتال.

فخطب عليّ عليه السلام أصحابه قال أبو سنان الأسلمي كأنّي أنظر إليه متكئاً على قوسه وقد جمع أصحاب رسول الله ﷺ وهم يلونه كأنّه أحبّ أن يعلم الناس أنّ الصّحابة متوافرون معه فقال:

أيّها الناس اسمعوا مقالتي وعوا كلامي فإنّ الخيلاء من التجبر وإنّ النخوة من التكبر وإنّ الشيطان عدوّ حاضر يعدكم الباطل.

ألا إنّ المسلم أخو المسلم فلا تنابذوا ولا تجادلوا.

ألا إنّ شرايع الدين واحدة، وسبله قاصدة، من أخذ بها لحق ومن فارقها محق ومن تركها مرق.

ليس المسلم بالخائن إذا ائتمن ولا بالمخلف إذا وعد ولا بالكاذب إذا نطق.

نحن أهل بيت الرحمة وقولنا الصدق وفعلنا القصد ومنا خاتم النبيين وفينا قادة الإسلام وفينا حملة الكتاب ألا إنّنا ندعوكم إلى الله وإلى رسوله وإلى جهاد عدوّه والشدة في أمره وابتغاء مرضاته وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان وتوفير الفیء على أهله.

ألا وإنّ من أعجب العجائب أنّ معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن

(١) البحار: ٣٢، ٤٥٨.

العاص السهمي أصبحا يحرضان على طلب الذين بزعمهما ولقد علمتم أنني لم أخالف رسول الله ﷺ قط ولم أعصيه في أمر قط أقيه بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وترعد فيها الفرائص نجدة أكرمني الله سبحانه بها وله الحمد .

ولقد قبض رسول الله ﷺ وإن رأسه لفي حجري ولقد وليت غسله بيدي وحدي تقلبه الملائكة المقربون معي وأيم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله (١) .

ولما كان يوم السابع من صفر خرج علي عليه السلام غداة إلى أعداء الله ورفع يديه إلى السماء فقال :

اللهم رب هذا السقف المحفوظ المكفوف الذي جعلته مغيطاً ليلٍ والنهار وجعلت فيه مجرى للشمس والقمر ومنازل الكواكب والنجوم وجعلت سكانه سبطاً من الملائكة لا يسأمون العبادة ورب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام والهوام والأنعام وما لا يحصى مما يرى ومما لا يرى من خلقك العظيم، ورب الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ورب السحاب المسخر بين السماء والأرض ورب البحر المسجور والمحيط بالعالمين ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق متاعاً إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي وسددنا للحق وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصم بقية أصحابي من الفتنة .

فلما رأى أصحاب معاوية علياً قد أقبل تقدموا إليه بزحوفهم (٢) فقام عليه السلام وخطب جماعته .

معاشر المسلمين استشعروا الخشية (٣) ، وتجليبوا السكينة (٤) ، وعضوا على النواجذ (٥) فإنه أنبي (٦) للسيوف عن الهام (٧) وأكملوا الأمة (٨) وقلقلوا السيوف (٩)

(١) البحار: ٣٢ ، ٤٦٤ .

(٢) البحار: ٣٢ ، ٤٦١ .

(٣) استشعار الخشية : أن يجعلوا الخوف من الله عز وجل ملازماً لهم كالشعار وهو من اللباس ما يلي شعر الجسد .

(٤) تجليبوا السكينة : أي تغطوا بالوقار والثبات في السير والحركة .

(٥) النواجذ : أقاصي الأضرار .

(٦) أنبي ونبا السيف عن الضريبة : إذا لم يعمل فيها .

(٧) الهام : جمع هامة وهي رأس كل شيء .

(٨) الأمة : الدرع .

(٩) أي حركوها .

في أغمادها قبل سَلْها والحظوا الشزْر^(١)، ونافحوا بالظبي^(٢)، وصلوا السيوف بالخطي^(٣)، واعلموا أنكم بعين الله مع ابن عم رسول الله ﷺ فعاودوا الكَرْ واستحيوا من الفرَّ فإنه عار في الأعقاب ونار يوم الحساب وطبوا عن أنفسكم نفساً وامشوا إلى الموت مشياً سُجْحاً^(٤) وعليكم بهذا السواد الأعظم والزواق المطنب^(٥) فاضربوا ثَبَجَه^(٦) فإن الشيطان كامن في كسره قد قَدَمَ للوثبة^(٧) يداً وآخر للنكوص رجلاً فصمداً صمداً حتى ينجلي لكم عمود الحق وأنتم الأعلون والله معكم ولن يترككم أعمالكم^(٨).

وإن أول فارسين التقيا في هذا اليوم حجر بن عدي من أصحاب عليّ عليه السلام وابن عم حجر من أصحاب معاوية كلاهما من كندة فأطعنا برمحيهما وخرج خزيمة الأسدي من عسكر معاوية فضرب حجر بن عدي ضربة برمحه فحمل أصحاب عليّ عليه السلام فقتلوا خزيمة ونجا ابن عم حجر فخرج رفاعة الحميري من صف العراق وقتل مرن ابن عدي - ابن عم حجر - .

ثم إن علياً عليه السلام دعا أصحابه إلى أن يذهب واحد منهم بمصحف كان في يده إلى أهل الشام فقال: من يذهب إليهم فيدعهم إلى ما في هذا المصحف فسكت الناس وأقبل فتى اسمه سعيد فقال: أنا صاحبه وقال ثانياً ولم يجب إلا الفتى فقبضه بيده ثم أتاهم فناشدتهم ودعاهم إلى ما فيه فقتلوه.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام لعبد الله بن بديل: احمل عليهم الآن فحمل عليهم بمن معه من أهل الميمنة وعليه يومئذ سيفان ودرعان فجعل يضرب بسيفه قدماً ويرتجز فلم يزل يحمل حتى انتهى إلى معاوية والذين بايعوه على الموت فأمرهم أن يصمدوا لابن بديل وبعث إلى حبيب بن مسلمة الفهري وهو في الميسرة أن يحمل عليه بجمع من أصحابه واختلط الناس واصطدم الصفان ميمنة أهل العراق

(١) الحظوا الشزْر: أي انظروا الطعن عن اليمين والشمال.

(٢) نافحوا الظبي: أي ضاربوا ودامغوا، والظبي: جمع ظبة بالضم وهي طرف السيف.

(٣) والمعنى إذا قصرت السيوف عن الضربة فتقدموا تلحقوا ولا تعبروا حتى يلحقكم العدو.

(٤) السُجْح: بضم السين السهل.

(٥) القبة المشدودة بالأطناص وهي لمعاوية.

(٦) أي وسطه.

(٧) الوثبة: الطفرة.

(٨) أي لا ينقصكم الله جزاء أعمالكم. راجع نهج البلاغة: المختار من خطبة/٦٤.

وميسرة أهل الشام وأقبل ابن بديل يضرب الناس بسيفه مذماً حتى أزال معاوية عن موقفه وتراجع معاوية عن مكانه القهقري كثيراً وأشفق على نفسه وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية وثالثة يستنجد به ويستصرفه ويحمل حبيب حملة شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق فكشفها حتى لم يبق مع ابن بديل إلا نحو مائة إنسان من القرءاء فاستند بعضهم إلى بعض يحملون أنفسهم ولحق ابن بديل في الناس وصمّم على قتل معاوية وجعل يطلب موقفه حتى انتهى إليه فنادى معاوية في الناس ويلكم الصخرة والحجارة إذا عجزتم عن السلاح أثخنوه فرضخه الناس بالحجارة حتى أثخنوه فسقط فأقبلوا عليه بسيوفهم فقتلوه.

وجاء معاوية وعبد الله بن عامر حتى وقفا عليه فألقى عبد الله عمامته على وجهه وترخّم عليه وكان له أخاً وصديقاً من قبل فقال معاوية: اكشف عن وجهه فقال لا والله لا يمثل به وفيّ روح فقال له معاوية: قد وهبناه لك فكشف عن وجهه فقال معاوية هذا كبير القوم وربّ الكعبة اللهم ظفّرني بالأشتر النخعي والأشعث الكندي فاستعلا أهل الشام عند قتل ابن بديل على أهل العراق يومئذ وانكشف أهل العراق من قبل الميمنة وأجفلوا إجلالاً شديداً.

فأمر عليّ عليه السلام سهل بن حنيف فاستقدم ممّن كان معه ليريد الميمنة ويعضدها فاستقبلهم جموع أهل الشام في خيل عظيمة فحملت عليهم فألحقتهم بالميمنة وكانت ميمنة أهل العراق متصلة بموقف عليّ عليه السلام في القلب في أهل اليمن فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى عليّ عليه السلام فانصرف يمشي نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر من الميسرة فلم يبق مع عليّ عليه السلام من أهل العراق إلا ربيعة وحدها في الميسرة ومعه يومئذ بنوه أيضاً، وبصر به أحمر مولى بني أمية وكان شجاعاً فقال: عليّ وربّ الكعبة قتلني الله إن لم أقتلك فأقبل نحوه فخرج إليه كيسان مولى عليّ عليه السلام فاختلفا ضربتين فقتله أحمر وخالط عليّاً عليه السلام ليضربه بالسيف فمدّ عليّ يده إلى جيب درعه فجذبه عن فرسه وحمله عليّ عاتقه والله لكأنني أنظر إلى رجلي أحمر يختلفان عليّ عنق عليّ ثمّ ضرب به الأرض فكسر منكبيه وعضديه، وشدّ أبناء عليّ حسين ومحمّد فضرباه بأسياهما حتى برد ثمّ إنّ أهل الشام دنوا عنه يريدونه فقال له الحسن عليه السلام ما ضرك لو أسرع حتى تنتهي إلى الذين صبروا بعدك من أصحابك - تعني ربيعة - فقال عليه السلام يا بني إنّ لأبيك يوماً لا يبطىء به عند السعي ولا يقربه إليه الوقوف إنّ أباك لا يبالي وقع على الموت أو وقع الموت عليه.

وقد أعطى عليّ عليه السلام رايته ربيعة الحُضَيْن بن المنذر الرقاشي وهو يومئذ غلام وكانت حمراء فأعجب علياً عليه السلام زحفه وثباته، فقال:

لمن راية حمراء يخفق ظلُّها	إذا قيل قدّمها حُضَيْن تَقْدِما
ويدنو بها في الصّف حتّى يديرها	حِمَامُ المَنايا تَقَطُرُ الموتُ والدُما
جزى الله قوماً صابروا في لقائهم	لدى البأس حُرّاماً أعزّ وأكرّما
وأحزَمَ صبراً يوم تُدعى إلى الوغى	إذا كان أصواتُ الكِماءِ تغمّغما
ربيعة أعني إنهم أهلُ نجدةٍ وبأسٍ	إذا لاقوا خَميساً عرمرّما
وقد صبرت عكّ ولخَمّ وجَميرٌ	لمذحج حتّى يفارق دَمٌ دَما
ونادت جذام بالمذحج ويحكّم	جزى الله شراً أيّنا كان أظلمّا
أما تتقون اللّهُ في حُرُماتكم	وما قرّب الزحمن منها وعظّما
أدقنا ابنَ حربٍ طعننا وضرابنا	بأسيا فنا حتّى تولى وأحجّما
وفرّ ينادي الزبرقان وظالمّا	ونادى كَلاعاً والكُريبَ وأنعمّا
وعمرأ وسفياناً وجهماً ومالكاً	وحوشبَ والغاوي شُريحاً وأظلمّا
وكرز بن نبهان وعمرو بن جُخدرٍ	وصباحاً القينيّ يدعو وأسلمّا

ويقول عمرو بن الزبير لقد سمعت الحُضَيْن بن المنذر يقول: أعطاني عليّ ذلك اليوم راية ربيعة ومضر وقال: بسم الله سر يا حُضَيْن واعلم أنّه لا تخفق على رأسك براية مثلها أبداً هذه راية رسول الله ﷺ.

فجاء أبو عرّفاء جبلة بن عطية الذهلي إلى الحُضَيْن فقال: هل لك أن تعطيني الراية أحملها فيكون لك ذكرها ويكون لي أجرها؟ فقال الحُضَيْن وما غناي يا عمّ عن أجرها مع ذكرها فقال: إنّهُ لا غناء بك عن ذلك ولكن أعرها عمّك ساعة فما أسرع ما ترجع إليك قال حُضَيْن: فعلمت أنّه قد استقتل وأنه يريد أن يموت مجاهداً فقلت له: خذها فأخذها ثمّ قال لأصحابه إنّ عمل الجنة كره كلّهُ وثقيل وإنّ عمل النار خفّ كلّهُ وحبيب إنّ الجنة لا يدخلها إلّا الصّابرون الذين صبروا أنفسهم على فرائض الله وأمره وليس شيء ممّا افترض الله على العباد أشدّ من الجهاد هو أفضل الأعمال ثواباً عند الله فإذا رأيتموني قد شدّدت فشّدوا ويحكّم أما تشاقون إلى الجنة أما تحبّون أن يغفر الله لكم فشّدوا وشّدوا معه وقاتلوا قتالاً شديداً فقتل أبو عرّفاء وشدّت ربيعة بعدها شدة عظيمة على صفوف أهل الشام.

فاضطرب الناس ذلك اليوم بالسيوف حتّى قطعت وتكسّرت وصارت

كالمناجل وتطاعنوا بالرماح حتى تناثرت أسنتها ثم جثوا على الركب فتحاثوا بالتراب ثم تعانقوا وتكادموا بالأفواه ثم تراموا بالصخرة والحجارة ثم تحاجزوا فكان الرجل من أهل العراق يميز على أهل الشام فيقول: كيف أصير إلى رايات بني فلان؟ فيقول ها هنا لا هداك الله ويميز الرجل من أهل الشام على أهل العراق فيقول: كيف أمضي إلى رايات بني فلان؟ فيقولون: ها هنا لا حفظك الله.

ثم صاح عليه السلام بمالك الأشتر: يا مالك قال: لبيك يا أمير المؤمنين قال: ائت هؤلاء القوم فقل لهم: أين فراركم عن الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم؟ فمضى الأشتر فاستقبل الناس منهزمين فناداهم أنا مالك بن الحارث فلم يتلفت أحد منهم إليه فقال: أيها الناس أنا الأشتر فأقبلت إليه طائفة وذهبت عنه طائفة فقال عضضتم بهن أبيكم وما أقبح ما قاتلتم اليوم أيها الناس غضبوا الأبصار وعضوا على النواجذ فاستقبلوا الناس بهامكم وشدوا عليهم شدة قوم موتورين بأبائهم وأبنائهم وأخوانهم حقاً على عدوهم قد وطنوا على الموت أنفسهم كيلاً يُسبِقُوا بشار إن هؤلاء القوم والله لن يقاتلوكم إلا عن دينكم ليطفثوا السنة ويحيوا البدعة ويدخلوكم في دين قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة فطيبوا عباد الله نفساً بدمائكم دون دينكم فإن الفرار فيه سلب العز والغلبة على الفياء وذل المحيا والممات وعار الدنيا والآخرة وسخط الله وأليم عقابه.

ثم قال: اخلصوا إليّ مذحجاً فاجتمعوا إليه فقال عضضتم بصم الجنادل والله ما أرضيتكم اليوم ربكم ولا نصحتكم له في عدوه وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب وأصحاب الغارات وفرسان الطرار وحتوف الأقران ومذحج الطعان الذين لم يكونوا يُسبِقُونَ بشارهم ولم تطل دماؤهم ولم يعرفوا في موطن في المواطن بخسف وأنتم سادة مصركم وأعز حيا في قومكم وما تفعلوا في هذا اليوم مأثور بعد اليوم فاتقوا مأثور الحديث في غد واصدقوا عدوكم اللقاء فإن الله مع الصابرين والذي نفسي بيده ما من هؤلاء - وأشار بيده إلى أهل الشام - رجل في مثل جناح البعوضة من دين الله، الله ما أحسنتم اليوم القراع، اجلوا سواد وجهي يرجع في وجهي دمي وعليكم بهذا السواد الأعظم فإن الله لو قد فضة تبعه من بجانيه كما يتبع السيل مقدمه.

فقالوا: خذ بنا حيث أحببت فصمد بهم نحو عظمهم واستقبله ستام من همدان وهم نحو ثمان مائة مقاتل قد انهزموا آخر الناس وكانوا قد صبروا في ميمنة علي حتى قتل منهم مائة وثمانون رجلاً وأصيب منهم أحد عشر رئيساً كلما قتل

منهم رئيس أخذ الزاية آخر فانصرفوا وهم يقولون ليت لنا عديداً من العرب يحالفوننا ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نقتل أو نظهر.

فقال لهم الأشر إنني أحالفكم وأعاقدكم على أن لا نرجع أبداً حتى نظفر أو نهلك فوقفوا معه على هذه النية والعزيمة وزحف نحو الميمنة وتاب إليه ناس تراجعوا من أهل الصبر والوفاء والحياء فأخذ لا يصمد لكثيية إلا كشفها ولا بجمع إلا جازه وردة^(١) ولما رأى علي عليه السلام ميمنته قد عادت إلى موقفها ومصافها وكشفت من بإزائها أقبل حتى انتهى إليهم فقال: قد رأيت جولاتكم وانحيازكم عن صفوفكم تحوزكم الجفافة الطغام أعراب أهل الشام وأنتم لهاميم العرب والسنام الأعظم وعمار الليل بتلاوة القرآن وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون فلولا قتالكم بعد إدباركم وكركم بعد إعيازكم وجب عليكم ما وجب على المولى يوم الزحف وكنتم فيما أرى من الهالكين.

ولقد هون علي بعض وجدي وشفى بعض لاعج نفسي أن رأيتمكم بأخرة خرتموهم كما حازوكم فأزلموهم عن مصافهم كما أزالوكم تحسّونهم بالسيف يركب أولهم آخرهم كالإبل المطرودة الهيم فالآن فاصبروا نزلت عليكم السكينة وثبتكم اليقين.

وليعلم المنهزم أنه مسخط ربه وموبق نفسه وفي الفرار موجدة الله عليه والذل لازم عليه ومفسدة العيش عليه وإن الفار لا يزيد الفرار في عمره ولا يرضي ربه لموت الرجل محققاً قبل إتيان هذه الخصال خير من الرضا بالتلبيس بها والإصرار عليها^(٢). فلما انقضى هذا اليوم بما فيه أصبحوا في اليوم الثاني والفيلقان متقابلان فخرج رجل من أهل الشام فسأل المبارزة فخرج إليه رجل من أهل العراق فاقتتلا قتالاً شديداً ثم إن العراقي اعتنقه فوقعا جميعاً وعاد الفرسان ثم إن العراقي قهره فجلس على صدره وكشف المغفر عنه يريد أن يذبحه فإذا هو أخوه لأبيه فصاح به أصحاب علي عليه السلام ويحك أجهز عليه قال: إنه أخي قالوا: فاتركه قال: لا والله حتى يأذن أمير المؤمنين فأخبر علي عليه السلام بذلك فأرسل إليه أن دعه فتركه وعاد إلى صف معاوية.

(١) البحار: ٣٢، ٤٧٠.

(٢) البحار: ٣٢/٤٧٢.

وحمل أبو كعب الخثعمي رأس خثعم العراق على خثعم الشام واقتتلوا أشد قتال فجعل أبو كعب يقول لأصحابه: يا معشر خثعم خذموا أي اضربوا الخدمة^(١) وهي الخلخال، فحمل شمر بن عبد الله على أبي كعب فطعنه فقتله ثم انصرف يبكي ويقول: رحمك الله أبا كعب لقد قتلتك في طاعة قوم أنت آمن إليّ رحماً وأحب إليّ منهم نفساً ولكني والله لا أدري ما أقول ولا أرى الشيطان إلا قد فتننا ولا أرى قريشاً إلا قد لعبت بنا فوثب كعب بن أبي كعب إلى راية أبيه فأخذها ففقت عينه وصرع ثم أخذها شريح بن مالك فقاتل القوم تحتها حتى صرع منهم حول رايتهم نحو ثمانين رجلاً وأصيب من خثعم الشام مثل ذلك ثم ردها شريح إلى كعب بن أبي كعب.

وكانت راية بجيلة مع أهل العراق في أحمر مع أبي شذاد فقالت له بجيلة خذ رايتنا قال: غيري خير لكم مني، قالوا: لا نريد غيرك، قال: فوالله لئن أعطيتها لا أنتهي بكم دون صاحب الترس المذهب الذي هو قائم على رأس معاوية يستره من الشمس فقالوا اصنع ما شئت فأخذها ثم زحف بها وهم حوله يضربون الناس بأسيا فمهم حتى انتهى إلى صاحب الترس المذهب وهو في خيل عظيمة من أصحاب معاوية فاقتتل الناس هناك قتالاً شديداً، وشذ أبو شذاد بسيفه نحو صاحب الترس فتعرض له رومي فضرب قدم أبي شذاد فقطعها وضرب أبو شذاد ذلك الرومي فقتله فأشرعت إليه الأسنة فقتل.

فأخذ الراية عبد الله بن قلع الأحمسي وقاتل حتى قتل فأخذها أخوه عبد الرحمن فقاتل حتى قتل ثم أخذها عفيف بن أياس فلم يزل بيده حتى تحاجز الناس فحمل غطفان العراق على غطفان الشام وقتل منهما كثير وكذا أزد العراق على أزد الشام وكذا كل قبيلة على من يباينهم. وحارب همدان وطى والنخع وقطعت رجل علقمة بن قيس النخعي وقتل أخوه ابن أبي قيس فكان علقمة يقول: ما أحب أن رجلي أصح ما كانت لما أرجوه بها من الثواب.

وقام أصحابه عليهم السلام فقالوا: يا أمير المؤمنين انهض بنا إلى عدونا وعدوك إذا شئت فوالله ما نريد بك بدلاً بل نموت معك ونحيا معك.

وخطب عبد الله بن عباس وقال بعد الحمد والثناء والشهادة بالتوحيد

(١) خذموا الخدمة: أي اضربوا الخلخال أي اضربوهم في سوقهم.

والرسالة: وقد ساقنا قدر الله إلى ما ترون حتى كان ممّا اضطرب من حبل هذه الأمة وانتشر من أمرها أن معاوية بن أبي سفيان وجد من طغام الناس أعواناً على ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأول ذكر صلتى معه بدري قد شهد مع رسول الله ﷺ كلّ مشاهدته التي منها الفضل ومعاوية مشرك يعبد الأصنام والذي ملك الملك وحده وبان به وكان أهله لقد كان علي بن أبي طالب مع رسول الله ﷺ وهو يقول: «صدق الله ورسوله» ومعاوية يقول: «كذب الله ورسوله».

فعليكم بتقوى الله والجّد والحزم والصبر والله إنكم لعلّى حقّ وإنّ القوم لعلّى باطل فلا يكونن أولى بالجدّ على باطلهم منكم في حقكم وأنا لنعلم أن سيعذبهم الله بأيديكم أو بأيدي غيركم.

اللهم أعنا ولا تخذلنا وانصرنا على عدونا ولا تخلّ عنا وافتح بيننا وبين قوماً بالحقّ وأنت خير الفاتحين.

ثمّ قام عمار بن ياسر رضوان الله عليه وقال:

انهضوا معي عباد الله إلى قوم يزعمون أنّهم يطلبون بدم الظالم لنفسه الحاكم على عباد الله بغير ما في كتاب الله إنّما قتله الضالّحون المنكرون للعدوان الأمرون بالإحسان فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم لو درس هذا الذين لم قتلتموه؟ فقلنا: لأحدائه فقالوا: إنه لم يحدث شيئاً وذلك لأنّه مكّنهم من الدنيا منهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون لو انهذت عليهم الجبال والله ما أظنهم يطلبون بدمه إنّهم ليعلمون أنّه لظالم ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبّوها واستمرّوها وعلموا أنّ صاحب الحقّ لزمهم لحال بينهم وبين ما يأكلون ويرعون فيه منها.

ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقّون بها الطاعة والولاية فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل إمامنا مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً تلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون ولولاها ما بايعهم من الناس رجلان.

اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت وإن تجعل لهم الأمر فادّخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم.

ثمّ مضى ومضى معه أصحابه فدنا من عمرو بن العاص فقال: يا عمرو بعث دينك بمصر فتبّاً لك فطال ما بغيت الإسلام عوجاً.

ثم قال: اللهم إني أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت.

اللهم إني أعلم أن رضاك في أن أضع طبة سيفي في بطني ثم أغني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت.

اللهم إني أعلم مما أعلمتني أني لا أعمل عملاً اليوم هو أرضي لك من جهاد هؤلاء القاسطين، ولو أعلم اليوم عملاً هو أرضي لك منه لفعلته^(١).

(١) راجع تاريخ الطبري: ٣٨/٥ ط بيروت وكتاب صفين: ٣١٩/٣.

رؤية عمار بن ياسر

عن أسماء بن حكيم الفزاري قال: كنا بصفين مع عليّ تحت راية عمار بن ياسر ارتفاع الضحى وقد استظللنا ببرد أحمر إذ أقبل رجل فقال: أيكم عمار بن ياسر؟ فقال: أنا عمار. قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قال: إن لي إليك حاجة فانطق بها سرّاً أو علانية؟ قال: اختر لنفسك أيهما شئت، قال: لا بل علانية قال: فانطق، قال: إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم وإنهم على الباطل فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى ليأتي هذه فإني رأيت في مقامي هذا تقدّم منادينا فقام وأذن وشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ونادى بالصلاة والفلاح ونادى مناديهم بمثل ذلك ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة وتلونا كتاباً واحداً ودعونا دعوة واحدة ورسولنا واحد فأدركني الشك في ليأتي هذه فبت بليلة لا يعلمها إلا الله حتى أصبحت فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر؟ قلت: لا، قال: فالفقه فانظر ما يقول لك فاتبعه، فجئت لك فقال عمار: تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي وأومىء إلى راية عمرو بن العاص - قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرّات وهذه الرابعة فما هي بخيرهنّ ولا أبرهنّ بل هي شرهنّ وأفجرهنّ أشهدت بدرّاً وأحداً ويوم حنين أو شهدا أب لك فيخبرها لك؟ قال: لا. قال: فإنّ مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين وإنّ مراكز هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب فهل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ والله لوددت أنّ جميع من أقبل فيه مع معاوية ممّن يريد قتالنا مفارقاً للذي نحن عليه كانوا خلقاً واحداً قطعته وذبحته والله لدمائهم جميعاً أحلّ من دم عصفور أترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا بل حلال، قال: فإنهم حلال كذلك أتراني بينت؟ قال: قد بينت قال: اختر أيّ ذلك أحبيت.

فانصرف الرجل فدعاه عمار ثم قال: سيضربونكم بأسيا فهم حتى يرتاب

المبطلون منكم فيقولوا: لو لم يكونوا على حق ما أظهروا علينا والله ما هم من الحق على ما يقضي عين ذباب والله لو ضربونا بأسيا فهم حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل وأيم الله لا يكون سَلماً سالماً أبداً حتى يبيء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق وأن قتلاهم في الجنة وموتاهم ولا ينصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم في الجنة وأن موتى أعدائهم وقتلاهم في النار وكان أحيائهم على الباطل^(١).

(١) صفين: ٣/ ص ٣٢١ ط مصر.

مقتل عمار بن ياسر

وصفت الخيول بعضها لبعض وزحف الناس وعلى عمار درع بيضاء وهو يقول: أيتها الناس الزواح إلى الجنة فاقتل الناس قتلاً شديداً لم يسمع الناس بمثله وكثرت القتلى حتى إن كان الرجل ليشدُّ طنب فسطاطه بيد الرجل أو برجله فقال الأشعث لقد رأيت أخبية فلسطين وأروقتهم وما منها خباء ولا رواق ولا بناء ولا فسطاط إلا مربوطاً بيد رجل أو رجله وجعل أبو سماك الأسدي يأخذ إداة من ماء وشفرة حديد فإذا رأى رجلاً جريحاً وبه رمق أقعده فيقول: من أمير المؤمنين؟ فإن قال علي غسل عنه الدّم وسقاه من الماء وإن سكّت وجاء بالسكين حتى يموت.

وقال الأحنف بن قيس والله إني لألئ جانب عمار بن ياسر بيني وبينه رجل من بني الشعيرة فتقدّمتنا حتى إذا دنونا من هاشم بن عتبة قال له عمار: احمل فداك أبي وأمي ونظر عمار إلى رقة في الميمنة فقال له هاشم: رحمك الله يا عمار إنك رجل تأخذك خفة في الحرب وإني أزحف باللّواء زحفاً وأرجو أن أنال بذلك حاجتي وإني إن خففت لم آمن الهلكة وقد كان قال معاوية لعمر بن عبد الله بن عتبة مع هاشم بن عتبة وقد كان من قبل يُرقل به إرقالاً وإنه إن زحف به اليوم زحفاً إنه لليوم الأطول لأهل الشام وإن زحف في عنق من أصحابه إني لأطمع أن تقطع فلم يزل به عمار حتى حمل فبصر به معاوية فوجه إليه حماة أصحابه ومن يُزّن بالبأس والنجدة منهم في ناحيته وكان في ذلك الجمع عبد الله بن عمرو بن العاص ومعه يومئذ سيفان قد تقلد أحداً وهو يضرب بالآخر وأطافت به خيل علي فقال عمرو بالله يا رحمن ابني ابني ويقول معاوية صبراً صبراً فإنه لا بأس عليه قال عمرو: ولو كان يزيد بن معاوية إذاً لصبرت ولم يزل حماة أهل الشام يذبّون عنه حتى نجا هارباً، على فرسه ومن معه وأصيب هاشم في المعركة.

وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر وكان يخاطب القوم:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهب الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

ثم استسقى وقد اشتدّ ظمؤه فأعطى ضياح من لبن فقال حين شرب: الجنة
تحت الأستة، اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه^(١).
رحم الله عمار بن ياسر.

(١) كتاب صفين: ٣/٣٢٩.

مع هاشم المرقال والفتى الغساني

دعا المرقال الناس عند الماء: «ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فليقبل» فأقبل إليه ناس فشذ في عصابة من أصحابه على أهل الشام مراراً فليس من وجه يحمل عليه إلا صبروا له وقوتل فيه قتالاً شديداً فقال لأصحابه: لا يهولتكم ما ترون من صبرهم فوالله ما ترون منهم إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها وأنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا وامشوا بنا إلى عدونا على تودة رويداً ثم تأسوا وتصابروا واذكروا الله ولا يسلم رجل أخاه ولا تكثروا الالتفات واصمدوا صمدهم وجالدوهم محتسبين حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

فمضى في عصابة من القرءاء فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابه وخرج عليهم فتى شاب يقول:

أنا ابن أرباب الملوك غسان والدائن اليوم بدين غسان
أنبأنا أقوامنا بما كان أن علينا قتل ابن عفان

ثم شذ فلا ينثني يضرب بسيفه ثم جعل يلعن علياً ويشتمه ويسهب في ذمه فقال له هاشم بن عتبة: إن هذا الكلام بعده الخصام وإن هذا القتال بعده الحساب فاتق الله فإنك راجع إلى ربك فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به، قال: فإنني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي كما ذكر لي وأنكم لا تصلون وأقاتلكم لأن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم وازرتموه على قتله فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان؟ إنما قتله أصحاب محمد وقرءاء الناس حين أحدث أحداثاً وخالف حكم الكتاب وأصحاب محمد هم أصحاب الدين وأولي النظر في أمور المسلمين وما أظن أن أمر هذه الأمة ولا أمر هذا الدين عنك طرفة عين قط.

قال الفتى: أجل أجل والله لا أكذب فإن الكذب يضر ولا ينفع ويشين ولا يزين.

فقال له هاشم: إن هذا الأمر لا علم لك به فخلّه وأهل العلم به.

قال: أظنك والله قد نصحتني.

وقال له هاشم: وأما قولك إن صاحبنا لا يصلّي فهو أول من صلّى مع رسول الله ﷺ وأفقهه في دين الله وأولاء برسول الله وأما من ترى معه فكلّهم قارئ الكتاب لا ينامون الليل تهجداً فلا يغرك عن دينك الأشقياء المغرورون.

قال الفتى: يا عبد الله إني لأظنك امرأً صالحاً وأظنني مخطئاً آثماً أخبرني هل تجد لي من توبة؟

قال: نعم تب إلى الله يتب عليك، فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين.

فذهب الفتى بين الناس راجعاً، فقال له رجل من أهل الشام خدعك العراقي! قال: لا ولكن نصحتني العراقي.

وقاتل هاشم هو وأصحابه قتالاً شديداً حتى أتت كتيبة لتنوخ فشذّوا على الناس فقاتلهم وهو يقول:

أعور يبغي أهله مَحَلًّا لا بد أن يَفُـلَّ أو يُفَلَّا
قد عالج الحياة حتّى ملأ

حتى قتل تسعة نفر أو عشرة وحمل عليه الحارث بن المنذر التنوخي فطعنه فسقط وبعث إليه عليّ: أن قدّم لواءك فقال للرسول: انظر إلى بطني فإذا هو قد انشق فأخذ الرّاية رجل من بكر بن وائل ورفع هاشم رأسه فإذا هو بعبيد الله بن عمر بن الخطاب قتيلاً إلى جانبه فحبا حتى دنا منه فعضّ على ثديه حتى نبت فيه أنيابه ثمّ مات هاشم وهو على صدر عبيد الله بن عمر. وضرب البكري فوق فرج رأسه فأبصر عبيد الله بن عمر قريباً منه فحبا إليه حتى عضّ على ثديه الآخر حتى نبت أنيابه فيه ومات أيضاً فوجدا جميعاً على صدر عبيد الله بن عمر هاشم والبكري قد ماتا جميعاً ولما قتل هاشم جزع الناس عليه جزعاً شديداً وأصيب معه عصابة من أسلم من القرّاء فمّر عليهم عليّ وهم قتلن حول أصحابه الذين قتلوا معه فقال:

جزى الله خيراً عصابة أسلمية
يزيد وعبد الله بشر ومعبود
صباح الوجوه صرّعوا حول هاشم
وسفيان وابنا هاشم ذي المكارم

وعروة لا يبعد ثناه وذكره إذا اختُرِطت يوماً خفاف الصوارم

ثم قال عبد الله بن هاشم وأخذ الراية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذين قدر أرزاقهم وكتب آثارهم وأحصى أعمالهم وقضى آجالهم فدعاه ربه الذي لا يعصى فأجابه وسلم الأمر لله وجاهد في طاعة ابن عم رسول الله ﷺ وأول من آمن به وأفقههم في دين الله المخالف لأعداء الله المستحلين ما حرّم الله الذين عملوا في البلاد بالجور والفساد واستحوذ عليهم الشيطان فزيتن لهم الاثم والعدوان فحق عليكم جهاد من خالف سنة رسول الله ﷺ وعطل حدود الله وخالف أولياء الله فجودوا في مهج أنفسكم في طاعة الله في هذه الدنيا تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى والملك الذي لا يبلى فلو لم يكن ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار لكان القتال مع علي أفضل من القتال مع معاوية ابن أكلة الأكباد فكيف وأنتم ترجون ما ترجون^(١) .

(١) كتاب صفين : ٣/٣٥٣ .

أيام حاسمة

ثُمَّ إِنَّ عَلِيّاً عليه السلام قَامَ بَيْنَ الصَّفِينِ وَنَادَى: يَا مُعَاوِيَةَ يَكْزُرُهَا فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: سَلُوهُ مَا شَأْنُهُ؟ قَالَ: أَحَبُّ أَنْ يَظْهَرَ لِي فَأُكَلِّمَهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَبَرَزَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ وَمَعَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فَلَمَّا قَارَبَاهُ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى عَمْرُو وَقَالَ لِمُعَاوِيَةَ: وَيْحَكَ عَلَامَ تَقْتُلِ النَّاسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً أُبْرَزَ إِلَيَّ فَأَيْنَا قَتَلَ فَلَا أَمْرَ إِلَيَّ صَاحِبِهِ فَالْتَفَتَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَمْرُو فَقَالَ: مَا تَرَى يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: قَدْ أَنْصَفَكَ الرَّجُلُ فَاعْلَمْ إِنَّكَ إِنْ نَكَلْتَ عَنْهُ لَمْ تَزَلْ سَبَّةً عَلَيْكَ وَعَلَى عَقْبِكَ مَا بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ عَرَبِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: يَا ابْنَ الْعَاصِ لَيْسَ مِثْلِي يَخْدَعُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهِ مَا بَارَزَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ شَجَاعَ إِلَّا وَسَقَى الْأَرْضَ بَدَمِهِ ثُمَّ انْصَرَفَ مُعَاوِيَةُ رَاجِعاً حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِ الصَّفُوفِ وَعَمْرُو مَعَهُ فَلَمَّا رَأَى عَلِيّاً عليه السلام ذَلِكَ ضَحَكَ وَعَادَ إِلَى مَوْقِفِهِ.

ثُمَّ ذَهَبَ هَذَا الْيَوْمَ بِمَا فِيهِ فَأَصْبَحُوا مِنَ الْيَوْمِ التَّاسِعِ مِنْ صَفَرٍ وَقَدْ خَطَبَ مُعَاوِيَةُ أَهْلَ الشَّامِ وَحَرَّضَهُمْ فَحَمَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ وَقَرَّاءُ أَهْلَ الشَّامِ وَمَعَهُ ذُو الْكَلَّاعِ فِي حَمِيرٍ عَلَى رِبْعَةٍ فِي مِيسِرَةٍ عَلِيّاً عليه السلام فَقَاتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً.

فَأَتَى زِيَادُ بْنُ خَصْفَةَ إِلَى عَبْدِ الْقَيْسِ فَقَالَ: لَا يَكُونَنَّ وَائِلٌ بَعْدَ الْيَوْمِ إِنَّ ذَا الْكَلَّاعِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو قَدْ أَبَادَا رِبْعَةَ فَانْهَضُوا لَهُمْ وَإِلَّا هَلَكْتَ فَرَكِبْتَ عَبْدِ الْقَيْسِ وَجَاءَتْ كَأَنَّهَا غَمَامَةٌ سَوْدَاءَ فَشَدَّتْ أَزْرَ الْمِيسِرَةِ وَعَظُمَ الْقِتَالُ فَقَتَلَ ذُو الْكَلَّاعِ قَتْلَهُ رَجُلٌ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ اسْمُهُ خَنْدَفٌ وَتَضَعُضَتْ أَرْكَانُ حَمِيرٍ وَثَبَتَتْ بَعْدَ ذِي الْكَلَّاعِ تَحَارَبَ مَعَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو.

فَأَرْسَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً فَالْقَنِي فَلَقِيَهُ الْحَسَنُ عليه السلام فَقَالَ لَهُ عُبَيْدُ اللَّهِ: إِنَّ أَبَاكَ قَدْ وَتَرَ قَرِيشاً أَوَّلاً وَآخِراً وَقَدْ شَنَنَهُ النَّاسُ فَهَلْ لَكَ فِي خَلْعِهِ وَأَنْ تَتَوَلَّى أَنْتَ هَذَا الْأَمْرَ فَقَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ مَقْتُولاً فِي يَوْمِكَ أَوْ فِي غَدِكَ

أما إنَّ الشيطان قد زَينَ لك وخدعك حتَّى أخرجك مخلَقاً بالخلوق تري نساء أهل الشام موقفك وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلاً.

فما كان إلا بياض النهار حتَّى قتل عبيد الله وهو في كتيبة رقطاع وكانت تدعى الخضرية كانوا أربعة آلاف عليهم ثياب خضر فمز الحسن فإذا رجل متوسد رجل قتيل وقد ركز رمحه في عينه وربط فرسه برجله فقال الحسن لمن معه: انظروا إلى هذا وإذا رجل من همدان وإذا القتيل عبيد الله بن عمر قد قتله الهمداني في أول الليل وبات عليه حتَّى أصبح وحمل ذو الكلاع في ذلك اليوم بالفيلق العظيم من حمير على صفوف العراق ناداهم أبو شجاع الحميري تبّت أيديكم أترون معاوية خيراً من عليّ أسد الله أضلّ الله سعيكم ثم أنت يا ذا الكلاع قد كنّا نرى أنّ لك نية في الدّين فقال ذو الكلاع أيها يا أبا شجاع والله ما معاوية بأفضل من عليّ ولكنتي أقاتل عن دم عثمان فأصيب ذو الكلاع حينئذ قتلته خندف البكري في المعركة.

وقال معاوية لما قتل ذو الكلاع: لأنّا أشدّ فرحاً بقتل ذي الكلاع منّي بفتح مصر لو فتحتها لأنّ ذا الكلاع كان يحجر عليّ معاوية في أشياء كان يأمر بها.

وبعد مقتله اشتدّت الحرب وشدّ عكّ ولخم وجذام والأشعريون من أهل الشام على مذحج من أهل العراق.

فضيحة ابن العاص

مرّ عمرو بن العاص بالبحارث بن نصر الجُشمي وكان عدوًّا لعمرو وكان عمرو قلماً يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحرب فقال الحارث في ذلك :

ليس عمرو بتارك ذكره الحرب مدى الدهر أو يلاقي علياً
واضع السيف فوق منكبه الأيمن لا يحسب الفوارس شيئاً
ليت عمراً يلقاه في حمس النقع وقد صارت السُّيوف عصياً^(١)
حيث يدعو البراز حامية القوم إذا كانوا بالبراز ملئاً
فوق شهب مثل السَّحوق من النخل ينادي المبارزين إلّياً^(٢)

ثمّ يا عمرو تستريح من الفخر وتلتقي به فتى هاشمياً
فألقه إن أرذت مكسرة الدهر أو السموت كلّ ذاك علياً
فلما سمع عمرو شعره قال : والله لو علمت أنّي أموت ألف موته لبارزت علياً في أول ما ألقاه فلما بارزه طعنه علي فصرعه ، وأثّاه عمرو بعورته فانصرف علي عنه .

وقال علي حين بدت له عورة عمرو فصرف وجهه عنه :

ضربي ثبي الأبطال في المشاغب ضرب الغلام البطل الملاعب^(٣)
أي الضراب في العجاج الثائب حين احمرار الحَدَق الثواقب
بالسيف في تهته الكتائب والصبر فيه الحمد للعواقب^(٤)

(١) حمس النقع : شدته ، والنقع : الغبار .

(٢) السحوق من النخل : الطويلة .

(٣) الشبة : الجماعة والعصبة من الفرسان ، وثبي : هي ثبين جمع ثبة من الجمع الملحق بالسالم كعزير وعضير وحذفت النون للإضافة .

(٤) كتاب صفين : ٤٢٣/٤ .

الغلام الأسدي العكبر بن جدير

وكان فارس أهل الكوفة الذي لا ينازع، وكان فارس أهل الشام الذي لا ينازع عوف بن مَجْزَأَة المكنى أبا أحمر وهو أبو الذي استنقذ الحجاج بن يوسف يوم صرع في المسجد بمُلة. وكان العكبر له عبادة ولسان لا يطاق. فقام إلى عليّ عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إن في أيدينا عهداً من الله لا نحتاج فيه إلى الناس وقد ظننا بأهل الشام الضبر وظنوه بنا فصبرنا وصبروا. وقد عجبت من صبر أهل الدنيا لأهل الآخرة وصبر أهل الحق على أهل الباطل ورغبة أهل الدنيا ثم نظرت فإذا أعجب ما يعجبني جهلي بآية من كتاب الله: ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وأثنى عليه عليّ عليه السلام خيراً.

وخرج الناس إلى مصافهم وخرج عوف بن مَجْزَأَة نادراً من الناس وكذلك كان يصنع وقد كان قتل قبل ذلك نقرأ من أهل العراق مبارزة فتنادى: يا أهل العراق هل من رجل عصاه سيفه يبارزني ولا أغركم من نفسي فأنا فارس زوف^(١) فصاح الناس بالعكبر فخرج إليه منقطعاً من أصحابه والناس وقوف ووقف عوف وهو يقول:

بالشام أمن ليس فيه خوف	بالشام عدل ليس فيه حيف
بالشام جود ليس فيه سوق	أنا المراتي ورهطي زوف
أنا ابن مَجْزَأَة واسمي عوف	هل من عراقي عصاه سيف
يبرز لي وكيف لي وكيف	

فبرز إليه العكبر وهو يقول:

(١) زوف: بفتح الزاي: أبو قبيلة وهو زوف بن زاهر بن عامر بن عويثان.

الشام مَخلٌ والعراق تُمَطَّرُ بها الإمام والإمام معذر^(١)
والشام فيها للإمام مُغَوَّر أنا العراقي واسمي العكبر
ابن جدير وأبوه المنذر ادن فأني للكمي مصحر^(٢)

فأطعنا فصرعه العكبر فقتله ومعاوية على التلّ في أناس من قریش ونفر من
الناس قليل فوجّه العكبر فرسه فملاً فروجه ركضاً يضربه بالسوط مسرعاً نحو التلّ
فنظر إليه معاوية فقال: إنّ هذا الرجل مغلوب على عقله أو مستأمن فاسأله فأتاه
رجل وهو في حَمِي فرسه فناده فلم يجبه فمضى مبادراً حتّى انتهى إلى معاوية
وجعل يطعن في أعراض الخيل ورجا العكبر أن يفردوا له معاوية فقتل رجلاً وقام
القوم دون معاوية بالسيوف والزّماح فلمّا لم يصل إلى معاوية نادى: أولى لك يا
ابن هند أنا الغلام الأسدي فرجع إلى عليّ فقال له: ماذا دعاك إلى ما صنعت يا
عكبر؟ لا تلق نفسك إلى التهلكة.

قال: أردت غيرة ابن هند.

وانكسر أهل الشام لقتل عوف وهدر معاوية دم العكبر فقال العكبر: يد الله
فوق يد معاوية فأين دفاع الله عن المؤمنين^(٣).

(١) المعذر: المنصف.

(٢) الكمي: الشجاع.

(٣) كتاب صفين: ٤/٤٥٠.

مصرع عبد الله بن كعب

مر الأسود بن قيس بعبد الله بن كعب وهو بأخر رمق فقال: عز عليّ والله مصرعك أما والله لو شهدتك لأسيتك ولدافعت عنك ولو رأيت الذي أشعرك لأحببت ألا يزايطني حتى أقتله أو يلحقني بك ثم نزل إليه فقال رحمك الله يا عبد الله وإن كان جارك ليأمن بوائقك وإن كنت لمن الذاكرين الله كثيراً أوصني رحمك الله قال: أوصيك بتقوى الله وأن تناصح أمير المؤمنين وأن تقاتل معه المحلّين حتى يظهر الحق أو تلحق بالله وأبلغه عتي السلام وقل له: قاتل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك فإنه من أصبح والمعركة خلف ظهره كان الغالب. ثم لم يلبث أن مات فأقبل الأسود إلى عليّ عليه السلام فأخبره فقال: رحمه الله جاهد معنا عدونا في الحياة ونصح لنا في الوفاة^(١).

(١) كتاب صفين: ٤٥٧/٤.

رأي سرّ به عليّ عليه السلام

قام أبرهة بن الصّباح بن أبرهة الحميريّ فقال: ويلكم يا معشر أهل اليمن والله إني لأظنّ أن قد أذن بشنائكم ويحكم خلّوا بين هذين الرجلين فليقتلا فأتيهما قتل صاحبه ملنا معه جميعاً وكان أبرهة من رؤساء أصحاب معاوية فبلغ ذلك عليّاً فقال: صدق أبرهة بن الصّباح والله ما سمعت بخطبة منذ وردت الشام أنا بها أشدّ سروراً مني بهذه وبلغ معاوية كلام أبرهة فتأخّر آخر الضّفوف وقال لمن حوله إني لأظنّ أبرهة مصاباً في عقله فأقبل أهل الشام يقولون: والله إنّ أبرهة لأفضلنا ديناً ورأياً وبأساً ولكن معاوية كره مبارزة عليّ فقال أبرهة في ذلك:

لقد قال ابن أبرهة مقالاً	وخالفه معاوية بن حرب
لأنّ الحقّ أوضح من غرور	ملبسة غرائضه بحقّب
رمي بالفيلقين به جهاراً	وأنتم ولد قحطان بحرب
فخلّوا عنهما ليثي عراك	فإنّ الحقّ يرفع كلّ كذب
وما إنّ يعتصم يوماً بقول	ذو الأرحام إنهم لصحبي
وكم بين المنادي من بعيد	ومن يغشى الحروب بكلّ غضب
ومن يرد البقاء ومن يلاقي	بأسماح الطّعان وصفح ضرب
أيهجرن معاوية بن حرب	وما هجرانه سُخطاً لرّبي
وعمرو أن يفارقني بقول	فإنّ ذراعه بالسفدر رحب
وإني إن أفارقهم بديني	لفي سعة إلى شرق وغرب

وبرز يومئذ عروة بن داود الدّمشقي فقال: إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلّم إليّ. فتقدّم إليه عليّ فقال له أصحابه: ذر هذا الكلب فإنّه ليس بخَطَر فقال والله ما معاوية اليوم بأغيظ لي منه. دعوني وإياه، ثمّ حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين سقطت إحداهما يمّة والأخرى يسرة فارتج العسكران لهول الضربة ثمّ

قال: اذهب يا عروة فأخبر قومك أما والذي بعث محمداً بالحق لقد عانيت النار وأصبحت من النادمين^(١).

(١) كتاب صفين: ٤/٤٥٧.

ليلة الهرير

ولمّا أصبحوا في اليوم العاشر أصبحوا وربّعة محدقة بعليّ عليه السلام إحداق بياض العين بسوادها فصاح عتاب بن لقيط: يا معشر ربّعة حاموا عن عليّ منذ اليوم فإن أصيب فيكم افتضحتم ألا ترونه قائماً تحت راياتكم.

وقال لهم شقيق بن ثور: يا معشر ربّعة ليس لكم عذر عند العرب إن أصيب عليّ وفيكم رجل حيّ فامنعوه اليوم واصدقوا عدوكم اللقاء.

فتعاهدت ربّعة وتحالفت بالأيمان العظيمة وتبايع منهم سبعة آلاف على أن لا ينظر رجل خلفه حتّى يردوا سرادق معاوية فقاتلوا ذلك اليوم قتالاً شديداً لم يكن قبله مثله وأقبلوا نحو سرادق معاوية فلمّا نظر إليهم قد أقبلوا قال:

إذا قلت قد ولّت ربّعة أقبلت كتاب منها كالجبال تجالد

ثمّ قال لعمرؤ يا عمرو ما ترى؟ قال: أرى أن لا تحنث أخوالي اليوم فقام معاوية وخلاًّ لهم سرادقه ورحله وخرج فارّاً عنه لائذاً ببعض مضارب العسكر في أخريات الناس وانتهبت ربّعة سرادقه ورحله وبعث إلى خالد بن المعمر إنك قد ظفرت ولك إمرة خراسان إن لم تتمّ فقطع خالد القتال ولم يتمّه وقال لربّعة قد برّت أيمانكم فحسبكم فلمّا كان عام الجماعة ويابح الناس معاوية أمره معاوية عليّ خراسان وبعثه إليها فمات قبل أن يبلغها.

وصلّى عليّ عليه السلام بمن معه صلاة الغداة ثمّ زحف بهم فلمّا أبصروه استقبله أهل الشام بزحوفهم فاقتتلوا قتالاً شديداً ثمّ إن خيل الشام حملت على خيل العراق فاقتطعوا من أصحاب عليّ عليه السلام ألف رجل أو أكثر فأحاطوا بهم وحالوا بينهم وبين أصحابهم فلم يروهم فنادى عليّ عليه السلام ألا رجل يشري نفسه لله ويبيع دنياه بأخرته؟! فأتاه رجل من جعف يقال له عبد العزيز بن الحارث على فرس أدهم كأنه

غراب مقنعا في الحديد فقال يا أمير المؤمنين مرني بأمرك فقال عليّ عليه السلام :

سَمَحَتْ بِأَمْرِ لَا يَطَاقُ حَفِيزَةً وَصِدْقاً وَإِخْوَانِ الْحِفَافِ قَلِيلَ
جَزَاكَ إِلَهَ النَّاسِ خَيْراً فَقَدْ وَفَتْ يَدَاكَ بِفَضْلِ مَا هُنَاكَ جَزِيلَ

فقال عليه السلام يا أبا الحارث شدّ الله ركنك احمل عليّ أهل الشام حتّى تأتي أصحابك فتقول لهم: إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: هلّلوا وكبّروا من ناحيتكم ونهلّل ونكبّر من ناحيتنا واحملوا ونحمل عليهم فضرب الجعفي فرسه وقاتلهم حتّى خلص إلى أصحابه فلمّا رأوه استبشروا به وفرحوا وقالوا: ما فعل أمير المؤمنين؟ قال: صالح يقرئكم السلام ويقول: هلّلوا وكبّروا واحملوا حملة رجل واحد ونحمل من جانبنا ففعلوا ما أمرهم به وهلّلوا وكبّروا وهلّل عليّ وكبّر هو وأصحابه وحمل عليّ أهل الشام وحملوهم وخرج رجل من أهل الشام ونادى الصّفيين: يا أب الحسن يا عليّ أبرز إليّ فخرج إليه عليّ عليه السلام حتّى اختلفت أعناق دابّتهما بين الصّفيين فقال: إنّ لك يا عليّ لقدماً في الإسلام والهجرة فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء وتأخير هذه الحروب حتّى ترى رأيك؟ قال: وما هو؟ قال: ترجع إلى عراقك فتخلّي بينك وبين العراق ونرجع نحن إلى شامنا فتخلّي بيننا وبين الشام.

فقال عليّ عليه السلام قد عرفت ما عرضت إنّ هذه لنصيحة وشفقة ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله إنّ الله تعالى ذكره لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مدعنون لا يأمرّون بمعروف ولا ينهون عن منكر فوجدت القتال أهون عليّ من معالجة الأغلال في جهنّم.

فرجع الرجل وهو يسترجع وزحف الناس بعضهم إلى بعض فارتموا بالنبل والحجارة حتّى فנית ثمّ تطاعنوا بالرمّاح حتّى تكسّرت واندقت ثمّ مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيوف وعمد الحديد فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض لهو أشدّ هولاً في صدر الرّجال من الصّواعق ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً وانكسفت الشمس بالنّقع وثار القتام والقسطل فضلت الألوية والرّايات وأخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كلّ قبيلة أو كتيبة من الرّعاء بالإقدام على التي تليها فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة من

اليوم المذكور إلى نصف الليل لم يصلوا لله صلاة^(١) فلم يزل الأشتر يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره وافترقوا على سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة وهي ليلة الهرير وكان الأشتر في ميمنة الناس. وابن عباس في الميسرة، وعلي في القلب، والناس يقتتلون.

وكان علي عليه السلام يدعو وهو منفلت إلى القبلة في ذلك اليوم:

يا الله يا رحمن يا رحيم يا واحد يا أحد يا صمد يا الله يا إله محمّد، اللهم إليك نقلت الأقدام وأفضت القلوب ورفعت الأيدي وامتدت الأعناق وشخصت الأبصار وطلبت الحوائج اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا ﷺ وكثرة عدونا ونشئت أهوائنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين، سيروا على بركة الله ثم نادى لا إله إلا الله والله أكبر كلمة التقوى^(٢).

وخطب الأشعث بن قيس الكندي ليلة الهرير في أصحابه من كندة فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأستنصره وأستغفره وأستخيره وأشهد به فإنه من يهد الله فلا مضلّ له ومن يضلّل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي وما قد فني فيه من العرب فوالله لقد بلغت من السنّ ما شاء الله أن أبلغ فما رأيتم مثل هذا اليوم قطّ ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن نحن توافقنا غداً إنه لفناء العرب وضیعة الحرمات أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف ولكني رجل مسنّ أخاف على النساء والذراريّ غداً إذا فنيّا اللهم إنك تعلم أنني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آل وما توفّقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب والرأي يخطيء ويصيب وإذا قضى الله أمراً أمضاه على ما أحبّ العباد أو كرهوا أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

(١) في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال في صلاة الخوف عند المطاردة والمناوشة يصلي كل إنسان منهم بالإيماء حيث كان وجهه وإن كانت المسائفة والمعانقة وتلاحم القتال فإن أمير المؤمنين عليه السلام صلى ليلة صفين وهي ليلة الهرير لم تكن صلواتهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء عند كل وقت صلاة إلا التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد والدعاء فكانت تلك صلواتهم لم يأمرهم بإعادة الصلاة.

(٢) كتاب صفين: ٤٧٣/٤ بتصريف.

فانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث فقال أصاب ورب الكعبة لئن نحن
التقىنا غداً لتميلن الروم على ذراريّنا ونساننا ولتميلن أهل فارس على نساء أهل
العراق وذراريّهم وإنما يبصر هذا ذرو الأحلام والنهي. اربطوا المصاحف على
أطراف القنا.

فتار أهل الشام فنادوا في سواد الليل: يا أهل العراق من لذراريّنا إن قتلتمونا
ومن لذراريّكم إن قتلناكم؟ الله الله في البقية فأصبح أهل الشام وقد رفعوا
المصاحف على رؤوس الزّماح وقلّدوها الخيل^(١).

(١) راجع كتاب صفين: ٤/٤٨٠.

عليّ عليه السلام أمام الأمر الواقع

بعد أن طال أمد الحرب - حرب صفّين - فيها وكان الناس متعبين من حرب انقضت وهي حرب الجمل فيما خلفت أتعاباً وآلاماً بحيث اضطر بعض العامة من الناس حول عليّ عليه السلام إلى الجزع والتأوه وعدم الطاعة وهذا من شأنه أن يضعف روحية القتال فصار عليّ عليه السلام أمام هذا الأمر الواقع فدفعه في صدره وتأمّل في مبادرة إصدار قرار جديد بشأن الحرب لوجود فدائيين أرخصوا الدماء والأرواح من أجل الإطاحة بمعاوية وحزبه ونصرة عليّ عليه السلام وحزبه وإنّ الحرب بعد ضروس طاحنة وعليّ عليه السلام فيها يخطر خطوات مدروسة ووئيدة لاستئصال عدوّه لما ذكرنا من الوضع القائم في صفوف جيشه وما كان عليه من الوضع القائم في صفوف جيش معاوية حيث الطاعة والمبادرات التي تنبئ عن قناعة ثابتة عند الشاميين بضرورة قتال عليّ عليه السلام لكثرة ما بلغ معاوية وحزبه في إظهار مظلومية عثمان وأخذ الثأر لدمه المسفوك أضف إلى أن أهل الشام قد عُرِفوا من قديم بطاعتهم لأمرائهم والمشى وراء السلطة بدون نقاش أو مراقبة ومتابعة لما يعمل الحاكم بعكس ما كان عليه أهل العراق. وفي يوم أقبلت الكتائب بعضها نحو بعض فاقتلت قياماً على الركب لا يسمع السامعون إلّا وقع السيوف على البيض والدروع جاء عدي بن حاتم يلتمس عليّاً عليه السلام ما يطاق إلّا على إنسان ميت أو قدم أو ساعد فوجده تحت رايات بكر بن وائل فقال يا أمير المؤمنين ألا تقوم حتّى نموت؟ فقال عليه السلام: ادنُ فدنا حتّى وضع أذنه عند أنفه فقال: ويحك إنّ عامة من معي يعصيني وأنّ معاوية فيمن يطبعه ولا يعصيه^(١) هذا إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأساليب الملتوية التي كان يستخدمها معاوية في إظهار نفسه مظهر الكاره للحرب والمحافظة على حقن دماء المسلمين، والوضوح الذي كان عليه أمير المؤمنين عليه السلام

(١) شرح نهج البلاغة: ٨٤٤/٢ ط بيروت.

وأصحابه من أن معاوية والذين معه ما آمنوا وقد ارتدوا وسلكوا الطريق المعوج وعلى هذا فالحرب معهم أمر إلهي لا شك فيه وقتالهم عبادة من أهم العبادات، فأمام هذا الوضع المضطرب والمناوشات التي تعطيها العبائر المقبولة والتي تكمن في داخلها الخراب سيكون وكنتيجة طبيعية لأي طرح فيه صفة إسلامية مقبولة ويحكم الطرف المقابل إذا ما كان هذا الطرح يحمل بين طياته سلماً شاملاً. وبالفعل فقد حدث فقد قام الطفيل بن أوهم حيال عليّ عليه السلام وقام أبو شريح حيال الميمنة وورقاء بن المعتمر حيال الميسرة ثم نادوا يا معشر العرب الله الله في النساء والبنات والأبناء من الروم والأترار وأهل فارس غداً إذا فنيتم الله الله في دينكم هذا كتاب الله بيننا وبينكم فقال عليّ عليه السلام اللهم إني أعلم أنهم ما الكتاب يريدون فاحكم بيتنا وبينهم إني أنت الحكم الحق المبين.

فاختلف أصحاب عليّ عليه السلام في الرأي فطائفة قالت: القتال وطائفة قالت: المحاكمة إلى الكتاب ولا يحل لنا الحرب وقد دعينا إلى حكم الكتاب فعند ذلك بطلت الحرب ووضعت أوزارها^(١).

(١) راجع البحار: ٣٢، ٥٢٥.

طريقة رفع المصاحف والموقف الأخير

واستقبل أصحاب معاوية علياً بمائة مصحف ووضعوا على كل مُجنبة مائتي مصحف وكان جميعها خمسمائة مصحف، فاضطرب الناس وتوزعت آرائهم وارتدوا على أعقابهم فقام عليّ عليه السلام يوضح نفاق هذه الخطة وخبث هذه الطريقة وقال: أيها الناس إني أحق من أجاب إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وابن أبي سرح وابن مسلمة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إني أعرف بهم منكم، صحتهم صغاراً ورجالاً فكانوا شرّ صغار وشرّ رجال ويحكم إنها كلمة حق يراد بها باطل إنهم ما رفعوها وإنهم يعرفونها ولا يعملون بها ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة أعبروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يقطع دابر الظالمين فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي السلاح سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حُصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين قالوا: يا عليّ أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم.

فقال لهم عليّ عليه السلام: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعا إلى كتاب الله فلا أقبله إني إنما أقاتلهم ليدِينوا بحكم القرآن فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ونبذوا كتابه ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم وأنهم ليس العمل بالقرآن يريدون.

قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتيك - وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله، فأرسل إليه يزيد بن هانئ أن اتني فأتاه فأبلغه فقال الأشتر: آتية فقل له ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلي عن موقفي إني قد رجوت الفتح فلا تعاجلني فرجع يزيد إليه عليه السلام فأخبره فما هو إلا أن انتهى

إلى عليّ عليه السلام حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام فقال القوم لعليّ عليه السلام: ما نراك أمرته إلا بالقتال!! قال: أرأيتموني ساررت رسولي إليه؟ أليس إلا كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك فقال: ويحك يا يزيد قل له: اقبل إليّ فإنّ الفتنة قد وقعت فأتاه فأخبره فقال الأشتر: أرفع هذه المصاحف قال: نعم. قال: أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقة أنها مشورة ابن النابغة ثم قال ليزيد بن هانيء: ويحك ألا ترى إلى الفتح؟ ألا ترى إلى ما يلقون؟ ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا أينبغي أن ندع هذا ونصرف عنه؟ فقال له: يزيد أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين عليه السلام بمكانه الذي هو فيه يفرج عنه ويسلم إلى عدوه؟ فقال: سبحان الله لا والله لا أحب ذلك. قال: فإنهم قد قالوا له وحلفوا عليه: لترسلن الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيا فإنا كما قتلنا عثمان أو لنسلمنك إلى عدوك.

فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم فصاح: يا أهل الذلّ والوهن أحين علوتم القوم وظننوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا المصاحف، يدعونكم إلى ما فيها وقد والله تركوا ما أمر الله فيها وتركوا سنة من أنزلت عليه فلا تجيبوهم أمهلوني فواقاً فإنّي قد أحسست بالفتح قالوا: لا نمهلك، قال: فامهلوني عدوة الفرس فإنّي قد طمعت في النصر قالوا: إذا ندخل معك في خطيئتك. قال: فحدثوني عنكم وقد قتل أمثالكم وبقي أراذلكم حتى كنتم محقّقين؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام؟ فأنتم الآن حين أمسكنكم عن قتالهم مبطلون؟ أم أنتم الآن في إمساكنكم عن القتال محقّقون؟ فقتلكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم وأنهم خير منكم في النار قالوا: دعنا منك يا أشتر قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله إننا لسنا نطيعك فاجتنبنا. فقال: خدعتم والله فانخدعتم ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتكم يا أصحاب الجباه السود كذا نظنّ صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت ألا فقبحاً يا أشباه التيب الجلالة ما أنتم برائين بعدها عزّاً أبداً فأبعدوا كما بعد القوم الظالمون فسبوه وسبهم وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم وصاح بهم عليّ عليه السلام فكفوا.

وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين احمل الصف على الصف تصرع القوم فتصايحوا أن أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن، فقال الأشتر إن

كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي فقد رضيت بما يرضى به أمير المؤمنين فأقبل
الناس يقولون قد رضي أمير المؤمنين عليه السلام قد رضي أمير المؤمنين عليه السلام وهو
ساكت لا يفيض بكلمة طرق إلى الأرض ثم قام فسكت الناس كلهم فقال:

أيها الناس إن أمري لم يزل معكم على ما أحبب إلي أن أخذت منكم الحرب
وقد والله أخذت منكم وتركت وأخذت من عدوكم فلم تترك وإن فيهم أنكى
وأنهك ألا وإني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً وكنت ناهياً
فأصبحت منهيّاً وقد أحببتكم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون.

ثم قعد ثم تكلم رؤساء القبائل فكلّ قال ما يراه ويهواه إما من الحرب أو من
السلم^(١).

(١) راجع كتاب صفين: ٤٨٩/٤.

مواقف وآراء

جاء عدي بن حاتم فقال: يا أمير المؤمنين إنه لم تصب منا عصابة إلا وقد أصيب منهم مثلها وكلّ مقروح ولكنا أمثل بقيّة منهم وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحبّ فناجزهم.

وقام الأشتر فقال: يا أمير المؤمنين إنّ معاوية لا خلف له من رجاله ولك بحمد الله الخلف ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا نصرك فأقرع الحديد بالحديد واستعن بالله المجيد.

وقال عمرو بن الحمق: يا أمير المؤمنين إنا والله ما أجبناك ولا نصرناك على الباطل ولا أجبنا إلا الله ولا طلبنا إلا الحق ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه لاستشرى فيه اللجاج وطال فيه النجوى وقد بلغ الحق مقطعه وليس لنا معك رأي.

فقام الأشعث مغضباً فقال: يا أمير المؤمنين إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس وليس آخر أمرنا كأوله وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام منّي فأجب القوم إلى كتاب الله عزّ وجلّ فإنك أحنّ به منهم وقد أحبّ الناس البقاء وكرهوا القتال.

فقال عليّ عليه السلام: هذا أمر ينظر فيه ونادى الناس من كلّ جانب الموادة الموادة.

رسائل قبل اختيار الحكمين

كتب معاوية إلى عليّ عليه السلام : أما بعد إنّ هذا الأمر قد طال بيننا وبينك وكلّ منا يرى أنّه على الحقّ فيما يطلب من صاحبه ولن يعطي واحد منا الطاعة للآخر وقد قتل فيما بيننا بشر كثير وأنا أتخوّف أن يكون ما بقي أشدّ مما مضى وأنا سوف نسأل عن هذه المواطن ولا يحاسب به غيري وغيرك وقد دعوتك إلى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة وصلاح للأمة وحقن للدماء وذهاب للضغائن والفتن وأنّ تحكّم بيني وبينك حكمين مرضيين أحدهما من أصحابي والآخر من أصحابك فيحكمان بيننا بما أنزل الله فهو خير لي ولك واقطع لهذه الفتن فاتق الله فيما دعيت إليه وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله والسلام.

فكتب إليه عليّ عليه السلام :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان أمّا بعد: فإنّ أفضل ما شغل به المرء المسلم نفسه اتباع ما حسن به فعله واستوجب فضله وسلم من عيبه وإنّ البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه ويبديان من خلله عند من يغنيه ما استرعاه الله ما لا يغني عنه تدبيره.

فاحذر الدنيا فإنّه لا فرح في شيء وصلت إليه منها وقد علمت أنّك غير مدرك ما قضى فواته وقد رام قوم أمراً بغير الحقّ وتأوّلوه على الله جلّ وعزّ فأكذبهم ومتّعهم قليلاً ثمّ اضطرّهم إلى عذاب غليظ.

فاحذر يوماً يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ولم يحاذه وغرته الدنيا واطمئن إليها.

ثمّ إنّك قد دعوتني إلى حكم القرآن وقد علمت أنّك لست من أهل القرآن ولا حكمه تريد والمستعان الله فقد أجبنا القرآن إلى حكمه ولسنا إياك أجبنا نعم

فبيننا وبينك حكم القرآن ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضلّ ضلالاً بعيداً^(١).

فكتب معاوية إلى أمير المؤمنين عليه السلام أما بعد عافانا الله وإياك فقد آن لك أن تجيب إلى ما فيه صلاحنا وإلفة ما بيننا وقد فعلت الذي فعلت وأنا أعرف حقّي ولكنتي اشتريت بالعفو صلاح الأمة ولم أكثر فرحاً بشيء جاء ولا ذهب وإنما أدخلني في هذا الأمر القيام بالحق فيما بين الباغي والمبغى عليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوت إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك فإنه لا يجمعنا وإياكم إلا هو نحى ما أحيا القرآن ونميت ما أemat القرآن والإسلام.

وكتب علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص يعظه ويرشده:

أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها ولن يصيب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً يزيد فيه رغبة ولن يستغني صاحبها بما نال عما لم يبلغ ومن وراء ذلك فراق ما جمع والسعيد من وعظ بغيره فلا تحبط أبا عبد الله أجرك ولا تجار معاوية في باطله.

فكتب إليه عمرو بن العاص الجواب: أما بعد فالذي فيه صلاحنا والفتن الإنابة إلى الحق وقد جعلنا القرآن بيننا حكماً وأجبنا إليه فصبر الرجل منا نفسه على ما حكم عليه القرآن وعذره الناس بعد المحاجة والسلام^(٢).
فكتب إليه علي عليه السلام:

أما بعد: فإن الذي أعجبك من الدنيا ممّا نازعتك إليه نفسك ووثقت به منها لمنقلب عنك ومفارق لك فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غرارة ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقي وانتفعت منها بما وعظت به والسلام.

فأجابه عمرو: أما بعد فقد أنصف من جعل القرآن إماماً ودعا الناس إلى أحكامه فاصبر أبا حسن فإننا غير منيليك إلا ما أنالك القرآن^(٣).

ولمّا أن رضح الناس إلى تحكيم كتاب الله وبلغت بهم البلادة إلى حدّ لا يطيقون بعدها التفكير بمصلحة الأمة مصير الدين قام علي عليه السلام خطيباً فقال:

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل، وأشهد أن لا إله

(١) كتاب صفين: ٤٩٣.

(٢) كتاب صفين: ٤٩٧.

(٣) كتاب صفين: ٤٩٨.

إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري ونخلت^(١) لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر^(٢) فأيتتم علي إباء المخالفين الجفافة والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه وظن الزند بقدحه^(٣) فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن^(٤) .
أمرتكم أمري بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد^(٥)

(١) نخلت: أي أخلصت.

(٢) مثل يضرب لكل ناصح عصي.

(٣) الزند: العود الذي يقدح به النار.

(٤) هو الدريد بن الضمة.

(٥) نهج البلاغة: ٣٣ من المختار من خطبة.

اختيار الحكمين وبداية الفتنة

جاء الأشعث إلى علي عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ما أرى الناس إلا وقد رضوا
وسرّهم أن يجيئوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن فإن شئت أتيت معاوية فسألته
ما يريد ونظرت ما الذي يسأل؟ قال : ائته إن شئت فأناؤه فسأله : يا معاوية لأي شيء رفعتم
هذه المصاحف؟ قال : لئرجع نحن وأنتم إلى أمر الله به فيها فابعثوا رجلاً منكم ترضون به
ونبعث منا رجلاً ونأخذ عليهما أن يعملما بما في كتاب الله ولا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه
فقال الأشعث : هذا هو الحق وانصرف إلى علي عليه السلام فأخبره فبعث علي عليه السلام قراء
من أهل العراق وبعث معاوية قراء من أهل الشام فاجتمعوا بين الصّفين ومعهم المصحف
فنظروا فيه وتدارسوه واجتمعوا على أن يحيوا ما أحيا القرآن ويميتوا ما أمات القرآن ورجع
كل فريق إلى صاحبه فقال أهل الشام : إنا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص ، وقال
الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد : وقد رضينا نحن واخترنا أبا موسى
الأشعري ، فقال لهم علي عليه السلام فإني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه فقال
الأشعث وزيد بن حصين ومسعر بن فدكي في عصابة إنا لا نرضى إلا به فإنه قد كان
حذرنا ما وقعنا فيه ! فقال عليه السلام : فإنه ليس لي برضاً وقد فارقتني وخذل الناس عني
وهرب مني حتى أمنت بعد أشهر ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك ، قالوا : والله ما نبالي
أكنت أنت أو ابن عباس ولا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد
منكما أدنى من الآخر فقال علي عليه السلام فإني أجعل الأشر . فقال الأشعث : وهل سعر
الأرض علينا إلا الأشر وهل نحن إلا في حكم الأشر؟ قال علي عليه السلام وما حكمه؟
قال : حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد .

فقال علي عليه السلام قد أبيتم إلا أبا موسى؟ قالوا : نعم . قال : فاصنعوا ما
شئتم فبعثوا إلى أبي موسى وهو بأرض من أهل الشام يقال لها عرض^(١) قد اعتزل

(١) بلد بين تدمر ورسافة الشام .

القتال فأتاه موليت له فقال: إن الناس قد اصطلحوا قال: الحمد لله رب العالمين.
قال: وقد جعلوك حكماً. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون فجاء أبو موسى حتى
دخل عسكر علي عليه السلام.

وجاء الأشتر علياً عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين الزني^(١) بعمر بن العاص
فوالله الذي لا إله غيره لئن ملئت عيني منه لأقتله.

وجاء الأحنف بن قيس علياً عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد رميت
بحجر الأرض ومن حارب الله ورسوله أنف الإسلام وإني قد عجمت^(٢) هذا الرجل
يعني أبا موسى وجلبت أسطره فوجدته قليل الشفرة قريب القعر قليل المدية وإنه لا
يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يكون في أكفهم ويتباعد منهم حتى
يكون بمنزلة النجم منهم فإن شئت أن تجعلني حكماً فاجعلني وإن شئت أن
تجعلني ثانياً أو ثالثاً فإن عمرواً لا يعقد عقدة إلا عقدت لك أشد منها.

فعرض علي عليه السلام ذلك على الناس فأبوه وقالوا: لا يكون إلا أبو موسى.

وبعث أيمن بن حُزيم الأسدي وكان معتزلاً لمعاوية بأبيات تدل على أن
صلاحهم في اختيار ابن عباس وترك أبي موسى فطارت أهواء قوم من أولياء
علي عليه السلام وشيعته إلى ابن عباس وأبت القراء إلا أبا موسى.

فلما رضي أهل الشام بعمر بن العاص وأهل العراق بأبي موسى أخذوا في
سطر كتاب المودعة^(٣).

(١) أي الصقني به والزمني إياه.

(٢) ص ١١٧.

(٣) انظر صفين: ٤٩٨ بتصريف.

مجادلات في كتابة كتاب الصلح

بعد أن كتب الكتاب - كتاب الصلح بين الطرفين - برزت آراء الطرفين بشكل جريء وخاصة من جانب معاوية حيث بالغ في حقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرهه الأقوى في ساحة المفاوضات التي جرت إلى الصلح الظاهري الذي به حقنت دماء المسلمين وإن كانت مواصلة قتال معاوية كان الأجدر والأأنفع لصالح الإسلام. إلا أن الغبش الذي غطى العيون والصدأ الذي غلف قلوب البعض هو الذي اضطر علياً رضي الله عنه أن يركن إلى هذا النحو من المودعة وكان كتاب المودعة بما يلي.

هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان.

فقال معاوية: بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته! وقال عمرو: لا بل نكتب اسمه واسم أبيه إنما هو أميركم فأما أميرنا فلا.

فلما أعيد إليه الكتاب أمر بمحوه. فقال الأحنف: لا تمح اسم إمرة المؤمنين عنك فإني أتخوف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً فلا تمحها.

فقال علي رضي الله عنه: إن هذا اليوم كيوم الحديبية حين كتبت الكتاب عن رسول الله ﷺ هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو أعلم أنك لرسول الله لم أقاتلك ولم أخالفك، إني لظالم لك إن منعتك أن تطوف بيت الله وأنت رسوله ولكن اكتب من محمد بن عبد الله.

فقال لي رسول الله ﷺ: يا علي إني لرسول الله وأنا محمد بن عبد الله ولن يمحو عني الرسالة كتابي لهم من محمد بن عبد الله فاكتبها فامح ما أراد محوه أما إن لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد.

والذي أعاد الكتاب إلى أمير المؤمنين عمرو بن العاص طالباً محو اسمه من إمرة المؤمنين فقص علي رضي الله عنه قصة صلح الحديبية وقال: إن ذلك الكتاب أنا كتبه بيننا وبين المشركين واليوم أكتبه إلى أبنائهم كما كان رسول الله ﷺ كتبه

إلى آبائهم شبيهاً ومثلاً فقال عمرو: سبحان الله أتشبهنا بالكفار ونحن مسلمون؟ فقال عليّ عليه السلام يا ابن النابغة ومتى لم تكن للكافرين ولياً وللمسلمين عدواً؟ فقام عمرو وقال: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم فقال عليّ عليه السلام أما والله إنني لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك.

وجاءت عصاة قد وضعت سيوفها على عواتقها فقالوا: يا أمير المؤمنين مرنا بما شئت فقال لهم سهل بن حنيف: أيها الناس اتهموا رأيكم فلقد شهدنا صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا.

ف قيل لعليّ عليه السلام: أتقرّ أنهم مؤمنون مسلمون؟ فقال عليّ عليه السلام ما أقرّ لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون ولكن يكتب معاوية ما شاء ويقرّ بما شاء لنفسه ولأصحابه ويسمّي نفسه بما شاء وأصحابه^(١).

(١) راجع صفين: ٥٠٨.

صورة كتاب الصلح

هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان . قاضى عليّ بن أبي طالب على أهل العراق ومن كان معه من شيعة من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومن كان معه من شيعة من المؤمنين والمسلمين أنا نزل عند حكم الله وكتابه ولا يجمع بيننا إلا إياه وإن كتاب الله سبحانه بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحى ما أحيا القرآن ونميت ما أمت القرآن فإن وجد الحكماء أن ذلك في كتاب الله اتبعناه وإن لم يجداه أخذوا بالسنة العادلة غير المفرقة والحكماء عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص .

وقد أخذ الحكماء من عليّ ومعاوية ومن الجندين أنهما آمان على أنفسهما وأموالهما وأهلهم والأمة لهما أنصار وعلى الذي يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عهد الله أن يعملوا بما يقضيان عليه ممّا وافق الكتاب والسنة وأن الأمن والموادعة ووضع السلاح متفق عليه بين الطائفتين إلى أن يقع الحكم .

وعلى كل واحد من الحكمين عهد الله ليحكم بين الأمة بالحق لا بالهوى . وأجل الموادعة سنة كاملة فإن أحب الحكماء أن يعجلا الحكم عجلاه وإن توفي أحدهما فلأمير شيعة أن يختار معه رجلاً لا يألوا الحق والعدل وأن توفي أحد الأميرين كان نصب غيره إلى أصحابه ممن يرتضون أمره ويحمدون طريقه اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً وظلماً^(١) .

وكتب أهل العراق بهذا كتاباً لأهل الشام بخط عبيد الله بن أبي رافع كاتب

(١) صفين : ٥١٠ .

عليّ عليه السلام وكتب أهل الشام بهذا كتاباً لأهل العراق بخط عمّار بن عباد الكلبي وشهد شهود أهل العراق على أهل الشام وشهود أهل الشام على أهل العراق^(١).

(١) الفتوح: ١٦/٤.

(٢) صفين: ٥١١ بتقديم وتأخير وتصرف.

(٣) بلدة في الطريق ما بين الشام والعراق.

ما بعد كتاب الصلح

لَمَّا كَتَبَتْ صَحِيفَةُ الصَّلْحِ دُعي لها الأُشتر ليشهد مع الشهود فقال: لا صحبتني يميني ولا نفعني بعدها الشمال إن كتب لي في هذه الصحيفة اسم علي صلح أو موادة أو لست علي بينة من أمري وبقيين من ضلال عدوي؟ أولستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا علي الخور؟!

وجري بينه وبين الأشعث كلام ثم قال: ولكني قد رضيت بما يرضى به أمير المؤمنين ودخلت فيما دخل فيه وخرجت مما خرج منه فإنه لا يدخل إلا في الهدى والصواب وخرج الأشعث ومعه ناس بنسخة الكتاب يقرأها علي الناس ويعرفها عليهم فمر به علي صفوف من أهل الشام وهم علي راياتهم فأسمعهم إياه فرضوا به ثم مر علي صفوف من أهل العراق وهم علي راياتهم فأسمعهم إياه فرضوا به حتى مر برايات عترة وكان معه عليه السلام منهم أربعة آلاف فقال فتیان منهم: لا حكم إلا لله ثم حملا علي أهل الشام بسيوفهما حتى قتلا. ثم مر به علي مراد فقال صالح بن شقيق وكان من رؤوسهم: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون.

ثم مر علي رايات بني راسب فقرأ عليهم فقالوا: لا حكم إلا لله لا نرضى ولا نحكم الرجال في دين الله.

ثم مر علي رايات تميم فقرأ عليهم فقال رجل منهم: لا حكم إلا لله يقضي بالحق وهو خير الفاضلين، فشد عليه رجل بسيفه فرجع إلى علي عليه السلام فأخبره بما جرى فقال عليه السلام هل هي غير راية أو رايتين أو نبذ من الناس؟ قال: لا. قال: فدعهم فظن عليه السلام أنهم قليلون فما راعه إلا نداء الناس من كل ناحية: لا حكم إلا لله الحكم لله يا علي لا لك لا نرضى بأن نحكم الرجال في دين الله إن الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا عليهم وقد كنا زلنا حين رضينا بالحكمين وقد بان لنا زلنا وخطأنا فرجعنا إلى الله وتبنا

فارجع أنت يا علي كما رجعنا وتب إلى الله كما تبنا وإلا برأنا منك .

فقال عليه السلام : ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع؟ أليس الله تعالى قد قال : ﴿أوفوا بالعقود﴾^(١) وقال : ﴿أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾^(٢) فأبى أن يرجع وأبت الخوارج إلا تضليل التحكيم والظعن فيه فبرؤوا من علي وبرء منهم علي .

وأتى سليمان بن صرد علياً عليه السلام ووجهه مضروب بالسيف فلما نظر إليه علي عليه السلام قال : «فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً»^(٣) وأنت ممن ينتظر وممن لم يبدل فقال : يا أمير المؤمنين أما لو وجدت أعواناً ما كتبت هذه الصحيفة أبداً أما والله لقد مشيت في الناس ليعودوا إلى أمرهم الأول فما وجدت أحداً عنده خير إلا قليلاً .

وقام محرز بن جريش فقال : يا أمير المؤمنين أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل فوالله إني لأخاف أن يورث ذلاً . فقال عليه السلام : أبعد أن كتبناه نقضه إن هذا لا يحل .

وجاءت همدان إلى علي عليه السلام فيهم سعيد بن قيس وابنه عبد الرحمن ، فقال سعيد : ها أنا ذا وقومي لا نرد أمرك فقل ما شئت نعمله فقال : أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم أو تنفرد سالفتي ولكن انصرفوا راشدين فلعمري ما كنت لأعرض قبيلة واحدة للناس .

وقيل لعلي عليه السلام إن الأشر لم يرض بما في الصحيفة ولا يرى إلا قتال القوم فقال علي عليه السلام : بلى إن الأشر ليرضى إذا رضيت ورضيتم ولا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديل بعد الإقرار إلا أن يعصى الله ويتعدى ما في كتابه .

وأما الذي ذكرت من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك ولا أعرفه علي ذلك وليت فيكم مثله اثنان بل ليت فيكم مثله واحد يرى في عدوي مثل رأيه إذا لخفت مؤنتكم علي ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم .

(١) سورة التوبة، الآية : ٩١ .

(٢) سورة هود، الآية : ١١٨ .

(٣) كتاب صفين : ٥٢٨ .

وأما القضية فقد استوثقنا لكم فيها وقد طمعت أن لا تضلّوا إنشاء الله رب العالمين وحينها قال عليّ عليه السلام :

إن هؤلاء القوم لم يكونوا لينبيوا إلى الحق ولا ليحيبوا إلى كلمة سواء حتّى يرموا بالمناسر تتبعها العساكر وحتّى يرموا بالكتائب تقفوها الجلائب وحتّى تجرّ بيلادهم الخميس يتلوه الخميس وحتّى تدعق الخيول في نواحي أرضهم وبأعنان مساربهم ومسارحهم وحتّى تشن عليهم الغارات من كل فج وحتّى تتلقاهم قوم صدق صبر لا يزيدهم هلاك من هلك من قتلهم وموتاهم في سبيل الله إلاّ جدّاً في طاعة الله وحرصاً على لقاء الله ولقد كنّا مع رسول الله ﷺ نقتل آباءنا وأبنائنا وأخوانا وأعمامنا لا يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم وصبراً على مضض الألم وجدّاً في جهاد العدو ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت وأنزل علينا النصر حتّى استقرّ الإسلام ملقياً جراحه ومتبرّأ أوطانه ولعمري لو كنّا نأتي ما أتيتم ما قام للذين عمود ولا اخضر للإيمان عود وأيم الله لتحتلبتها دماً ولتبعثها ندماً^(١).

من صفين إلى الكوفة

عاد عليّ عليه السلام ومن معه من صفين إلى الكوفة وكان يقول: عائدون لربنا حامدون اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في المال والأهل ثم أخذ طريق الفرات حتى انتهى إلى هيت وأخذ عليّ صندوقاً^(١) فخرج الأنماريون بنو سعد بن حزيم واستقبلوا عليّاً فعرضوا عليه الثزل فبات بهم ثم غدا حتى جاز النخيلة وأشرف على بيوت الكوفة فرأى شيخاً جالساً في ظل بيت على وجهه أثر المرض فأقبل إليه أمير المؤمنين عليه السلام فسلم عليه فردّ رداً حسناً فقال له عليه السلام: مالي أرى وجهك منكفئاً أمن مرض؟ قال: نعم. قال: فلعلك كرهته؟ فقال: ما أحب أنه بغيري!! قال: أليس احتساباً للخير فيما أصابك منه؟ قال: بلى قال: أبشر برحمة ربك وغفران ذنبك فمن أنت يا عبد الله؟ قال: أنا صالح بن سليم. قال: أنت ممن؟ قال: أما الأصل فمن سلامان بن طيء وأما الجوار والدعوة فمن بني سليم بن منصور قال: سبحان الله ما أحسن اسمك واسم أبيك واسم أديائك واسم من اعتزيت إليه هل شهدت معنا غزاتنا هذه؟ قال: لا والله ما شهدتنا ولقد أردتها ولكن ما ترى في من لجب الحمى خذلني عنها، فقال عليه السلام: ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم^(٢).

أخبرني ما يقول الناس فيما كان بيننا وبين أهل الشام؟ قال: منهم المسرور فيما كان بينك وبينهم وأولئك أغشاء الناس ومنهم المكبوت الأسف لما كان من ذلك وأولئك نصحاء الناس لك فذهب لينصرف فقال: صدقت جعل الله ما كان من

(١) بلدة في الطريق ما بين الشام والعراق.

(٢) سورة التوبة: الآية ٩١

شكواك خطأً لسيئاتك فإنَّ المرض لا أجر فيه ولكن لا يدع للعبد ذنباً إلاَّ حطَّه إنَّما الأجر في القول باللسان والعمل باليد والرجل وإنَّ الله عزَّ وجلَّ يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة عالماً جناً من عباده الجنة .

ثمَّ مضى غير بعيد فلقيه عبد الله بن وديعة الأنصاري فدنا منه وسأله فقال له : ما سمعت الناس يقولون في أمرنا هذا؟ قال : منهم المعجب به ومنهم المكاره له والناس كما قال الله تعالى : ﴿ولا يزالون مختلفين﴾^(١) فقال له : فما يقول ذوو الرأي؟ قال : يقولون : إنَّ علياً كان له جمع عظيم ففرقه وحصن حصين فهدمه فحتَّى متى يبني مثل ما هدم وحتَّى متى يجمع مثل ما قد فرَّق؟! فلو أنَّه كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتَّى يظهره الله أو يهلك إذاً كان ذلك هو الحزم . فقال ﷺ : أنا هدمت أم هم هدموا؟ أم أنا فرَّقت أم هم تفرَّقوا؟ وأمَّا قولهم : لو أنَّه مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتَّى يظفر أو يهلك إذاً كان ذلك هو الحزم فوالله ما غبي عتي ذلك الرأي وإن كنت لسخياً بنفسي عن الدنيا طيب النفس بالموت ولقد هممت بالإقدام فنظرت إلى هذين قد استقدماني فعلمت أنَّ هذين إن هلكا انقطع نسب محمد ﷺ من هذه الأمة فكرهت ذلك وأشفت على هذين أن يهلكا ولقد علمت أن لولا مكاني لم يستقدما - يعني بذلك ابنه الحسن والحسين ﷺ - وأيم الله لئن لقيتهم بعد يومي لألقيتهم وليس هما معي في عسكر ولا دار .

ثمَّ مضى حتَّى جاز دور بني عوف فإذا هو عن يمينه بقبور سبعة أو ثمانية فقال ﷺ : ما هذه القبور؟ فقال له : قدامة بن العجلان الأزدي يا أمير المؤمنين إنَّ خباب بن الأرت توفي بعد مخرجك فأوصى أن يدفن في الظهر وكان الناس يدفنون في دورهم وأفنيتهم فدفن الناس إلى جنبه فقال : رحم الله خباباً فقد أسلم راغباً وهاجر طائعاً وعاش مجاهداً وابتلي في جسده أحوالاً ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

فجاء حتَّى وقف عليهم ثمَّ قال : عليكم السلام يا أهل الديار الموحشة والمحالِّ المقفرة من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات أنتم لنا سلف وفرط ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا

(١) سورة هود الآية : ١١٨

وعنهم ثم قال: الحمد لله الذي جعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً الحمد لله الذي جعل منها خلقنا وفيها يعيدنا وعليها يحشرنا طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضي عن الله بذلك.

ومرّ عليّ ثور همدان سمع البكاء فقال ما هذه الأصوات؟ قيل: هذا البكاء عليّ من قتل بصفين قال: أما إنني شهيد لمن قتل منهم صابراً محتسباً بالشهادة ثم مرّ بالفائضين فسمع الأصوات فقال ذلك.

ثم مرّ بالشاميين فسمع رنة شديدة وصوتاً مرتفعاً عالياً فخرج إليه حرب بن شرحبيل الشامي فقال عليّ عليه السلام أتغلبكم نساؤكم ألا تنهونهم عن هذا الصياح والرنين؟ قال: يا أمير المؤمنين لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثة قدرنا عليّ ذلك ولكن من هذا الحي ثمانون ومائة قتيل فليس من دار إلا وفيها بكاء أما نحن معاشر الرجال فإنا لا نبكي ولكن نفرح لهم بالشهادة فقال عليّ عليه السلام رحم الله قتلاكم وموتاكم وأقبل يمشي معه وعليّ راكب فقال له عليّ عليه السلام ارجع فإنّ مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن.

ثم مضى حتّى مرّ بالناعطيين فسمع رجلاً منهم يقال له عبد الرحمن بن مرثد فقال: ما صنع عليّ والله شيئاً ذهب ثمّ انصرف في غير شيء فلما نظر إلى أمير المؤمنين عليه السلام أبلس فقال عليه السلام لأصحابه قوم فارقتهم آنفاً خير من هؤلاء ثمّ قال:

أخوك الذي إن أجرضتك ملّة من الدهر لم يبرح لبثك واجماً
وليس أخوك بالذي إن تشعبت عليك أمور ظل يلحاك لائماً

ثمّ مضى فلم يزل يذكر الله حتّى دخل الكوفة^(١).

(١) كتاب صفين: ٥٣٨

نصائح المسلمين للأشعري

بعث عليّ عليه السلام أربع مائة مع الأشعري ليشهدوا التحكيم عليهم شريح بن هانيء وعبد الله بن عباس يصلّي بهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربع مائة.

فلما أراد أبو موسى الأشعري المسير قام إليه شريح بن هانيء فأخذ بيده وقال: يا أبا موسى إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ولا يستقال فتنته ومهما تقل من شيء عليك أو لك تثبت حقه وترى صحته وإن كان باطلاً وأنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية ولا بأس على أهل الشام إن ملكهم عليّ وقد كانت منك تشبيطة أيام الكوفة والجمل وإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقيناً والرجاء منك يأساً.

فقال أبو موسى: ما ينبغي لقوم اتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً أو أجز إليهم حقاً.

وقال له عبد الله بن عباس: يا أبا موسى إن الناس لم يرضوا بك ولم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارك فيه وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار المتقدمين قبلك ولكن أهل العراق أبوا إلا أن يكون الحكم يمانياً ورأوا أن معظم أهل الشام يمان وأيم الله إني لأظن ذلك شراً لك ولنا فإنه قد ضم إليك داهية العرب وليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه وإن يطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك.

واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليق الإسلام وأن أباه رأس الأحزاب وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق استعمله عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ويوجره ما يكره ثم استعمله عثمان برأي عمر وما أكثر ما استعملوا ممن لم يدع الخلافة واعلم

أَنْ لَعَمْرُو مَعَ كُلِّ شَيْءٍ يَسْرُكُ خَيْشًا يَسُوكُ وَمَهْمَا نَسِيَتْ فَلَا تَنْسَى أَنْ عَلَيْنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ
بَايَعَهُ الْقَوْمَ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَإِنَّمَا بَيْعَةُ هَدْيٍ وَأَنَّهُ لَمْ يَقَاتِلْ إِلَّا
الْعَاصِينَ وَالنَّكَاشِينَ .

فَقَالَ أَبُو مُوسَى : رَحِمَكَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَا لِي إِمَامٌ غَيْرَ عَلِيٍّ وَإِنِّي لَوَاقِفٌ عِنْدَمَا
رَأَيْتُ وَإِنْ حَقَّ اللَّهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رِضَا مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَمَا أَنْتَ وَأَنَا إِلَّا بِاللَّهِ^(١) .

نصيحة علي عليه السلام إلى الحكمين

كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري وهو :

فإنه قد تغير كثير منهم عن كثير من حظهم فمالوا مع الدنيا ونطقوا بالهوى وإني نزلت من هذا الأمر منزلاً معجباً اجتمع به أقوام أعجبته أنفسهم فإني أداوي منهم قرحاً أخاف أن يعود علقاً^(١) وليس رجل - فاعلم - أحرص على جماعة أمة محمد ﷺ والفتها متي أبتغي بذلك حسن الثواب وكرم المآب وسأفي بالذي وأيت^(٢) على نفسي وإن تغيرت عن صالح ما فارقتني عليه فإن الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة وإني لأعبد^(٣) أن يقول قائل بباطل وأن أفسد أمراً قد أصلحه الله فدع ما لا تعرف فإن شرار الناس طائرون إليك بأقاويل السوء والسلام^(٤).

وأوصى أمير المؤمنين عليه السلام شريح بن هانئ بكلمات ينقلها إلى عمرو بن العاص قال له : قل لعمرو إذا لقيته إن علياً يقول لك : إن أفضل الخلق عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه وإن أبعد الخلق من الله من كان العمل بالباطل أحب إليه وإن زاده والله يا عمرو إنك لتعلم أين موضع الحق فلم تتجاهل أبأن أوتيت طمعاً يسيراً صرت لله ولأوليائه عدواً فكأن ما أوتيت قد زال عنك فلا تكن للخائنين خصيماً ولا للظالمين ظهيراً أما إني أعلم أن يومك الذي أنت فيه نادم هو يوم وفاتك وسوف تتمنى أنك لم تظهر لي عداوة ولم تأخذ علي حكم الله رشوة .

(١) العلق : الدم الغليظ .

(٢) وأيت : وعدت .

(٣) العبد بالتحريك : الغضب والأنف أي أنني لأنف أن يقول غيري قولاً باطلاً فكيف لا آنف ذلك أنا من نفسي .

(٤) نهج البلاغة : المختار من كتبه ما قبل الأخير من الباب الثاني .

قال شريح: فأبلغته ذلك يوم لقيته فتمعر^(١) وجهه وقال: متى كنت قابلاً مشورة عليّ أو منياً إلى رأيه أو معتداً بأمره!!!

فقلت وما يمنعك يا ابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيّهم مشورته لقد كان من هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه فقال: إنّ مثلي لا يكلم مثلك فقلت: بأيّ أبويك ترغب عن كلامي بأبيك الوشيط^(٢) أم بأهلك النابغة فقام من مكانه وقمت^(٣).

(١) تمعر لونه عند الغضب: تغير.

(٢) الوشيط: الأتباع والخدم والأجلاف ولقيف من الناس ليس أصلهم واحداً.

(٣) البحار: ٣٣/٣٠٠.

من تاريخ أبي موسى الأشعري

وبخ عمار بن ياسر رضوان الله عليه أبا موسى الأشعري وعاتبه على تأخره عن علي عليه السلام وقعوده عن الدخول في بيعته فقال له: ما الذي أخرك عن أمير المؤمنين عليه السلام فوالله لئن شككت فيه لتخرجن عن الإسلام، وأبو موسى يقول له: لا تفعل ودع عتابك لي فإنما أنا أخوك فقال له عمار: ما أنا لك بأخ سمعت رسول الله ﷺ يلعنك ليلة العقبة وقد هممت مع القوم بما هممت فقال له أبو موسى: أفليس قد استغفر لي؟ قال عمار: قد سمعت اللعن ولم أسمع الإستغفار^(١).

وقال سويد بن غفلة كنت مع أبي موسى على شاطئ الفرات فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل الاختلاف بينهم حتى بعثوا حكمين يضلّان ويضلّ من تبعهما.

فقلت: أعيذك بالله أن تكون أحدهما: قال سويد: فخلع قميصه وقال: برأني الله من ذلك كما برأني من قميصي^(٢).

(١) أمالي الطوسي: ١٨٤/١ ط بيروت.

(٢) انظر المناقب: ٣٦٣/٢ ط النجف.

قرار الحكمين

في دومة الجندل التي شهدت لقاء المكر والخديعة مع الغباء المطبق ليخرجوا بقرار ينتظره المسلمون بل المغفلون من المسلمين وأهل الباطل فيوجدوا الحياة الطيبة في ظل معاوية!!

يا له من سخف جر الأمة إلى مهاوي سحيقة ودمار شامل وتخلف رهيب ابن العاص والأشعري بيدهما القرار والحل والعقد ويقعد علي عليه السلام في كوفته وقد حجزه عن تأديهما حاجز القدر ومحنة الابتلاء وقصر المدة وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأقبل أبو موسى إلى عمرو فقال: يا عمرو هل لك في أمر هو للأمة صلاح ولصلحاء الناس رضا تُؤلي هذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة ولا في هذه الفرقة.

فقال عمرو: فأين أنت يا أبا موسى عن معاوية - فأبى عليه أبو موسى.

فقال عمرو: أأست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً ومعاوية ولي عثمان وقد قال الله: ﴿من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾^(١).

ثم إن بيت معاوية في قريش ما قد علمت وهو أخو أم حبيبة أم المؤمنين وزوج النبي ﷺ وقد صحبه وهو أحد الصحابة ثم عرض له بالسلطان فقال له: إن هو ولي هذا الأمر أكرمك كرامة لم يكرمك أحد قط بمثلها.

فقال أبو موسى: اتق الله يا عمرو فإن هذا الأمر ليس على الشرف إنما هو لأهل الدين والفضل مع أنني لو كنت أعطيته أفضل قريش شرفاً لأعطيته علي بن أبي طالب وأما قولك إنه ولي عثمان فإني لم أكن أوليه إياه لنسبه من عثمان وادع المهاجرين الأولين.

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٧.

وأما تعريضك لي بالإمرة والسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليته ولا كنت أرتشي في الله ولكنتك إن شئت أحيينا سنة عمر بن الخطاب .

فقال عمرو بن العاص : إن كنت إنما تريد أن تباع ابن عمر لدينه فما يمنعك من ابني عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه !! فقال : إن ابنك لرجل صدق ولكنتك قد غمسته في هذه الفتنة .

وتمخض اجتماعهما وتداول الأحاديث بينهما إلى خلع علي ومعاوية ويجعلا الأمر شورى بين المسلمين يختارون من يشاؤون .

فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون فتكلم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به شأن هذه الأمة فقال عمرو : صدق ، ثم قال له : تقدم يا أبا موسى فتكلم .

فقام أبو موسى ليتكلم فدعاه ابن عباس فقال : ويحك والله إني لأظنه خدعك إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدّمه قبلك ليتكلم به ثم تكلم أنت بعده فإنه رجل غدار ولا آمن أن يكون أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت به في الناس خالفك فقال : أيها عنك إنا قد اتفقنا .

فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر شيئا هو أصلح لأمر هؤلاء ولا أتم لشعثها من أن لا يبين أمورها وقد اجتمع رأيي ورأي صاحبي على خلع علي ومعاوية وأن يستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين يولّون أمورهم من أحبّوا وإني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أموركم وولّوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى .

فقام عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحقّ الناس بمقامه .

فقال له أبو موسى : ما لك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث .

فقال له عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا .

وحمل شريح بن هانيء على عمرو فقتعه بالسوط وحمل ابن عمرو على شريح فقتعه بالسوط وقام الناس فحجزوا بينهما فكان شريح بعد ذلك يقول : ما

ندمت على شيء ندامتي أن لا أكون ضربت عمرواً بالسيف بدل السوط لكن أتى
الذهر بما أتى به .

والتمس أصحاب علي عليه السلام أبا موسى فركب ناقته ولحق بمكة فكان ابن
عباس يقول: قبح الله أبا موسى لقد حذرته وهديته إلى الرأي فما عقل وكان أبو
موسى يقول: حذرنى ابن عباس غدرة الفاسق ولكن اطمأنت إليه وظننت أنه لا
يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة^(١).

ورجع عمرو إلى منزله من دومة الجندل فكتب إلى معاوية:

أتتك الخلافة مزفوفة هنيئاً مريئاً تقر العيوننا
تزف إليك زفاف العروس بأهون من طعنك الدارعيننا

وقام سعيد بن قيس الهمداني، وقال: والله لو اجتمعنا على الهدى ما زدتما
على ما نحن الآن عليه وما ضلالكما بلازم لنا وما رجعتما إلا بما بدأتما به وإنا
اليوم لعلى ما كنا عليه أمس.

وقام كردوس بن هانىء مغضباً وأنشد أبياتاً في الرضا بخلافة علي عليه السلام
وإنكار خلافة معاوية وحكم الحكمين وتكلم جماعة أخرى بمثل ذلك^(٢).

ولما سمع علي عليه السلام قرار الحكمين اللذين خانا الله ورسوله والأمة وداسا
على مشاعر المسلمين وحطما بغدرهما وغبائهما صرح التاريخ الذي بناه رسول
الله ﷺ والعدالة التي ثبتها في دنيا المسلمين والتي مثلها علي عليه السلام وجسدها في
أعلى صورها أيام حكومته وما تخللها من محن وإحن ومعاناة. قام خطيباً فقال:

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب وأحيا ما أمات
واتبع كل واحد منهما هواه، وحكم بغير حجة ولا بينة ولا سنة ماضية واختلفا فيما
حكما فكلاهما لم يرشدا لله فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للمسير^(٣).

ودخل المسلمون والمعنيون بشؤون الإسلام مرحلة جديدة من الدفاع عن
الإسلام وأهله من مكر معاوية وخداعه.

(١) البحار: ٢٩٧/٣٣ بتصرف.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) راجع نهج البلاغة: ٣٥ من المختار من خطبه.

اقرأ معاوية

احتفظ التاريخ لنا بثروة عظيمة من التقييم الدقيق حول المواقف والأشخاص، ولضرورة تفتضيها فترة من الزمن طويلاً عنها كشحاً، وكوننا نملك علينا وآل علي صلوات الله عليهم فهو كافٍ لنا لتعرية أعدائهم والواقفين بوجه حركتهم في دنيا الإسلام ولأن معاوية قد تزعم حرباً ضد الإسلام وهو لا يمثل قاسماً مشتركاً بيننا وبين إخواننا أهل السنة فلهذا ارتأيت أن أوقف القارئ على نبذة مختصرة من تاريخه الأسود في المحاضرات للراغب قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام لا يموت ابن هند حتى يعلق الصليب في عنقه^(١).

وقال مطرف بن المغيرة بن شعبة وفدت مع أبي المغيرة علي معاوية وكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إلي فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب بما يرى منه إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيت مغتماً فانتظرت ساعة وظننت أنه لشيء حدث فينا وفي عملنا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة فقال يا بني جئت من عند أخبت الناس قلت وما ذاك قال: قلت له: وخلصت به أنك قد بلغت سنّاً فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنك قد كبرت ولو نظرت إلى إخوانك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه فقال هيهات هيهات ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل فوالله ما عدا إن هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل أبو بكر ثم ملك أخو بني عدي فاجتهد وشمّر عشر سنين فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل عمر ثم ملك عثمان فهلك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه وفعل ما فعل وعمل به ما عمل فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره وذكر ما فعل به وأن أخا بني هاشم - يعني محمداً ﷺ - يصاح به في كل يوم خمس مرات أشهد أن محمداً رسول

(١) المحاضرات للراغب: ص ١٤٠.

الله فأَيَّ عمل يبقى بعد هذا لا أُم لك لا والله إلا دفناً دفناً^(١).

وذكر ابن الأثير في الكامل: أراد معاوية في سنة خمسين من الهجرة أن ينقل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام فأعظم الناس ذلك فتركه^(٢).

وقال رسول الله ﷺ إذا رأيتم معاوية على منبري يخطب فاقتلوه^(٣).

وقال معاوية حين سمع المؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله الله أبوك يابن عبد الله لقد كنت عالي الهمة ما رضيت لنفسك إلا أن تقرن اسمك باسم رب العالمين^(٤).

ومن أراد المزيد فليراجع تاريخ الطبري في سنة ٦٠ للهجرة يجد أن هذا الرجل الذي خدع الخلفاء الثلاثة أو هم من وراء خطة بيتها اليهودية والمستشارون الدخلاء في بيوتهم أنه قد اتخذ الشام منطلقاً لحركته في اتجاه تدمير الروح الإسلامية والكيان الإسلامي وتحويل ذلك أو جزه إلى سلطان مثل سلطان كسرى وقيصر.

والغريب لم يقف بوجهه تلك الوقفة العارفة الصمود إلا أبناء مدرسة الإمامة لعرفانهم بخطرته على الحياة الإسلامية.

(١) كشف الغمة: ٤٤/٢.

(٢) تاريخ الطبري.

(٣) البحار مجلد ٨ ص ٥٦٥.

(٤) نفس المصدر.

2011

2012

2013

2014

2015

2016

2017

2018

2019

2020

2021

2022

2023

2024

2025

2026

2027

2028

2029

2030

2031

2032

2033

2034

2035

2036

٣ - المارقوق

حركة الخوارج :

فهذا إستعراض مجمل لحركة الخوارج أولئك الذين شغلوا الحياة الإسلامية بحروبهم وآرائهم التي لم تَقُمْ على أساس .

إلا أن الجهل الحرون والغباء المطبق عند قطاعات من الأمة راحت تشد لهم العضد بدافع من الإنتصار للروح القبلية والحق الملتاث على الكيان الإسلامي .
ونحن نقرأهم على صفحات تاريخنا الإسلامي نتوءاً فاسداً وظاهرة منكرة ورثة عن الدين ومروقاً منه واضحاً .

علينا أن لا يمرر المنافقون من خلال حياتنا التي تشهد نعاساً قاتلاً ما تلين له القلوب وتقبل إليه النفوس من مظهر جذاب يوحى بالتدين والالتزام كما كان المارقون كذلك فيما الإنطواء على نوايا خبيثة وسعاد محموم ضد العقيدة .
ولن يحصن قواعدنا من اللهاث خلف المظهر إلا الوعي المعمق الذي يأخذ من الحق مقياساً ومن التاريخ درساً وعبرة :

وما هذه الصفحات التي كتبت بعجالة وفي أوقات متفاوتة إلا نقطة في طريق الوعي والتثقيف العام .

أسأل الله تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ووسيلة إلى المزيد من القرب في رحاب الحق الذي يمثله علي عليه السلام وآل علي صلوات الله عليهم أجمعين .

والحمد لله رب العالمين .

إلماحة سريعة

حركة الخوارج وليدة قضية التحكيم في صفين، وإن كانت هناك دوافع لها وجذور كانت تعيش في نفسية بعض القائمين على هذه الحركة إلا أن الإعلان عن الخروج بشكله الرسمي كان بعد التحكيم.

وأنت تنظر بوجوه البعض منهم تجدهم من شيعة علي عليه السلام الذين ذهب بهم فتن الحياة وألقتهم في هذا المكان الوبيء. وكما أن أغلبهم كانوا قد شاركوا علياً حربه مع معاوية، ولما لم يكن وعي قائم على مماشاة القرار الذي يصدره علي عليه السلام فيما هي الأزمات الحادثة القاهرة والوضع الاستثنائي المريع الذي من خلاله يغير الإمام عليه السلام خطة حربه وحركته باتجاه آخر لم يكن لديهم ما يعينهم على الصبر والتوادة.

فهم في الوقت الذي أنشأوا جسور الدماء والأضاحي وكان النصر قاب قوسين أو أدنى إذا هم أمام أحابيل رفع المصاحف وتحكيم كتاب الله تعالى فإنثنى العزم وسكنت الأنفاس أمامه، فأجبروا القائد على التحكيم وإن لم يقبل فإنهم صانعون به مثلما صنعوا بالخليفة الذي قبله عثمان!!

وأريد منه كما أريد من طرفه المقابل معاوية أن يعيننا حكمين فعين معاوية عمرو بن العاص الرجل المخادع اللعوب المعروف بدهائه ومكره.

وعين علي مالك الأشتر قائد جيشه فرفضه المحكمة فاستبدله بابن عباس فرفضوه بحجة أن هؤلاء قد شاركوا في الحرب ولهما السهم الوافر فيه وهما قريبان من الخليفة فكراً وروحاً^(١).

فاختاروا أبا موسى الأشعري الرجل المواعظ الضعيف الذي عرف منذ أول

(١) لمزيد الإطلاع في ذلك راجع الفتوح لابن أعثم: ١٩٤/٤.

يوم دخل الإسلام ببغضه لعليّ عليه السلام وكان له مقاماً حسناً عند الخلفاء!!

وهو الذي قام بعملية التثبيط في أهل الكوفة يوم انتفض الإمام عليه السلام ليقاتل الناكثين. وهكذا لم يكن له نصيب في الحياة ولا إستعداد لخدمة الإسلام إلا من خلال إحياء سنة عمر!! التي تقضي بإحترام كل من عاش في ظلها كمعاوية وعمرو بن العاص وبعض مفاصل النفاق في الأقطار الإسلامية الأخرى!!

فإختاروه دون سواه لينفذ الخطة المرسومة له من قبل وإن توزعت الأدوار وتنوعت الأساليب في الوقوف بوجه عليّ عليه السلام إلا أن الهدف واحد في إسقاطه والحيلولة دون أن يقوم ولو قليلاً.

وهؤلاء الغفل من الناس البلهاء الذين أخذهم موج الفتنة والإعلام المضاد بعضهم رجع إلى الصف وبعضهم مرض قلبه وقسى فبقي على مرقه. وهكذا حتى آل بهم الأمر أن يكفروا علياً ويأمروه بالتوبة من ذنبه.

* * *

والذين كانوا على رأس الفتنة تقرأ في ثنايا هذه المحاولة البسيطة جذورهم وكيف أن الإعداد من قبل اليهود في المدينة والدور الصليبي لهما - اللذان صنعا هذه الموجودات في لباس إسلامي ممّوه.

وأنت تعرف أن العرب وهم جديّدو عهد بالحضارة والعلم وأهل عصبة وفخار بالماضي فلم يزح الإسلام كل هذا الزين من قلوبهم ولم يقو على خلق أمة متفقة الإسلوب حضارياً ومتوحدة الرؤى والتصورات.

أضف إلى أن بعض الوجودات أفراداً أو جماعات دخلت الإسلام حفاظاً على وضعها الشخصي والقبلي لأن الإسلام جاءهم بقوة وهو يحمل إصراراً توحيدياً هائلاً.

وكم زرع اليهود في طريق دعوته الأشواك فلم يفلحوا فكان لهم خطة إحباطه من داخله وإضعاف قواه من وراء صفوفه، فصنعوا على أعينهم بعض الأفراد والجماعات فأشار القرآن إلى صفاتهم وهدّدهم في عقر ديارهم ولأن الحياة ساحة فيها الهدى والضلال والخير والشرّ والمسيرة مستمرة لا تلوي على شيء فإن للإسلام قواه ونفوذه في الذين هدّى الله وهم المدافعون عنه والذائدون دون حياضه.

وما هذه الحركة حركة الخوارج وما سبقها إلا مفردات واضحة لمن القى السمع وهو شهيد لصراع دفين قاداته اليهودية ضد الإسلام من خلال أبنائه المستسلمين أو المغرّرين بهم وهم أغلب القواعد التي تحرّك بهم القادة في غياهب هذه الفتنة .

ثمّ تلحظ أنّ هذه الفتنة التي مرقت من الدين اتجهت رأساً إلى تأويل القرآن كمنطلق لتسويغ أفكارها حيث أنّ تأويله أضحى قضية يُرتكن إليها بعد وفاة رسول الله ﷺ .

ومن المعلوم أنّ عليّاً عليه السلام هو القائم الوحيد على تأويله بنصّ من رسول الله وإرشاد منه وما عليه أمير المؤمنين من علم جمّ في هذا الاتجاه .

فبنوا قواعدهم في الفقه وأصول تفكيرهم على تأويله بما يتفق والخط العام لمخالفة الإسلام في جوهره ومقاصده في توحيد الفهم عن الدين وأحكامه .

ثمّ فليبرز كيان باسم الإسلام مشوّه ذهنياً ولتتضارب المذاهب وتكثر الآراء وكلّ حزب بما لديهم فرحون، وليتمكن أعداء الإسلام منه من أقرب الطرق .

ولنا أن نتوقف عند كلام للأشتر بعد أن أجبر على ترك القتال لنرى كم لهؤلاء أهل الجباه وقراء القرآن من مظهر يخبر عن الصلاح ومخبر ينطوي على الفساد فيما هو الإغترار بهم في مظهرهم والتي كشف مخبرهم موقفهم في إنهاء القتال وقبول التحكيم في شعار ظاهره الدين وباطنه الإرتداد وهو أن لا حكم إلا لله .

يقول مالك: يا أصحاب الجباه السود كنّا نظنّ صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاءه تعالى فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت يا أشباه النيب الجلالة قبحاً لكم ما أنتم برائين بعدها عزّاً أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون^(١) .

ولكي يقوى لهم الجانب في المجتمع الإسلامي اتخذوا كثرة العبادة سبيلاً أضف إلى أنّ هذا المظهر لو تفشّى في الحياة وأصبح المسلم يقيم على أساسه فيعني ذلك إنحسار الإسلام كقيمة علياً ومثل أرقى ومنهج كامل ثابت وعزله عن الواقع الاجتماعي والسياسي وإيداعه مريضاً بائساً ناعساً في جوامع المسلمين .

(١) بهج الصباغة: ١٦٧/٧ نقلاً عن الطبري .

وللملاحظ في طريق الفتن التي مرت على المسلمين لم يكن ضحيتها إلا أولئك الوادعين الحالمين في غيبوبة العبادة والتهجد، والذين لا يرون الإسلام إلا في هذا الإتجاه لأته العمل الذي ليس من ورائه ضريبة في المال أو النفس!!

فالإسلام حركة في الواقع وإنقطاع وتوجه رائد فلن نأخذ منه ما نتطبع عليه ونترك بعضاً لأننا ضعفاء حياله. فنحاول أن نؤسلم واقعنا المريض عبر تبريرات ومسوغات شرعية في أغلب الأحيان.

* * *

وتأكد هذا الإتجاه في حياة الكثيرين منهم حتى أصبح لهم رمزاً واضح المعالم ذلك أنّ حركة الخوارج كان يتوزعها طرفان.

الأول: المنافقون والذين إرتدوا الثوب الإعلامي خوفاً على أنفسهم من هديره القاصف يوم دخل النبي مكة، وكانوا فيها يدبرون الأمور للإطاحة به، ولما لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً دخلوا فيه بوجه وتركوا الوجه الآخر فيما يعتقدونه وما تكنه نفوسهم^(١).

الثاني: المؤمنون السطحيون الذين تشرأب أعناقهم لكل صيحة فيها إسم مقدس أو عنوان مقدس بدون أن يعرفوا الخلفيات ويدرسوا الدوافع لهم ظاهر الحال كما يقال.

وهؤلاء السطحيون يشكلون خطراً على حالة الوعي الجديدة التي خلقتها الدعوة.

كما أنهم المادة الخام لحركة النفاق التي يقودها أعداء الدين في أي وقت شاءوا وأي مكان إختاروا.

فما أسهل على أهل اللياقات والألوان المتعددة أن يعتمدوا الوسائل ويصطنعوا الأحابيل ويلبسوها اللباس الإسلامي المرقع ويخرجوها إلى واقع هؤلاء السطحيين وهي تحمل المفردة الدينية الواضحة كما فعلوها في رفع المصاحف

(١) أمثال ذلك الأشعث بن قيس المرتد عن الدين وتزعم هو حركة الإرتداد عند بعض القبائل المرتدة وارغم على الاستسلام فيما عفى عنه أبو بكر وارجع إليه زوجته أم فروة بنت أبي بكر، انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٩٥/١.

وتحكيم القرآن . ليجزّوهم إلى مواقعهم ويجندونهم ضدّ الإسلام .

* * *

ولمن ينظر كيفة التحولات التي عصفت بروح النصر والإقتدار التي كان عليها جيش العراق يرى الإتفاق واضحاً بين مفاصل النفاق في هذا الجيش وبين الحاضن المربي لهذه المفاصل وهو معاوية .

ولمن ينظر إلى الإطروحة الجامعة التي طرحها الخوارج في شعارهم الذي وقعوه أن لا حكم إلا لله ، وإفترضهم أن يتوب عليّ عليه السلام ومعاوية من خطيئتهما يجد أيضاً أن الأمر مبنيّ لعليّ عليه السلام حيث أن معاوية بعد أن تضع الحرب أوزارها يملك قاعدة أقوى من عليّ عليه السلام وهم أهل الشام الذين عرفوا بولائهم الشديد له والمنافقون في كلّ مكان من أمكنة العالم الإسلامي فيما هي اليهودية التي تخطط وتهبّء الأرضية المناسبة في كلّ موقع ومساحة وتقدّم لهم ما يحتاجونه في حركتهم ضدّ عليّ والإسلام .

أضف إلى أن الحالة العشائرية والقبلية قد أعيدت بشكلها القديم وكهبتها يوم كانت أعرافها وقيمها ديناً .

وهي بالتالي تخدم معاوية من موقع المحافظ الوحيد على روحها وهيكلها وهو المطرب على أوتارها والعازف الوحيد الذي يستفيد منها عندما يريد عليّ عليه السلام كما هو الحال أن يرّد الناس إلى دين السماء ويسوي الأرض والإنسان وفق متبنيات هذا الدين .

فحين يطلب من عليّ عليه السلام أن يتوب ذلك أمر لا يمكن أن يكون وإذن يبقى المطلب ساري المفعول فيما هو المسوغ الذي تقوم عليه حرب الخوارج على عليّ عليه السلام وهكذا كان .

* * *

ومن المفارقات العجيبة في هذه الحركة المارقة أن الذين دفعوها إلى هذا الموقف النازف فيما هو الاستئصال من الجذور والمطاردة التي لا تبقى ولا تذر بقوا هم محافظين على مواقعهم ولم يدخلوا معها في الحرب لا لعدم إيمانهم بها بل لأنّ هدفهم المركزي قد تحقّق وهو خلع عليّ عليه السلام من الخلافة وإسقاط هيبتها عند جمهور الكوفة وغيرها .

ولهذا رأينا أن معاوية بعد التحكيم مباشرة والانشقاق الذي أحدثه الإرتجاع والردة لم يكن بالذي يرجع المياه إلى مجاريها الطبيعية أو أنه يبقى منتظراً إنتهاء الفترة المزمع فيها إيقاف القتال وشن الغارات.

بل عمل بما يعكّر الأجواء ويرعب الناس ويهدّد القبائل الآمنة وقد تعرّض شيعة عليّ عليه السلام في كلّ مدنهم إلى القتل والسلب والتهديد.

وهذا ممّا أربك الخلافة في الكوفة وجمهورها الموزّع ممّا فكّر عليّ عليه السلام في إعادة الحرب ثانية ليشغل معاوية عن شنّ غاراته، ويفوّت الفرصة على مفاصل الردّة ممّا تعطي إعادة الحرب مع معاوية عنواناً آخر وإسلوباً يختلف عن سابقه ولعلّ الله من وراء ما وضع الإمام عليه السلام من تخطيط محكم أن يشلّ وإلى الأبد هذا الموج الآثم المرتدّ.

وبمجرّد أن استخبر معاوية بهذه النية عمل وبقوّة مع الرؤوس المارقة عبر وسائله المعروفة أن يشوشوا على عليّ عليه السلام الكوفة ويربكوا عليه سيره فيها ويعملوا وفق ما كانوا يعتقدون وهو الموقف من الكافرين كما يرون علياً وأصحابه.

ولهذا فمعاوية لم يخسر يوم نذفت دماء الخوارج بل هو الرابع في خسران عليّ عليه السلام هذا العدد الهائل الذي كان معه في الجمل وصقّين.

* * *

وأنت خير أن من لا حظّ له في دنيا الإسلام ولا إرتقاء في مبادئه ومفاهيمه فإنّه يظلّ يخاتل الحياة ويتشبّث بالسقطات والدنايا.

فهؤلاء المارقة الذين صفّاهم عليّ عليه السلام في النهروان بوحى منهم وإرادة وطلب وإلا فعليّ دعاهم إلى قتال معاوية من جديد فرفضوا ذلك وأبوا عليه إلاّ مقاتلته فكانت لهم هذه النهاية المروعة والمصير المشؤوم. وبقيت لهم حثالة توزّعوا في البلدان وجمعوا لهم أنصاراً ومريدين مستفيدين من إثارة النعرات الجاهلية والثأر للدماء التي سفكها عليّ في النهروان - دماء إخوانهم وأبناء قبائلهم - وكانت هذه المناداة تحمّل الكثيرين ممّن عمي قلبه وتبلّد ذهنه على الالتحاق بهم.

فكان أشرس بن عوف الشيباني أول من رأسوه عليهم بعد وقعة النهروان فحارب جند عليّ في الدسكرة في مائتين ثم سار إلى الأنبار فوجّه إليه عليّ عليه السلام في ثلاثمائة فواقعه فقتل أشرس.

كما أنَّ هلال وابن علقمة كانا على رأس مئتي رجل من الخوارج فتلاقيا
باسبذان. وزحف أبو مريم التميمي على الكوفة وتقاتل مع جند الإمام فقتل هناك^(١).

ثم خرج الأشهب أو الأشعث بن بشر من بجيلة فوجه إليه علي جيشاً فتقاتلا
بجرجرايا من أرض جوحى فقتل الأشهب.

ثم خرج سعيد بن قفل التميمي بالبنديين فخرج إليهم جماعة علي عليه السلام
فقتلوه^(٢).

وأظهر الخريت بن راشد الخلاف على علي عليه السلام ومعه مجموعة لصوص
وبطالين فأهلكهم جماعة علي عليه السلام وبددوا شملهم^(٣).

هذا من أمرهم مع علي عليه السلام بعد النهروان.

وأما ما كان من أمرهم مع معاوية والدولة الأموية والعباسية فذاك ما قد
أوجزنا فيه الكلام إلى حد الإختصار والإقتصار على حروبهم مع المهلب بن أبي
صفرة لأنَّ عليَّ يده انتهى ما لهم من جذوة وتوقد وأصبحوا فيما بعد سلايين
وقطاع طرق وإنتهت المبادئ والعبادة إلى هذا المستنقع الآسن.

وبالجملة فقد ربح المخطط فترة حتى على حساب استقرار الدولة الأموية
والعباسية فيما هو اشتغالها بهم وهو شغل شاغل عما يرومه أهل الغيرة على الدين
والمقالع المهمة في الحياة الإسلامية من استئصال جذوة اليهود وتمكين الدين في
كل الأرض.

* * *

فإذا آمنا بأنَّ المحرك لهؤلاء هم المنافقون ومن ورائهم اليهودية العاملة في
الخفاء ونحن إذ لا نفرق بينهم وبين السلطات التي تعاقبت على حكم المسلمين من
حيث التوجه أو الإسترخاء في أكثر من موقع أمام هذا الوجود الأثيم.

إذن لماذا خرج المارقون عن الذين على هاتين الدولتين الأموية والعباسية
وأزعجتهم حتى وقع السيف عليهم؟

(١) أنظر الكامل في التاريخ: ٣/٣٦٧.

(٢) أنظر أعيان الشيعة للأمين: ١/٥٢٥.

(٣) لمزيد الاطلاع وبشكل تفصيلي راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/٥٩٠.

إنَّ المتشبع جذور هؤلاء وانحدارهم القبلي يجرهم جميعاً من العرب الأقحاح الذين ملئوا الحياة العربية عروبة قائمة على السيف وعلى الإحتفاظ بالكيان العربي فهم من تميم وحنيفة وربيعه وحسبك بهنَّ الأمهات الحاضنات للمنطق العربي المبين .

ثم إنَّ العرب بصفاءهم الذي أخذوه من صفاء الجزيرة وبراءتهم في التعامل مع الحياة لن يجدوا ضيقاً في حياة مفتوحة إلى إيجاد حكومة مركزية تنضم لهم أمورهم وتوخذهم في أماكنهم وتكتب لهم إسماً في قاموس الحضارة الكبير .

فلما أن جاء الإسلام وفرض نفسه بديلاً حضارياً انفتحت له قلوبهم ، لا باعتبارهم بمستوى فهم مبادئه وهضم أطروحاته في مجالات الحياة المتعددة .

بل باعتبار رسوله العربي الذي ملأ آفاق الدنيا نزاهة وطهراً وأمانة وصدقاً وأريحية .

والإنسان العربي بطبعه الثابت ميال إلى هذه السمائل والخلال فوضعوا أيادهم على يده للنهوض بأعباء هذه الرسالة العادلة .

وإنكفاً آخرون بفعل الجهل الجاثم الذي لم تحركه الحياة وتبدلاتها السريعة .

فالذي مشى مع الرسالة في رحابها استساغ حياتها لأنها قد ناغمت مشاعره وأيقظت فيه روحاً لم تكن من ذي قبل هي دافعة له في دروب الحياة كرجل حضارة وصاحب قضية .

فاشتغل معها ردهاً من الزمن حتّى إذا رست سفن أحداثها إلى ما بعد رحيل المصطفى إلى ساحل الخلافة فقدت نورها النبوي وقوتها المحمدية وصمودها الرسالي فرجع من رجع عن الإسلام وظهرت في أفق الحياة سحب الردّة عن الدين فتهايا لها عزم الخليفة الأول في إطاره كخليفة وكإنسان يمثل شريحة عربية فرقت الفتق وحلّ المشكل ، ولكن بقيت في نفوس العرب من أمثال هذه القبائل الرُّبعية وأنَّ المستفيد من الوضع بشكل عام هي القبائل المضربة .

إذن كان يفترض أن تتولّى شرائح عربية أخرى الإمامة والخلافة كما هو الرأي الدفين الذي تحمله عقليات عربية ربعية .

وبات اشكالهم على أنّ الزعامة في قريش أمراً لا يمكن أن يستمر بدون أن تثار بوجهه العراقيل وتوضع في طريقه العقابيل .

ولقد أثار هذا الدفين عمر بن الخطاب أواخر حياته - وهو المعروف بإثارته وإن لم تجني نفعاً له أو لقوميته - حيث قال :

«لو كان سالم مولى حذيفة حياً ما عدوته»^(١).

وهذا يعني بداية لتثوير القطاعات التي تكمن في نفسها عدم المشاركة في الحكم والتي تعيش كما أراد لها مبدأ حصر الخلافة في قريش على طول الطريق رعية وقاعدة.

ولهذا كله فقد فكر المخططون لهذا التجمع المارق أن يثور على كلا الطرفين علي ومعاوية.

وقد كان الخوارج في بدأ أمرهم لم يكونوا بالمستوى المطلوب من الحنكة السياسية بقدر ما كانوا أناساً على مستوى محدود من الفهم السياسي الذي يقوم على رفض التحكيم فقط.

وفيما بعد تحرّكت عندهم هذه المبادئ من تكفير علي عليه السلام وعثمان وطلحة والزبير وعائشة - وإعفاء الخليفين أبي بكر وعمر باعتبارهما أنهما منتخبان شعبياً ولم يخرجوا عن الجادة التي فيها مصلحة الإسلام والمسلمين كما ظهر على عثمان حيث ولّى الفاسقين لا لشيء إلا لأنهم من أهله وقبيلته. وعلي الذي رضي بالتحكيم وتنازل عن إمرة المؤمنين ولو لفترة.

ولهذا نجد الخوارج قد إنعكست على متبناهم الفكري والفقهية فيما بعد ما كانوا عليه في أيامهم الأولى. وما قتالهم الأمويين وغيرهم إلا على هذا الاعتبار القبلي الذي شجّع على إظهاره وإبرازه مروقهم من الدين بادية الأمر.

ولم يتمكن معاوية وأمثاله من أن يوقفوا هديرهم بوجهه وبوجه الأجيال من بعده، لأن ما يعتقدونه من موقعهم كعرب معزولين عن الحياة السياسية يعتقدون أيضاً أنفسهم الآن مسلمين على طريقتهم الخاصة.

وكلا الاتجاهين في التفكير لا ينسجم والحالة الأموية والعباسية.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦٤٩/١.

إشارات وتنبيهات نبوية

النبي الأكرم ﷺ فوق ما علمه الله البيان والقرآن فصل له عبر الوحي الأمين ما أجمله في كتابه، وفتح له آفاق الحياة فرآها بمفرداتها إلى أن تقوم الساعة. وقد علمه ﷺ علياً وفاطمة وتوارث أئمة أهل البيت  هذا العلم الإلهي تبعاً.

وقد أكد لنا القرآن أن ما يقوله النبي ويتفوه به فهو وحي يوحى علمه شديد القوى، وما ينطق عن الهوى إنه رسول نبي كريم.

إذن هذه التركيبة الضخمة من الإخبارات الغيبية لهي معلم من معالم ثقافتنا الإسلامية وهي شارة صدق في دروب المعرفة والتفكير والتحليق في رحاب الغيب، والانفتاح على نواميس الكون، وما فيه من الغاز ورموز ولا يدرك حلها إلا هو وأهل بيته .

وهي كذلك أسلوب من أساليب الدعوة إلى الدين لمن تخلق هذه الإخبارات في روحه إثارة وتومض في وجدانه ومضة.

وقد استلم عليّ  هذه الثروة الهائلة من الإشارات الصادقة والتنبيهات الندية ومشى على هدي ما فيها بدون أن تتخلل بينها وبين إيمانه بها ووضوحها لديه تطوّر الزمن وتبدلاته وكثرة أحداثه.

فأحداث النهروان واضحة جلية يعرف فيها أشخاصها المفتونين وما سيؤول من أمورهم وبالتالي فهو يتحرك على اتجاهين.

الأول: الخزين الغيبي الذي ألفه وتلقاه من معلم مدرسته النبي الأعظم ﷺ.

الثاني: الحركة على أساس خطة العمل الذي يجمع على أصولها المسلمون فما رواه عن النبي ﷺ قال:

إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن آخر من السماء أحب إلي من أن أكذب على رسول الله ﷺ وإذا حدثتكم فيما بيننا عن نفسي فإن الحرب خدعة وإنما أنا رجل محارب سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج في آخر الزمان قوم أحدث الأسنان سفهاء الأحلام قولهم من خير أقوال أهل البرية صلاتهم أكثر من صلاتكم وقراءتهم أكثر من قراءتكم لا يجاوز إيمانهم تراقيهم يمرقون من الذين كما يمرق السهم من الرمية فاقتلوهم^(١).

وقد تواترت الأخبار عنه ﷺ في ما وعد الله تعالى قاتلي الخوارج من الثواب فعلى لسانه ﷺ بينا هو يقسم قسماً جاء رجل من بني تميم يدعى ذا الخويصرة.

فقال: أعدل يا محمد.

فقال: قد عدلت.

فقال له ثانية: أعدل يا محمد فإنك لم تعدل.

فقال ﷺ: ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل!

فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله إئذن لي أضرب عنقه.

فقال: دعه فسبخرج من ضئضىء^(٢) هذا قوم يمرقون من الذين كما يمرق السهم من الرمية ينظر أحدكم إلى نصله فلا يجد شيئاً فينظر إلى نضيه^(٣) فلا يجد شيئاً ثم ينظر إلى القذذ^(٤) فكذلك سبق الفرث والدم يخرجون على حين فرقة من الناس تحتقر صلاتكم في جنب صلاتهم وصومكم عند صومهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم آيتهم رجل أسود مخدج^(٥) اليد إحدى يديه كأنها ثدي امرأة أو بضعة تدردر^(٦).

ولما دارت الدائرة على أهل النهروان وكان فيهم ذر الثدية فطلبه علي عليه السلام طلباً حثيثاً وقلب القتلى ظهراً لبطن فلم يقدر عليه فساءه ذلك وجعل يقول:

والله ما كذبت ولا كذبت إطلبوا الرجل وإنه لفي القوم.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٦٧/٢.

(٢) ضئضىء: جنس.

(٣) النضى: القذح وهو السهم قبل أن ينصل ويريش.

(٤) القذذ: ريشة السهم.

(٥) مخدج اليد: من أخدجه الله إذا نقص عضواً منه.

(٦) تدردر: أي ترجرج نجىء وتذهب أنظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٦٦/٢.

فلم يزل يتطلبه حتى وجده وهو رجل مخدج اليد كأنها ثدي في صدره^(١).

ولما أخبرت عائشة بأن علياً عليه السلام قتل ذا الثدية قالت: لعن الله عمرو بن العاص فإنه كتب إليّ يخبرني أنه قتله بالإسكندرية ألا إنه ليس يمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «يقتله خير أمتي من بعدي»^(٢).

وكان النبي ﷺ قد أخبر علياً أنك ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين وهي من دلائل نبوته.

وكان النبي ﷺ أيضاً قد أخبر بأن هؤلاء سيقتلون أهل الإسلام ويقيمون السيف فيهم ويحزّمون قتل كل من إنتمى إلى اليهود أو إلى النصارى أو إلى المجوس وعلى هذا شهد لهم بالمروق من الدين كما يمرق السهم من الرمية^(٣).

ولقد رأيناهم لما انصرفوا عن رايات علي عليه السلام هددوا الناس بالقتل فأتت طائفة منهم على النهر إلى جنب قرية فخرج منها رجل مدعوراً آخذاً بثيابه فأدركوه فقالوا له: أأرعبناك؟

قال: أجل.

فقالوا: قد عرفناك أنت عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ.

قال: نعم.

قالوا: فما سمعت من أهلك يحدث عن رسول الله ﷺ.

قال: إن رسول الله ﷺ قال:

«إن فتنة جائية القاعد منها خير من القائم».

وقال: «إن طائفة تمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية يقرؤون القرآن صلاتهم أكثر من صلاتكم».

فضربوا رأسه فسال دمه في النهر ما إذ قرّ - أي ما اختلط بالماء - كأنه شراك.

ثم دعوا بجارية له حبلى فبقروا عما في بطنها^(٤).

(١) بحار الأنوار: ٣/٣٥١.

(٢) أنظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢/٢٦٨.

(٣) أنظر الفصل لابن حزم: ٣/١٨٩.

(٤) بحار الأنوار: ٣٣/٣٤٥.

وقد أرشد النبي ﷺ جمعاً من أصحابه ووعوا بعضهم إرشاده ودرسه وهو الأمر بقتالهم تحت راية من يقاتلهم على تأويل القرآن وهو عليّ عليه السلام قال عمار . أمرني النبي ﷺ بقتال الناكثين وقد فعلت وأمرني أن أقاتل القاسطين فأنتم هم وأصحابك - يشير إلى عمرو بن العاص - وأما المارقين فما أدري أدركهم أم لا^(١) .

وعن محمد بن سليمان قال : قدم علينا أبو أيوب الأنصاري فنزل ضيعتنا يعلف خيلاً له فقلنا : قاتلت المشركين ثم جئت تقاتل المسلمين فقال :

إن النبي ﷺ أمرني بقتال القاسطين والمارقين والناكثين فقد قاتلت الناكثين والقاسطين وأنا إن شاء الله بالنهروانات وما أدري أنى هي^(٢) .

ويحدثنا المسيب بن نجيعة يقول : لما أتانا سلمان قادمًا تلقيناه - إلى أن قال - ثم سار حتى انتهى إلى حروراء فقال : ما تسمون هذه الأرض قالوا حروراء .

فقال : خرج بحروراء شرّ الأولين ويخرج بها شرّ الآخرين^(٣) .

هذه إضمادات نبوية وإشارات نابهة يضعها لنا رسول الله ﷺ كما وضعها لأصحابه في طريق المعرفة من أجل أن نصل إلى الحق من طريق الحق ولئلا تشط بنا الخطي في وسط الطريق كما إنكفأ من لا حظ له في الدنيا ولا نصيب له في الآخرة فاختار غير طريق أمير المؤمنين عليه السلام . فهي بواعث أمل ودلائل واضحة ثبّتنا الله عليها إلى آخر نفس في الحياة .

(١) صفين لنصر بن مزاحم المقرئ .

(٢) رجال الكشي :

(٣) رجال الكشي :

إشارات وتنبيهات علوية

عليّ عليه السلام واحد من أولئك المتألهين عبر الزمان من أنبياء وأوصياء وعباد صالحين بل فاقهم في هذا الاتجاه، ومن يعيش مع الله تعالى يفتح الله له قلبه فيشرف على الغيب ويقرأ التاريخ في ماضيه وحاضره ومستقبله.

وحين ندرك أن علياً عليه السلام كان يرى في دفاتر مستقبل الإسلام والحياة الإسلامية هكذا نحو من التوجهات البغيضة ضده فلماذا لا يعلن حربه ضدها من أول يوم وينهي الصراع؟

ذلك ما نتمناه ونرغب في أن يكون، ولكن أليست هذه الأرض هي ساحة لصراع الحق والباطل؟

ثم لو كشف لعلّي عليه السلام غطاء المستقبل ومصير الأفراد وما هم عليه . ومصير الأمم والحضارات، ثم لم يمارس عليّ عليه السلام دور الدعوة والتربية لها في منطقها الإسلامي الواضح أليس ذلك تعطيل لأحكام الله في الحياة؟

ثم هل العقوبة قبل الجناية واردة في تشريعنا الخلاق؟

فلا يمنع من أن يرى الإنسان كل شيء فيما هو رأي العين فلا يقيم أثراً إلا عندما تدعو الضرورة الدينية القائمة على مقاييس شرعية ثابتة، فهي أشبه شيء بمعلومات إضافية إلى القرار الديني.

فعليّ عليه السلام ليس بينه وبين الغيب حجاب فلقد فرقه القرب والحب والتعلق والهيام بالله تعالى .

يروى أنه خرج ذات ليلة من مسجد الكوفة متوجّهاً إلى داره وقد مضى ربع من الليل ومعه كميل بن زياد وكان من خيار شيعته ومحبيه فوصل في الطريق إلى باب رجل يتلو القرآن في ذلك الوقت ويقرأ:

«أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب».

بصوت شجي حزين فاستحسن كميل ذلك في باطنه وأعجبه حال الرّجل من غير أن يقول شيئاً فالتفت صلوات الله عليه وآله إليه وقال :

يا كميل لا تعجبك طنطنة الرّجل إنه من أهل النار وسأنبئك فيما بعد .

فتحير كميل لمكاشفته له على ما في باطنه ولشهادته بدخول النار مع كونه في هذا الأمر وتلك الحالة الحسنة .

ومضى مدة متطاولة إلى أن آل حال الخوارج إلى ما آل وقتلهم أمير المؤمنين فالتفت أمير المؤمنين إلى كميل وهو واقف بين يديه والسيف في يده يقطر دماً ورؤوس أولئك الكفرة الفجرة محلقة على الأرض فوضع رأس السيف على رأس من تلك الرؤوس وقال :

يا كميل أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً . . . هو ذلك الشخص الذي كان يقرأ القرآن في تلك الليلة فأعجبك حاله فقبل كميل قدميه وإستغفر الله^(١) .

وقد استخدم الإمام عليه السلام مع الخوارج طريقة التخويف من وراء التهديد المستمر وإبراز الصورة التي سيكونون عليها فيما بعد فقال عليه السلام :

فأنا نذير لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر وبأهضام^(٢) هذا الغائط^(٣) .

وأوعد زرعة بمصيره المؤلم وذلك حين دخل النخيلة ودخل معه كثير من الخوارج فدخل حرقوص بن زهير السعدي وزرعة بن البرج الطائي - وهما من رؤوس الخوارج - عليه عليه السلام فقال له حرقوص، تب من خطيئتك وأخرج بنا إلى معاوية نجاهده .

فقال له علي عليه السلام : إني كنت نهيتكم عن الحكومة فأبيتُم ثم الآن تجعلونها ذنباً أما إنها ليست بمعصية ولكنها عجز من الرأي وضعف في التدبير وقد نهيتكم عنه .

فقال زرعة : أما والله لئن لم تتب من تحكيمك الرّجال لأقتلنك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه .

(١) إرشاد القلوب للديلمّي : ٢٢٦/٢ بتصرف .

(٢) الأهضام : جمع هضم وهو المطمئن من الوادي والغائط ما سفل من الأرض .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢٦٥/٢ .

فقال له علي عليه السلام بؤساً لك ما أشفاك! كأتني بك قتيلاً تسفي عليك الرياح .
قال زرعة : وددت أنه كان ذلك^(١) .

وأخير عليه السلام ربيعة بن شداد الخثعمي - وكان شهد معه الجمل وصفين ومعه راية خثعم - فقال له عليه السلام بايع علي كتاب الله وسنة رسوله ، وكانت هذه المبايعة قد أحدثها المسلمون بعد اختلاق الضجة التي أحدثها الخوارج بعد التحكيم تأكيداً منهم علي مواصلة الطريق مع علي عليه السلام .

فقال له الخثعمي علي سنة أبي بكر وعمر .

فقال عليه السلام له ويلك لو أن أبا بكر وعمر عملاً بغير كتاب الله وسنة رسوله لم يكونا علي شيء من الحق ، أما والله لكأتني بك وقد نفرت مع هذه الخوارج فقتلت وكأتني بك وقد وطئت الخيل بحوافرها - فقتل يوم النهر مع خوارج البصرة ووطأته الخيل وشدخوا وجهه ورأسه^(٢) .

ولما خرج علي عليه السلام إلى أهل النهر أقبل رجل من أصحابه ممن كان علي مقدمته يركض حتى انتهى إلى علي عليه السلام .

فقال : البشرى يا أمير المؤمنين .

قال : ما بشراك؟

قال : إن القوم عبروا النهر لما بلغهم وصولك فأبشر فقد منحك الله أكتافهم .

فقال له : الله أنت رأيتهم قد عبروا!

قال : نعم ، فأحلفه ثلاث مرات في كلها يقول نعم .

فقال علي عليه السلام : والله ما عبروه ولن يعبروه وإن مصارعهم لدون النطفة .

والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لن يبلغوا الأثلاث ولا قصر بوازن حتى يقتلهم الله وقد خاب من إفتري .

ثم أقبل فارس آخر يركض فقال كقول الأول فلم يكثرث علي عليه السلام بقوله وجاءت الفرسان كلها تقول مثل ذلك .

(١) تاريخ الطبري : ٤٠/٦ .

(٢) بهج الصباغة للتستري : ١٤٣/٧ .

فقام عليّ عليه السلام فجال في متن فرسه، فقال شاب من الناس والله لأكونن قريباً منه فإن كانوا عبروا النهر لأجعلن سنان هذا الرمح في عينه أيّدعي علم الغيب.

فلما انتهى عليّ عليه السلام إلى النهر. وجد القوم قد كسروا جفون سيوفهم وعرقبوا خيلهم وجثوا على ركوبهم وحكموا تحكيمة واحدة بصوت عال له زجل.

فنزل ذلك الشاب فقال: يا أمير المؤمنين إني كنت شككت فيك آنفاً وإني تائب إلى الله وإليك فاغفر لي.

فقال عليّ عليه السلام إن الله هو الذي يغفر الذنوب فاستغفروه^(١).

ولما أمر عليّ عليه السلام أصحابه أن يحملوا على الخوارج قال لهم: إحملوا عليهم فوالله لا يقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشرة، فحمل عليهم فطحنهم طحناً قتل من أصحابه عليه السلام تسعة وأفلت من الخوارج ثمانية^(٢).

فقل له عليه السلام يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم فقال:

كلّا والله إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصاً سلابين^(٣).

ولما أجمع الخوارج المارقون كلمتهم على كفر عليّ عليه السلام قال لهم:

أصابكم حاصب^(٤) ولا بقي منكم أبر^(٥) أبعد إيماني بالله وجهادي مع رسول الله ﷺ أشهد على نفسي بالكفر! لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين فأوبوا شرّ مآب وأرجعوا على أثر الأعقاب.

أما أنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً وأثرة^(٦) يتخذها الظالمون فيكم سنة.

وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم وقد وقع ذلك فإن الله قد سلط على

(١) أنظر بهج الصباغة: ٢٧٢/٧.

(٢) أنظر الكامل في التاريخ: ٥٤٣.

(٣) نهج البلاغة: خطبة/ ٦٠.

(٤) الحاصب: الريح الشديدة التي تثير صغار الحصى.

(٥) الأبر: النمام.

(٦) الأثرة: الاستبداد عليهم بالفى والغنائم.

الخوارج بعده الذلّ الشامل والسيف القاطع . والإثرة من السلطان وما زالت حالهم تضمحل حتى أفتاهم الله تعالى وأفتى جمهورهم ولقد كان لهم من سيف المهلب بن أبي صفرة وبنيه الحنف القاضي والموت الزؤام^(١) .

وهكذا يحلّق عليّ عليه السلام في إخباراته عن المارقين ليوجد في ضمير الأمة فسحة تعيشها بصفاء المطمئن الذي يدرس الحاضر على أساس الماضي ذي التجربة الغنية بالأحداث وعلى أساس المستقبل المليء بالقضايا التي تفوّه بها أمير المؤمنين وأشار إليها رسول الله ﷺ .

ولئلا تعيش هذه المفردات الرائعة من العلم الإلهي عند عليّ عليه السلام وحده وهو يواجه فتن عارضة وقد تشمل المجتمع الإسلامي كلّهُ، فالإشارة إليها تثبيت على خطّ الإمامة الذي انطوى على العلم بالمستقبل يقول عليه السلام :

بل إندمجت^(٢) على مكنون علم لو بحث به لأضطربتم إضطراب الأرشية^(٣) في الطوي^(٤) البعيدة^(٥) .

ولقد نبث بهذا المقام وهذا اليوم^(٦) يا أخا كليب ليس هو بعلم غيب وإنما هو تعلم من ذي علم^(٧) .

-
- (١) ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة : ١٣١/٤ وسنفضل للقارئ ذلك في موضوع شخصية الخوارج وحروبهم .
(٢) اندمجت : انطويت .
(٢) الأرشية : الحبال .
(٤) الطوي : البشر .
(٥) نهج البلاغة : خطبة / ٥ .
(٦) نهج البلاغة : خطبة / ١٦ .
(٧) نهج البلاغة خطبة / ١٢٦ .

من آراء الخوارج

يمكننا على وجه السرعة أن نجمل آراء الخوارج في كثير من المسائل الإسلامية التي لها مساس عملي في حركة الإنسان المسلم.

وآراؤهم التي إعتمدوها على امتداد وجودهم في غاية البساطة مما يغلب عليها روح التهور واللافهم مما حدا بهم هذا النزق الذهني إلى ضمورهم تدريجياً وكمقدمة طبيعية لنشوء الاختلاف فيما بينهم وبالتالي لم يبق لهم أثر في الواقع ممدوح لأن ما جاءوا به كان مخالفاً لمحكم الكتاب والسنة وما أجمع المسلمون عليه، ولأنهم قد جرّتهم الانفصالات اللامدروسة تجاه أبهة الخلافة ومقامها السامق ووقوفهم ضد طواغيت بني أمية والعبّاس بشكل غير منظم مما أذى كلّ ذلك إلى استئصالهم من الجذور وإستحال الباقي منهم إلى لصوص سلايين.

ونحن إذ نجمل هذه الآراء على أساس ما تعطينا الصورة الجلية عنهم عند كلّ فرقهم واتجاهاتهم وكيفية نشوء حركة تصحيح لبعض خزعبلاتهم من بعضهم.

لأننا لا ننكر أن دوافع الإختلاف بينهم بعضها قائم على تصحيح فكرة والخروج على أخرى. وهذا من شأنه أن يضع لبنة سليمة في طريق البناء السليم لهم إلا أنهم لم يوفقوا جميعاً إلى إزالة المعتقد الأساس والمحور الذي يدورون حوله وهو تأويل القرآن تأويلاً باطلاً وتكفير الإمام علي بن أبي طالب، وجواز قتل المخالف والأخذ بظواهر القرآن وعدم تحكيم السنة في تبيان ذلك وغيرها مما استعرضناه مجملًا هنا.

فقد تأولوا أن علياً هو الحيران الذي ذكره الله تعالى في كتابه المجيد:

«كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى

إتّنا».

والأصحاب الذين يدعونه إلى الهدى هم الخوارج وعلي بن أبي طالب

يدخل معهم في هداهم فبقي حيران ليس له أصحاب!!!

وقالوا أنزل الله فيه: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو لئذ الخصام».

وقالوا في قتله ابن ملجم أن الله أنزل فيه: «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله»^(١).

وعلى هذا المعنى أن علياً بعد أن نقموا عليه تذكروا أن الله وصمه وندد به أما ما كانوا عليه من الموافقة معه قبل التحكيم فهو أمير المؤمنين!!

يا لها من مهازل الذهن وفقدان البصيرة؟!

فأضحى علي بن أبي طالب كزهر الدنيا كافراً ومن ورائه الرعية أمة محمد ﷺ الغائب منها والشاهد.

ولهذا جاءت فتاواهم تقول: أن الدار دار كفر: «يقصدون دار مخالفيهم» إلا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا توارثهم.

ومن حُل دمه فقد حلّ ماله وعرضه، ولبعض فرقهم عندهم أنه لا يباح مال مخالف إلا إذا قتل ولا يقتل من لا يقاتل، وبعضهم لا يستحلون مال أحد حتى يقتلوه فإن لم يجدوا صاحب المال لم يتناولوا من ذلك المال شيئاً دون أن يظهر صاحبه فيقتلوه فإذا قتلوه حينئذ استحلوا ماله وقد جعلوا هذا شريعة لهم^(٢).

وأستحلوا دم كل من يقول أنا مسلم واستحرموا دماء اليهود والمجوس والنصارى.

ولعل المتأني يصل إلى نتيجة من خلال ما ورد عنهم من فتاوى وأحكام وقرارات بهذا الشأن.

فاليهود أهل غطرسة في التاريخ والنصارى لهم إمتدادهم المذهبي في الأمم، والمجوس لا يرون إلا أنفسهم لما أصابهم من الإغترار بإمبراطوريتهم والأبعاد الحضارية التي هم عليها.

فلما جاء الإسلام عطل كل فسادهم وأدال صروح دولهم وفرض عليهم

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة: ٨١/١.

(٢) الكامل للميزد: ١٧٨/٢.

الجزية مقابل بقائهم على الأرض حيث لا يحق لهم الحياة عليها.

وحزّر العرب المسلمون بلاد فارس من جور حكامهم وترهات حضارتهم ودخلها الإسلام ديناً قيماً لا أمت فيه ولا عوج.

فما عسى اليهود والنصارى والمجوس أن يعملوا ضدّ هذه الدعوة الجديدة أقاموا بوجهها السدود وزرعوا الأشواك وشاء الله أن يخرج الإسلام منتصراً.

فأخذوا يتحيلون في الدخول فيه إبتغاء إضعافه من داخله وحتّ قواه في الوقت الذي يسهم في إنجاح خططهم الغباء الذي أطبق على جمهرة من المسلمين الذين رضوا بحكام لهم صلات وعلاقات بهذه الكيانات المناوئة للإسلام.

إمّا عن انتحال حقيقي مبرقع أو عن بقاء على الجاهلية الأولى والتغني على أوتارها الخرقاء ولكنه التنسيق والتعاون للإطاحة بالإسلام.

ولهذا عندما إنفلت الخوارج عن الرّباط الإسلامي في كلا قسميه الإلهي الذي يمثله عليّ عليه السلام أو القاسط الذي يمثله معاوية.

وإن نحن نتحفّظ على إسلام معاوية ولمن يقرأه بعمق ويتابع غاراته بعد التحكيم على الفصائل المؤمنة والمدن الآمنة، والعلاقات القائمة بينه وبين الرومانيين النصارى، لا يتسنى له أن يفصل من حيث الإنتماء أو الإرتماء في أحضانهم عن الخوارج.

إلاّ أن الفارق فيما بينهما أنّ معاوية في توقيته لضرب الكيان الإسلامي ذو خطوات يحتاج لها زمن، والكيانات المناوئة للإسلام من يهود ونصارى ومجوس تريد التعجيل في خلخلة كيان الإسلام وزعزعته وإشتغاله بنفسه حتّى لا يفكر أحد وخليفة المسلمين المنتخب هو العدو اللدود لليهود ينتظر الفرصة لتصفية الأجواء وتنقيتها من كلّ العوائق والعكر اليهودية في البلاد الإسلامية.

ولهذا تحرّك الخوارج وهم يحملون أفكاراً ومبنيات تحصّن الوجود اليهودي وغيره وتستبيح الإسلام والمسلمين في دمائهم وأمنهم.

فمن فتاواهم أنّهم لا يرون أخذ الجزية من المجوس.

ومن قال لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله بلسانه ولم يعتقد ذلك بقلبه بل اعتقد الكفر أو الذهريّة أو اليهودية أو النصرانية فهو مسلم عند الله مؤمن ولا يضرّه

إذا قال الحق بلسانه ما اعتقد بقلبه^(١).

وذكر بعض من جمع مقالات المنتمين إلى الإسلام أن فرقة من الإباضية رئيسهم يدعى زيد بن أبي أبيسة - وهو غير المحدث المشهور - كان يقول: أن في هذه الأمة شاهدين عليها هو أحدهما والآخر لا يدري من هو ولا أين هو ولا يدري لعله قد كان قبله وإن من كان من اليهود والنصارى يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى العرب لا إلينا كما تقول العيسوية من اليهود قال فإنهم مؤمنون أولياء الله تعالى وإن ماتوا على هذا العقد وعلى التزام شرائع اليهود والنصارى وإن دين الإسلام سينسخ بنبي من العجم يأتي بدين الصابئين وبقرآن آخر ينزل عليه جملة واحدة^(٢).

ومن فتاواهم أنهم أوجبوا على الحائض الصلاة والصيام في حيضها وقال بعضهم لا ولكن تقضي الصلاة إذا طهرت كما تقضي الصيام.

وأباحوا دم الأطفال ممن لم يكن في عسكرهم وقتل النساء أيضاً ممن ليس في عسكرهم.

وقالوا: أن الإمام إذا قضى قضية جور وهو بخراسان أو بغيرها حيث كان من البلاد ففي ذلك الحين نفسه يكفر هو وجميع رعيته حيث كانوا من شرق الأرض وغربها ولو بالأندلس واليمن فما بين ذلك من البلاد.

وقالوا: لو وقعت قطرة خمر في جيب ماء بفلاة من الأرض فإن كل من خطر على ذلك الجيب فشرّب منه وهو لا يدري ما وقع فيه كافر بالله تعالى.

قالوا: إلا أن الله تعالى يوفق المؤمن لإجتنابه^(٣).

وقالوا: المنافقون على عهد رسول الله ﷺ إنما كانوا موحدين لله تعالى أصحاب كبائر.

وكلّ ذنب صغير أو كبير ولو كان أخذ حبة خردل بغير حق أو كذبة خفيفة

(١) أنظر الفصل لابن حزم: ١٨٩/٤.

(٢) راجع الفصل لابن حزم: ١٨٩/٤ يقول ابن حزم إلا أن جميع الإباضية يكفرون من قال بشيء من هذه المقالات انتهى، ولهذا نرى أن الإباضية استمر بهم الحال إلى الآن في قيام مذهبهم لإبتعادهم عن هذه السفاسف وإن إنطووا على غيرها إلا أنها خفيفة وغير مسفة إلى حد ما.

(٣) نفس المصدر السابق.

على سبيل المزاح فهي شرك بالله وفاعلها كافر مشرك مخلد في النار إلا أن يكون من أهل بدر فهو كافر مشرك من أهل الجنة وهذا حكم طلحة والزبير عندهم^(١).

وهذا مما يعزز الصلة فيما بينهم وبين الوجوه التي نكثت العهد ونقضت الميثاق والبيعة مع علي عليه السلام وهم متهمون بولاءهم لليهودية^(٢) من ذي قبل كطلحة فتأمل.

ولهم في خصوص اتخاذ إمام وسائس مزيد من الأخذ والرد والرفض والقبول.

فبعضهم يقول بوجوب إقامة إمام، والبعض الآخر يرى إقامته مصلحياً لا شرعياً^(٣)، وآخرون يذهبون إلى تجويز إمامين في عصر واحد. ما لم تجتمع الكلمة ولم يقهر العدو^(٤).

وأصحاب نجدة بن عويم الحنفية يقولون: ليس على الناس أن يتخذوا إماماً إنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم^(٥).

ولهذا لما طرحوا شعارهم: لا حكم إلا لله كان يتضمن غياب القائد والإمام والقائم بأمور الدين.

وإنما يحكم الله تعالى عبر كتابه المجيد فمن خلال القيمين عليه والحاكمين به.

كما أن طبيعة الحياة الإسلامية وغيرها لا تتحمل الفوضى في وقت أصبح لزماً على أهله أن ينظموا أمورهم وفق أطروحات حضارية ومتبنيات سليمة.

ولهذا أشار الإمام علي عليه السلام لما سمع منهم ذلك مستغرباً هذا القرار الذي يمثل انفلاتاً من عقال القانون الذي تعارفه الناس برهم وفاجرهم فقال:

كلمة حق يراد بها باطل! نعم إنه لا حكم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون لا إمره إلا لله وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع

(١) انظر الفصل لابن حزم: ١٩١/٤.

(٢) لنا في هذا المعنى كلام تجده في كتابنا الناكثون في الجمل.

(٣) أنظر الملل والنحل للشهرستاني: ص ١٣٧.

(٤) الفصل لابن حزم: ١٩٠/٤.

(٥) نهج البلاغة: كتاب: ٤٠.

فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاقل به العدو وتأمين به السبل^(١).

وهكذا تراهم يتخبطون خبط عشواء لا يبصرون الطريق ولا يهتدون السبيل فليس هناك من يفصل ويبت في أمورهم السياسية فالرجرجة في الموقف وما تمليه عليهم طبيعة الأحداث المتغيرة التي يواجهون بها الحياة ويواجهونها عند كل منعطف هي السمة الغالبة عليهم.

ولهذا فهم يحتاجون في حركتهم إلى ما يلزم التابعين لهم فليس هناك من يمنحه مرضه أو شيخوخته العذر في الهجرة معهم أو القتال فمن ثقل عن هجرتهم فهو منافق^(٢).

أضف إلى آراء لهم وتمحلات أركستهم في حمأة الجهل وأحلت بدارهم البوار وأبعدهم عن الساحة الفقهية والعقيدية التي يتسابق فيها المسلمون كل حسب إجهاده ولكن في إطار الفهم الموحد للقرآن وما ورد عن السنة الشريفة وما جاء عندهم من اختلاف في الرأي فهو من الإجهاد الذي يعزز الحكم والرأي فيعطيه دفعا إلى أمام ويبني للإسلام حياة فكرية قائمة على التفتح مما يجعله صالحا يتمشى مع ركب الحياة وحركة التجديد فيها والتجدد.

فمما ينفر منه الرأي السليم ويتهذد به القرآن المجيد في تخلية ساحة النبوات من إرتكاب الذنب ومقارفة المعاصي وما تؤكد مدرسة الخوارج من أن إرتكاب الكبيرة كفر بل إن كل ذنب جاهل بالله تعالى والجهل بالله، عندهم كفر.

فهم يجوزون على الأنبياء أن يرتكبوا الكبائر والصغائر وقد أخذوا ذلك من ظاهر قول الله تعالى.

«إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر»^(٣).

فهم يفترضون بعد أن يرتكب النبي ﷺ الكبير من الذنب أو الصغير فإنه يغدو كافراً وعلاج رجعتة إلى دينه وإلى هداه فإنه يعلن توبته وبذلك يصح منه إسلامه.

(١) أنظر الفصل لابن حزم: ١٩٠/٤.

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية: ٨١/١.

(٣) الملل والنحل للشهرستاني: ص ١٣٧.

وقالوا يجب البراءة من الطفل حتى يدعى إلى الإسلام ويجب دعاؤه إذا بلغ وأطفال المشركين في النار مع آبائهم.

وناقض بعضهم فقالوا لو عذب الله العباد على أفعال قدرها عليهم أو على ما لم يفعلوه كان ظالماً، وقضوا بأن أطفال المشركين في النار ولا عمل لهم ولا شرك^(١).

وأجازوا نكاح بنات البنات وبنات أولاد الإخوة والأخوات.

وجوّزوا تزويج المسلمات من مشركي قومهم أصحاب الكبائر!

وأنكروا رجم الزاني وأسقطوا الحدّ عن الزاني المحصن لأنّ حدّ الرّجم لم يذكر في القرآن.

وكذلك أسقطوا الحدّ عمن يقذف الرجال بخلاف من يقذف النساء حيث قذف الرجال لم يذكر في القرآن والثاني مذكور.

وقالوا من لم يعرف الله بجميع أسمائه وصفاته فهو جاهل به والجاهل به كافر حتى يصير عالماً بجميع ذلك فيكون مؤمناً.

وأن تارك الصلاة كافر لا لأجل تركه الصلاة لكن لجهله بالله.

وأنكروا سورة يوسف من القرآن لأنّ فيها حبّ وغرام!!

ويعظمون جريمة الكذب على شرب الخمر والزنى فيزعمون أنّ من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة ثمّ أصرّ عليها فهو مشرك وإنّ من زنى وسرق وشرب الخمر غير مصرّ عليه فهو مسلم إذا كان من موافقيهم.

ولعلنا إن مشينا مع هذه الخزعبلات يطول بنا ونحن نروم الاختصار ولا شيء عندنا إلا أن نضع بين يدي القارئ هذه التمحلات ليرى بأمّ عينيه ما لأعداء عليّ والخارجين عليه من سوء والجهل والطيش ومخالفة الكتاب والسنة.

ولهذه الإجتهدات المختلفة الأثر في إيجاد مساحة كبيرة لنشوء صراعات ذهنية على طول الخطّ، لأنّ القاسم المشترك الذي وخدمهم في خندق واحد هو تكفير عليّ والخروج عليه، أمّا ما استحدث من آراء وأرقام جديدة في مسار الفكر

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل لابن حزم: ١٧٣/١.

والثقافة والموقف تجاه الأمة الإسلامية فذلك خاضع لرأي فرد أو أفراد وليس بالضرورة أن يقتنع الآخرون به، ما دام الفهم غير متساوٍ والإدراك متباين في مسائل الدين والشريعة والإنفلات غداً طبيعياً.

فبدأت المعارضة الشديدة والنقمة على الخوارج وأخذت تتسع لأنَّ المحرَّك باتجاه التمرد التدريجي على المحكم القرآني والسنة المبيَّنة الموضحة للمتشابه فيه لا يتنازع عليه.

أضف إلى عدم وجود حجة في الرأي ومقياس تقاس عليه الأمور ولهذا رأينا الجرأة متناهية في إحداث مسائل جرّت الويلات على الأمة فيما أغرت جمهرة من المسلمين أن حملوا السيف في وجهها.

ثمَّ لا نعدم أن خرجت من هذه الزمرة الضالة من انفتح على الحياة الإسلامية في رأيها الفقهي والتعايش معها واتخاذ أسلوب المرونة والسلمية^(١).

فبينا تفتي الأزارقة^(٢) بأنَّ الدار دار كفر وأنهم جميعاً في النار والتقية معهم لا تحلّ مستدلين بقوله تعالى:

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ... وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾^(٣).

يقول النجدات^(٤) في الردِّ عليهم محتجِّين بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾^(٥).

وكذلك يكفر الأزارقة القعدة ومن لا حيلة له في الجهاد والهجرة وكذلك حللوا قتل الأطفال واستحلوا الغدر بأمانة من خالفهم.

نجد نجدة بن نافع يثور على هذه الآراء ولا يجعل لها من نفسيته نصيباً فيردها مستدلاً بقوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ

(١) امثال الأباضية والصفورية.

(٢) جماعة نافع بن الأزرق الحنفي.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٤) أصحاب نجدة بن نافع.

(٥) سورة غافر: الآية ٣٨.

خرج إذا نصحوها لله ورسوله^(١).

ويندد بقتل الأطفال مستدلاً بقوله تعالى:

﴿ولا تزر وازرة أخرى﴾^(٢).

ويقول في القعدة: وقد قال الله سبحانه في القعدة خيراً فقال:

﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾^(٣).

فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يرفع منزلة من هو دون المجاهدين أو ما سمعت قوله تعالى:

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾^(٤) فجعلهم من المؤمنين.

وأزعجه الرأي الذي يستحل الغدر بأمانات من خالفهم فقال للأزرق: ثم إنك لا تؤدي أمانة إلى من خالفك والله تعالى قد أمر أن تؤدي الأمانات إلى أهلها^(٥).

فلما بلغ الأزرق هذا الاحتجاج عليه عبر رسالة أرسلها نجدة إليه ردها مبيناً الأدلة في اتخاذ هكذا آراء فقال:

أما هؤلاء القعدة فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله ﷺ لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلاً ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً وهؤلاء قد تفقهوا في الدين وقرأوا القرآن والطريق لهم نهج واضح وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلهم إذ قالوا: ﴿كنّا مستضعفين في الأرض﴾^(٦).

فقال:

﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾^(٧).

وقال سبحانه:

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم

(١) سورة التوبة: الآية ٩١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٥.

(٣) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٤) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٥) أنظر شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة: ١٣٦/٤.

وأنفسهم في سبيل الله^(١).

وقال: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾^(٢) فخبّر بتعذيرهم وأنهم كذبوا الله ورسوله ثم قال:

﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾^(٣) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأما الأطفال فإن نوحاً نبى الله كان أعلم بالله مني ومنك وقد قال:

﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾^(٤).

فسمّاهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يولدوا فكيف كان ذلك في قوم نوح ولا تقوله في قومنا والله تعالى يقول:

﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزُّبر﴾^(٥).

وهؤلاء كمشركي العرب لا يقبل منهم جزية وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأما استحلال أمانات من خالفنا فإن الله تعالى يقول أحلّ لنا أموالهم كما أحلّ دمائهم لنا، فدمائهم حلال طلق^(٦)، وأموالهم فيء للمسلمين^(٧).

(١) سورة النساء: الآية ٩٧.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٧.

(٣) و (٤) سورة التوبة: الآيات ٨١ و ٩٠.

(٥) سورة التوبة: الآيات ٨١ و ٩٠.

(٦) سورة نوح: الآيات ٢٦ و ٢٧.

(٧) سورة القمر: الآية ٤٣.

(٨) أي حلال طيب.

(٩) أنظر الكامل للمبرّد: ٦١٣ طبع أوروبا.

إختلاف الخوارج فيما بينهم

من فرق الخوارج فرقة العجاردة أتباع عبد الكريم بن عجرد^(١) فافترقوا إلى فرق لخلاف عقائدي وفقهي بينهم .

يروى أنّ رجلاً منهم اسمه شعيب كان مديناً لآخر اسمه ميمون فلما تقاضى هذا دينه .

قال شعيب : أعطيكه إن شاء الله .

فقال ميمون : قد شاء الله ذلك في هذه الساعة .

فقال شعيب : لو شاء لم أستطع إلا أن أعطيكه .

فقال ميمون : قد أمر بذلك ، وكلّ ما أمر به فقد شاء ، وما لم يشأ لم يأمر

به .

فأرسل شعيب وميمون إلى رئيسهم وإمامهم عبد الكريم عجرد فأجابهم إجابة مبهمة ، فادعى كلّ منهم أنّ إجابته توافق رأيه فانقسموا بناءً على هذا الاختلاف إلى شعيبية وميمونية .

ولأحدهم اسمه ثعلبة كانت له بنت فخطبها عجردي وأرسل إلى أمها يسألها .

أن إذا كانت قد بلغت ورضيت الإسلام على الشرط الذي يعتبره العجاردة لم

يبال كم كان مهرها؟

فأجابت الأم إنها مسلمة في الولاية سواء بلغت أم لم تبلغ ، وهذا الرأي

مخالف لهم ، فرفع الأمر إلى إمامهم عبد الكريم عجرد فاختر البراءة من الأطفال .

فلم يحظ هذا القول بقبول أبيها ثعلبة فاستقل هو الآخر برأيه وأنشأ فرقة

سمّيت فيما بعد بالثعلبية .

(١) أنظر في التفصيل عنهم الملل والنحل : ١١٢/١ .

وبرز في أفق الخوارج فرقة الأزارقة وهؤلاء كانوا تبعاً لنافع بن الأزرق الحنفي وقد قاتلوا عبد الله بن الزبير والأمويين طيلة تسع عشرة سنة.

وكان سبب اختلافهم مع الخوارج أن امرأة من أهل اليمن عريية ترى رأي الخوارج تزوجت رجلاً من الموالي على رأيها، فقال لها أهل بيتها فضحتنا فأنكرت ذلك فلمّا أتى زوجها قالت له: إن أهل بيتي وبني عمي قد بلغهم أمري وقد عيروني وأنا خائفة أن أكره على تزويج بعضهم فاختر متي إحدى ثلاث خصال.

إما أن تهاجر إلى عسكر نافع حتى نكون مع المسلمين في حوزهم ودارهم.

وإما أن تخبأني حيث شئت.

وإما أن تخلي سبيلي فخلي سبيلها.

ثم إن أهل بيتها استكروها فزوجوها ابن عم لها لم يكن على رأيها فكتب ممن بحضرتها بأمرها إلى نافع بن الأزرق يسألونه عن ذلك.

فقال رجل منهم: إنها لم يسعها ما صنعت ولا وسع زوجها ما صنع من قبل هجرتهما لأنه كان ينبغي لها أن تلحق بنا لأننا اليوم بمنزلة المهاجرين بالمدينة ولا يسع أحد من المسلمين التخلف عنا كما لم يسعنا التخلف عنهم فتابعه على قوله ذلك نافع بن الأزرق وأهل عسكره إلا نفرأ يسيراً وبرئوا من أهل التقية وأحدثوا أشياء.

وقد أقام نافع بن الأزرق بموضعه من الأهواز واستتب له الأمر هناك وكان نافع يفتي بفتاوى لم تكن ليقنع بها نجدة بن عامر فردّها وإنشق عليه^(١).

وخالف نجدة زياد بن الأصغر وهذا الأخير خفف إلى حد ما من الغلو الذي عليه نافع ونجدة^(٢).

هذا مجمل لإختلاف الخوارج فيما بينهم وهو يعطينا صورة عن هذا التجمع الذي لم يقم على أصول وأسس سليمة، ولمن يتوغل أكثر ويستقصي فرقهم في مظانها من الكتب المطولة^(٣) يجد أن هذه الأمة قد وزعها الإختلاف المشين كل

(١) راجع الكامل للمبرّد: ٦١٣.

(٢) أغلب ما قرأت في موضوع [مجمل آراء الخوارج] بما فيه من غلو وتعسف فهو من نافع.

(٣) من الكتب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد والملل والنحل للشهرستاني والكامل للمبرّد والفصل لابن حزم الظاهري وتاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة وأكثر كتب التاريخ.

تحت راية رجل حقود وفرقة غاوية ضالة .

وإستعراضنا المجمل السريع هذا أردناه أن يكون لفئة وإثارة في الإطلاع على كيفية الإختلاف .

وكأنّ دين الله تعالى بعد رحيل المصطفى المختار موكول إلى آراء الرّجال واجتهاداتهم .

وليس الغريب أن يكفر ويخرج أحد من الدّين ويرعب أمة القرآن ويقلقها إنّما الغريب لرعاع الناس وغوغائها وبعض من أصبح علماً من أعلام الدّين كيف يستسيغ هذا الطرح ويتولّى هذا الإتجاه ويقدم دماثة بسخاء أمام لا شيء .

إلا أن نقول أنّ الروح القبلية هي التي جمعتهم في هذا الإطار ومن خلالها انفتحوا على مقرّرات القائمين على الحركة المارقة .

فتنة الخوارج

في معركة صفين حيث الدّهاء والمكر الذي استخدمته الحركة الفاسطة ممّا فات على معسكر التوحيد في كثير من مفاصله المقاتلة أنّ عملية التحكيم التي فرضتها وسائل إعلامها المشؤومة خطوة إيجابية في إيقاف نزيف الدّماء وبالتالي تحقيق المطلوب من وراء ما يحكمان به الحكماء والذي لا يعدو حكمهما أن يكون على كتاب الله تعالى كما هو المفترض .

في الوقت الذي بات واضحاً جلياً عند زمرة واعية من أصحاب عليّ عليه السلام الذين رفضوا التحكيم بقوة إلا أنّ الأمر الواقع قد فرض قبولهم لذلك حيث الكثرة الكاثرة التي انفتحت على هذا المشروع وتلقّته بقبول حسن .

ومن هنا ندرك بعمق أنّ الوعي هو الذي يثبّت صاحبه على الخط والتدين الساذج ليس بميسوره أن ينقل صاحبه إلى المواقع المرجوة في الحياة .

فهؤلاء الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليه السلام هم في نفس الوقت كانوا قد خرجوا على معاوية بنفس الحجّة والإعتبار لوقوفهم فيما بعد على خطأهم في قبول مشروع التحكيم .

وقد أبتلي المجتمع الإسلاميّ بهم باعتبارهم ظاهرة جديدة لها ما يبررها في الحركة ويسوّغ خروجها على الخلافة التي رضيت بالتحكيم عند من لا يروق له مشاريع عليّ عليه السلام .

وأصبح عليّ عليه السلام أمام هذا الموج الأهوج كما هو أمام موج الرّدة في الشام فما عساه يصنع وما هي الخطوات الوثيدة التي تهدأ من روعهم وترجعهم فيما هم عليه من الجهل والاستهتار دون ما يعتقدونه إلى رشد متوازن وتدبّر رشيد لأنّهم إن لم يرجعوا إلى الصّف فمعنى ذلك توزيع القوى على جبهتين في آن واحد في الوقت الذي يفترض حسب ما تملي ظروف الحسم العسكري على

الإمام عليه السلام أن ينهي الحساب مع خصمه اللدود الأول معاوية ومن ثم هم .
أضف إلى هذا لو لم يكن في نية هؤلاء أن لا يرفعوا السيف في وجه علي
وحكومته الفتية ل بقي يخوض معهم أسلوب النقاش والموعظة والمساجلات، مع أن
القوم لم يكونوا بهذا المستوى فهم يرون علياً كافراً كما يرون معاوية كذلك
ويطلبون منه أن ينكث العهد وينقض المواثيق التي كانوا هم السبب الرئيس في
قبول علي عليه السلام لها ويتوب عن ذنبه ثم يتوجه من جديد نحو الشام لمقاتلة
معاوية من جديد وهذا ما لا يكون في قاموس علي عليه السلام وها هو ينقل لنا ذلك
ويذكرهم :

نشدتكم بالله أن تعلمون أنهم حين رفعوا المصاحف فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله
قلت لكم إنني أعلم بالقوم منكم إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إنني
صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال إمضوا على
حكمكم وصدقكم إنما رفعوا لكم هذه المصاحف خديعة ووهناً ومكيدة فرددتهم
علي رأبي وقلتم لا بل نقبل منهم فقلت لكم اذكروا قولي لكم ومعهصيتكم إيتاي
فلما أبينم إلا الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحثيا ما أحياء القرآن وأن
يمينا ما أماته القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكم من
حكم بما في الكتاب وإن أبيا فنحن من حكمهما براء^(١).

ولم يكن من بدّ فقد ركبوا جهلهم ورفعوا شعارهم بوجه علي عليه السلام
رافضين ما يقول وما وقع عليه وكان شعارهم المركزي لا حكم إلا لله، وهو شعار
بزاق ظاهره الإيمان والتوحيد ولكنه يعيش في داخله الرذّة والفساد وينطوي أصحابه
على خروج من الدين واضح.

وكان علي عليه السلام يؤكد على فصائل العمل وأبناء مدرسته بما هي الدعاية
ضدّ هذا الشعار والإعلان على المحتوى الوبيء الذي عليه الخارجون عن الصف
الإسلامي في خطّ الإمامة أن هذا الشعار يتضمن نفي وجود سائس وأمير يقود
حركة الإسلام ويوجّه أحداث الحياة وفق الرؤية الإسلامية، وهو الذي تدور عليه
رحى مصلحة الإسلام، فيما هو التشخيص الدقيق لكلّ حدث من وراء رؤاه وفهمه
ووعيه.

ولم تشهد الحياة الإسلامية هكذا نوع من الطرح بل طبيعة الأشياء تفرض أن

(١) الإرشاد للمفيد: ص ١٤٤.

يكون هناك حاكماً مفترض الطاعة يتوجه إليه الناس في ساعات الشدة والرخاء .

أما لو تركت الأجواء بغير قيم على كتاب الله وما جاء به الرسول الأعظم ﷺ من متبنيات لكان الهرج والمرج ولضاع القرآن بالتبع من وراء الأفهام المتعددة له والتأويلات التي تصب في قالب تلك الأفهام .

قال ﷺ : كلمة حق يراد بها باطل نعم إنه لا حكم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة وإنه لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر يعمل في امرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتأمين به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح برّ ويستراح من فاجر^(١) .

ولهذا كان هذا الشعار يقلق الحياة الإسلامية بما يحمل من مأساة في طياته وبين ثناياه .

لأن المسألة إذا رقت إلى تكفير خليفة المسلمين فماذا يكون حكم المسلمين يا ترى؟ وقد أصر الإمام ﷺ على الوفاء بالعهد وانتظار النتيجة التي يفترض أن تكون قرآنية، كما أكد على لزوم الرأي العام والسواد الأعظم لأنهما طوع القرار الصادر من خليفة المسلمين وأما الشاذ عن الجماعة والداعي إلى الفرقة وإن جمل الشعار الإسلامي فلا يعدو أن يكون متأمراً على الإسلام . فقال ﷺ :

ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه وإنما حكم الحاكمان ليجب ما أحيا القرآن ويميت ما أمات القرآن وإحياء الاجتماع عليه وإقامته الإفتراق عنه فإن جزنا القرآن إليهم إتبعناهم وإن جرّهم إلينا القرآن إتبعونا فلم آت لأباً بجرأ^(٢) ولا ختلنكم عن أمركم ولا لبسته عليكم وإنما اجتمع رأي ملائكم^(٣) على اختيار رجلين أخذنا عليهما أن لا يتعديا القرآن فتأها عنه وتركنا الحق وهما يضرانه وكان الجور هواهما فمضيا عليه وقد سبق استثنائنا عليهما في الحكومة بالعدل والضم^(٤) للحق سوء رأيهما وجور حكمهما^(٥) .

فالإمام ﷺ كان أخوف ما يخاف عليه هو أن يتسرّى الحكم إلى القاعدة

(١) نهج البلاغة المختار من كلامه ﷺ : ٤٠ .

(٢) البجر: بالضم، الداهية والأمر العظيم .

(٣) ملائكم: الملاء، أشراف الناس ورؤسائهم .

(٤) الضمد: القصد .

(٥) نهج البلاغة المختار من الكلام : ١٢٧ .

وبالتالي تنسب حرباً أهلية لا مسوغ لها إلا الحماسة والجهل . لأن طبيعة التفكير القاصر حول كفر علي عليه السلام وهو الخليفة على المسلمين سيؤدي بالتالي حكم التكفير لعامة المسلمين وإيجاد فكرة التطهير الشاملة لهذه الأرض التي لا تقل مسلماً كما يزعمون وبالفعل لقد أضحي ذلك متبني فقهيّاً له أصوله التفكيرية القائمة على ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فلهذا قالوا أن الدار دار كفر لا يجوز الكف عن أحد من أهلها، فقتلوا الأطفال والبهائم والصالحين من عباد الله^(١) .

فخاطبهم أمير المؤمنين عليه السلام لما سمع عنهم أنهم قد استهتروا بالحياة من أجل ما يعتقدون ولم يبقوا لأحد إلا ولا ذمة ولم يراعوا لمسلم حرمة قال :

فإن أبيتم إلا أن تزعموا أتى أخطأت وضللت فلم تضلّون عامة أمة محمد ﷺ بضلالي وتأخذونهم بخطأي وتكفرونهم بذنوبي سيفكم على عواقبكم تضعونها مواضع البراءة والسقم وتخلطون من أذنّب بمن لم يذنّب وقد علمتم أن رسول الله ﷺ رجم الزاني ثم صلي عليه ثم ورثه أهله وقتل القاتل وورثه أهله وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ثم قسم عليهما من الفياء ونكحاهن المسلمات فأخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم وأقام حق الله فيهم ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام^(٢) .

(١) أنظر بحار الأنوار : ٣٧٣/٣٣ .

(٢) نهج البلاغة المختار من كلامه : ١٢٧ .

وضع الكوفة

اختار علي عليه السلام الكوفة بعد منصرفه من صفين قاعدة له وعاصمة يدير منها دقة الوضع السياسي للبلدان الإسلامية الأخرى لأنها ذات موقع استراتيجي مهم فهي نافذة على الشام التي تعتبر العقبة الحرون أمام خلافته وإمامته وبين الوضع في الحجاز الذي تتجاذبه الإختلافات القائمة بين العوائل والتي يتوزع الولاء فيها على مقدار ما تملكه الكيانات من إقناع ولياقة وهذا من شأنه أن يضعف هيبة الخلافة ويفقدها صلاحيتها بالتدريج.

وكذلك فالكوفة تكاد تكون قريبة من البصرة التي هي معقل وموقع مهم للرأي العثماني والتصورات التي يملها أنصاره.

أضف إلى كل هذا فالكوفة تتمتع بإقتصاد أرقى بكثير من المدينة وما أحوج ما يكون الخليفة الجديد إلى تأمين اقتصاديات حكومته لأنه الشريان الأبهر لحركة الحياة في كيانها.

وقد توالى على الكوفة عدة ولاة منذ تأسيسها وزرع هؤلاء الولاة بذور التربية التي يريدونها وتكونت لهم فيها مجاميع ومريدون.

مع أن هناك ثلة طاهرة في خط الإمامة إلا أنها لا تشكل القوة الضاربة التي بإمكانها أن تعطف بسير الأحداث والقضايا متى شاءت.

أضف إلى الهجانة التي صبغت المجتمع الكوفي فهو مجتمع خليط من عدة جنسيات.

ولو تسنى لأمير المؤمنين أن يمكث فيهم طويلاً لخلق من هذا المجتمع بشكل مشير مجتمعاً مثالياً رائعاً. لا يمكنه أن ينفصل عنه أو يولي وجهه عن قراراته إلا أن الفترة كانت قصيرة والحجم الإعلامي ضده كان كبيراً وحركة المعارضة جادة لا تلوي على شيء.

ولهذا رأينا جملة من جيشه عليه السلام هموا باللاحاق بالخوارج وكانوا على خوف منه وقد أرسل رجلاً من أصحابه يعلم له علمهم. فلما عاد إليه قال له: آمنوا فقتلوا أم جبنوا فظعنوا؟

فقال الرجل: بل ظعنوا يا أمير المؤمنين.

فقال: بعداً لهم كما بعدت ثمود أما لو أشرعت الأستة إليهم وصبت السيوف على هاماتهم لقد ندموا على ما كان منهم إن الشيطان اليوم قد استغلهم^(١) وهو غداً متبرئ منهم ومخل عنهم فحسبهم بخروجهم من الهدى وإرتكاسهم^(٢) في الضلال والعمى وصدّهم عن الحق وجماعهم^(٣) في التيه^(٤).

ولما سار أمير المؤمنين عليه السلام إلى النهروان استخلف على الكوفة رجلاً من النخع يقال له هانيء بن هوزة فكتب إلى علي عليه السلام أن غنياً وباهلة فتنوا فدعوا الله عليك أن يظفر بك^(٥).

وساد الهرج هذا المجتمع وفقدت الضوابط والموازن فيه وقد لعب الخوارج دوراً له الأثر في هذا الهياج الأهرج، وأرادوا أن يعيدوا الضجة على مقام الخلافة كما كان عليه الناس مع عثمان.

ففي ذات يوم خرج علي عليه السلام يخطب الناس فصاحوا به من جوانب المسجد لا حكم إلا لله.

وصاح به رجل منهم واضع إصبعه في أذنيه فقال:

﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾^(٦).

فقال له علي عليه السلام:

﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون﴾^(٧).

(١) استغلهم: أي وجدهم فلا خير فيهم.

(٢) الرّكس: ردّ الشيء مقلوباً.

(٣) جماعهم: جمع الفرس أي غلب فارسه.

(٤) التيه: الضلال.

(٥) أنظر الغارات للثقي: حديث ٢.

(٦) سورة الزمر: الآية ٦٥.

(٧) سورة الروم: الآية ٦٠ والخبر في تاريخ الطبري: ٤٠١/٥.

فإذا تلفت الناس لمكان الصائح نادى:

لا حكم إلا الله ولو كره المتلفتون!!

فرفع عليّ رأسه وقال:

لا حكم إلا الله ولو كره أبو الحسن، إن أبا الحسن لا يكره أن يكون الحكم
الله.

ثم قال: حكم الله أنتظر فيكم^(١).

(١) أنظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤٩٠/١.

خلفية حركة الخوارج

أطاف المارقون حول فكرة قتال معاوية وتوبة عليّ من ذنبه فالأولى تعني نقض العهد بين طرفين وفي ذلك إحياء بعدم احترام الإسلام للعهد «إنّ العهد كان مسؤولاً» ثمّ هي القاعدة التي أجبرت القيادة عليّ أن ترضخ لقرار التحكيم المشين، وبعد أن تتفق مع خصيمها في قرار إيقاف القتال إلى فترة محدّدة وربّما تبادر بالمطالبة في العودة إليه إذن هي صاحبة القرار وهي المعنيّة برفع شعار السلم والحرب متى اشتتت. في الوقت الذي لا يسمح الإسلام بمثل هكذا لعب في حياته السياسية بالرغم من حداثة نشأته وأنّ له خصوم ومناوئون في خارج الدولة الإسلامية وفي داخلها. ومن هنا يمكننا أن نقف عليّ أنّ أي تحرّك يشيع الحياة صخباً وضجيجاً ليس إفرازاً طبيعياً تفرزه طبيعة الحدث الداخلي من تصورات مختلفة أو نزاعات قائمة عليّ آراء مخصوصة بقدر ما هو وليد تفكير وسعي جاد أنشأته المدارس الأخرى غير الإسلامية في هذا البيت الإسلامي الناشئ.

ولهذا انصبّ اهتمام الإمام عليّ مسألة خروجهم بالسيف كتعبير عن قوّة عسكرية تواجه الدولة والخلافة تنفّذ الأوامر وهي غافلة عمّا يصنع بها ويراد منها ولم يعر أيّ إهتمام إلى المسائل الأخرى كمسألة كفره كما يقولون فإنّه عليه السلام ردّ ذلك ببساطة الواثق المطمئن.

أبعد صحبة رسول الله ﷺ والتفقه في دين الله أرجع كافراً ثمّ قال :

يا شاهد الله عليّ فاشهد أني عليّ دين النبيّ أحمد
من شكّ في الله فإنني مهتدي يا ربّ فاجعل في الجنان موردي
أصابكم حاصب ولا بقي منكم أبر أبعد إيماني بالله وجهادي مع رسول الله ﷺ
أشهد عليّ نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين^(١)

(١) نهج البلاغة: خطبة / ٥٨.

فالمسألة إذن أبعد من أن يكون عليّ كافراً ومذنباً، المخطط لهذه الفترة الزمنية ولهذا الكيان الناشئ الذي أزاح الشبح المخيف عن القلوب بقوة وشكيمته وإصراره ثم هذا الموج الهادر من الشبان المقبلين للإسلام بكل حيوية وإرادة يفترض أن يضعف ويشل ويأكل بعضه بعضاً، ولكن هل من يلتفت؟!

أجل لقد راح معاوية كما راح الناكثون وهكذا المارقون ضحية التخطيط اليهودي في المدينة والمسيحية التي عشعشت في بيوت الخلافة روحاً.

ولم يكن من عليّ عليه السلام إلا تنبيههم مع علمه الكامن الكامل بأن هؤلاء صنائع لأولئك.

ولهذا بقي وبقيت مدرسته هدف الطعان على امتداد الأزمان ذلك أنها شخّصت المؤامرة وأنهت دورها من أن تشق طريقاً لها في نفسية وروحية هذه المدرسة على جميع أصعدتها الفكرية والثقافية.

وظلّ القطاع المتمرد في أسماء متعددة من ناكثين أو قاسطين أو مارقين يرتعون ويتغذّون من ثدي الجريمة الذي هيأته الأيدي الأثيمة من يهود ونصارى.

وهذا ما تجده في ما يفتون به من أن دار الهجرة دار كفر كما ذهبوا إلى تكفير المسلمين واستحلال دمائهم.

فمن طريف أخبارهم حين أرادوا المضى إلى المدائن أصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم لأنه عندهم كافراً واستوصوا بالنصراني وقالوا: إحتفظوا ذمة نبيكم^(١).

فهذا موقف فقهي يراد منه الإبقاء على النصارى وتهديد حياة المسلمين وهو هدف الحركة المارقة التي لا يعرف أكثر المتتمين إليها أسرارها ومراميها إلا أنهم أوقفوهم على ظاهر يتمثل بكفر عليّ ومعاوية وقناعة بالجهاد في سبيل الله وفق ما يروونه.

وكم تركت من آثار في التربية المعوجة على طريق الإسلام بحيث أن الرائي لهذا الدين من وراء تصرف وتعت أتباعه يلفظه ويتركه لأنه مجموعة متناقضات لا يستقرّ فيها الذهن السليم.

(١) أنظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٨٠/٢.

فهم يستحلّون قتل الإنسان المسلم بل أيّ إنسان فرضاً ويستحرمون قتل
الخنزير ويعتبرون قتله فساداً في الأرض!!!

وسقطت رطبة من نخلة فوضعها أحدهم في فيه فصاحوا به فلفظها تورعاً^(١).

وهكذا ففي كل يوم يخرج نتوء فاسد يشل حركة الإسلام ويشغل حياة
المسلمين بما لا طائل ورائه إلا سفك الدماء والإشتغال فيما بينهم وترك عدوهم
يخطط وينشأ أجيالاً على هذا التخطيط حتى يعيق بعده وعذته حركة الإسلام
الصاعدة^(٢).

(١) أنظر الكامل في التاريخ: ٥٦٠.

(٢) موضوع من آراء الخوارج فيه تفصيل زائد على ما ذكرناه هنا عن مقاصد ومرامي وأهداف وجذور
الحركة المارقة.

الحوار مع الخوارج

في غضون هذه الفترة القصيرة تكوّن للخوارج مكوّن ثقافي خاصّ وإهتدوا إلى طرق كثيرة للتفكير في أغلب المجالات الإسلامية فصار لهم أدباً خاصاً وفهماً للقرآن وتأويله وفقهاً خاصاً فيما هي مدرسة قائمة على السيف والجهاد كما هو الواقع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يزعمون إلى جانب ذهني متميّز وإن كان باتجاه الشيطان والإرتداد عن الحق.

ولهذا فقد اهتم عليّ عليه السلام بهم اهتماماً بالغاً لأنّ الإنسان العقائدي المنطلق من موقع عقيدي خاص لا يضع السيف ولا يستسلم فهو أمام حالتين أمّا النصر أو الموت دون ما يعتقد.

ولقد رأينا علياً عليه السلام حين أرسل إليهم أحد أنبغ تلامذة مدرسته وهو عبد الله بن عباس ذلك الرجل الذي انطوى على تفكير ناهض وعلى أسس عقلية في متابعة المفردات العلمية وكان قد أوصاه أن:

لا تخصمهم بالقرآن فإنّ القرآن حمّال ذو وجوه نقول ويقولون ولكن حاجتهم بالسة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً^(١).

ومع كلّ هذا فلم يفلح ابن عباس في أن يخرج معهم بنتيجة مرجوة فأساليهم مشبعة بالختل والحيل والإلتفاف.

فقد التقاهم ابن عباس فقالوا له: ويلك يا ابن عباس أكفرت بربك كما كفر صاحبك عليّ بن أبي طالب، ودار الحوار بينه وبين خطيبهم عتاب بن الأعور الثعلبي:

فقال ابن عباس: من بنى الإسلام؟

(١) نهج البلاغة: من كتابه إلى عبد الله بن عباس.

فقال : الله ورسوله .

فقال : النبي أحكم أموره وبين حدوده أم لا ؟

قال : بلى .

قال : فالتبني بقي في دار الإسلام أم ارتحل ؟

قال : بل إرتحل .

قال : فأمور الشرع ارتحلت معه أم بقيت بعده ؟

قال : بل بقيت .

قال : وهل قام أحد بعده بعمارة ما بناه ؟

قال : نعم الذرية والصحابة .

قال : أفعمروها أو خربوها ؟

قال : بل عمروها .

قال : فالآن هي معمورة أم خراب ؟

قال : بل خراب .

قال : خربها ذريته أم أمته ؟

قال : بل أمته .

قال : وأنت من الذرية أو من الأمة ؟

قال : من الأمة .

قال : أنت من الأمة وخربت دار الإسلام فكيف ترجو الجنة ؟^(١)

فرجع ابن عباس فقال له أمير المؤمنين : ما رأيت ؟

فقال ابن عباس : والله ما أدري ما هم ؟

فقال عليه السلام : رأيتهم منافقين ؟

فقال : والله ما سيماهم سيما منافقين إن بين أعينهم لأثر السجود وهم

يتأولون القرآن .

فقال عليه السلام : دعوهم ما لم يسفكوا دماً أو يغصبوا مالاً^(٢) .

(١) أنظر المناقب : ٣٦٩/٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٤٩٠/١ .

وأرسل إليهم أيضاً صعصعة بن صوحان ليحاورهم فلما اتاهم قالوا له :
أرأيت لو كان عليّ معنا في موضعنا أ تكون معه؟
قال : نعم .

قالوا : فأنت إذا مقلد علياً دينك إرجع فلا دين لك !!

فقال : ويلكم ألا أقلد من قلّد الله فأحسن التقليد فاضطلع بأمر الله صديقاً لم يزل أو لم يكن رسول الله ﷺ إذا اشتدت الحرب قدّمه في لهواتها فيطاء صماخها بأخمصه^(١) ويخمد لهبها بحدة مكدوداً^(٢) في ذات الله عنه يعبر رسول الله والمسلمون فأين تصرفون؟ وأين تذهبون؟ وإلى من ترغبون؟ وعمّن تصدّفون؟ عن القمر الباهر والسراج الزاهر وصراط الله المستقيم وسبيل الله المقيم قاتلكم الله أتى تؤفكون أفي الصديق الأكبر والغرض الأقصى ترمون، طاشت عقولكم وغارت حلومكم وشاht وجوهكم لقد علوتم القلّة من الجبل وباعدتم العلة من النهل^(٣) أتستهدفون أمير المؤمنين ووصي رسول الله ﷺ لقد سوّلت لكم أنفسكم خسراناً مبيناً فبعداً وسحقاً للكفرة الظالمين عدل بكم عن القصد الشيطان وعمي بكم عن واضح المحجة الحرمان .

فقال له عبد الله بن واهب الراسبيّ : نطقت يا ابن صوحان بشقشقة بعير وهدرت فاطنبت في الهدير أبلغ صاحبك إنّا مقاتلوه على حكم الله والتنزيل ثم أنشد :

كي تلزموا الحقّ وحده	ونضربكم حتّى يكون لنا الحكم
فإن تتبعوا حكم الإله يكن لكم	إذا ما اصطلحنا الحقّ والأمن والسلم
وإلا فإنّ المشرفيّة محزم	بأيدي رجال فيهم الدّين والعلم

فقال صعصعة كأني أنظر إليك يا أخا راسب مرملاً بدمائك يحجل^(٤) الطير بأشلائك لا تجاب لكم داعية ولا تسمع منكم واعية يستحلّ ذلك منكم إمام هدى .
قال الراسبيّ :

(١) الأخمص من باطن القدم ما لم يبلغ الأرض وهو كناية عن الإستعلاء على الحرب وإذلال أهلها .

(٢) بمعنى الكاد .

(٣) العلة : الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعاً والنهل محرّكة أو الشرب .

(٤) حجل : نزى .

سيعلم النّسب إذا التقينا دور الرّحى عليه أو علينا
أبلغ صاحبك أنا غير راجعين عنه أو يقرّ الله بكفره أو يخرج عن ذنبه فإن الله
قابل التوب شديد العقاب وغافر الذنب فإذا فعل ذلك بذلنا المهج!!
فقال صعصعة: عند الصباح يحمد القوم السرى^(١).

ثمّ رجع إلى عليّ عليه السلام فأخبره بما جرى بينه وبينهم فتمثل عليّ عليه السلام:
أراد رسولي الوقوف فراوحا يداً بيد ثمّ أسهما لي على السواء
بؤساً للمساكين يا ابن صوحان أما لقد عهد إليّ فيهم وإني لصاحبهم وما
كذبت ولا كذبت وإنّ لهم يوماً يدور فيه رحا المؤمنين على المارقين فيا ويحها
حتفاً ما أبعداها من روح الله ثمّ قال:

إذا الخيل جالت في الفتى وتكشفت عوابس لا يسألن غير طعان
فكرت جميعاً ثمّ فرق بينها سقى رمحه منها بأحمر قان
فتى لا يلاقي القرن إلاّ بصدرة إذا أرعشت أحشاء كلّ جبان

ثمّ رفع رأسه ويده إلى السماء وقال:

اللهمّ أشهد ثلاثاً قد أعذر من أنذر وبك العون وإليك المشتكى وعليك التكلان
وإياك ندرأ في نحورهم.
أبى القوم إلاّ تمادياً في الباطل ويأبى الله إلاّ الحقّ فأين يذهب بكم عن حطب
جهنم وعن طيب المغنم.
وأشار إلى أصحابه وقال: استعدّوا لعدوكم فإنكم غالبون بإذن الله ثمّ قرأ عليهم
آخر سورة آل عمران^(٢).

(١) هذا مثل يضرب للرجل الذي يحتمل المشقة رجاء الراحة.

(٢) أنظر الاختصاص للمفيد: ص ١٣٢.

الأشعث بن قيس وتأجيج الفتنة

الأشعث بن قيس مفصل من مفاصل النفاق في الكوفة ولو نظرنا في خلفية هذا الطاغية لوجدنا مستنقعا عاشت فيه الإثارات، فهو يعيش عقدة نقص يريد أن يسدّها من وراء حركته المناقفة ضدّ الخلافة الجديدة.

والأغرب من الأشعث الذي هو من الوضوح بمكان أولئك الذين يؤمنون به، ويرون رأيه، وإن دلّ ذلك فإنما يدل على مبلغ الجهل والتعصب الذي أطبق على أغلب مرافق الحياة، ولهذا عاش عليّ عليه السلام بينهم ضائعا وكأنه ليس مخلوقا يمشي بينهم على هدى من الله ورسوله.

ولقد حاولت مدرسة أمير المؤمنين في جزء من عملها التربوي الرائد تعريف المسلمين بنوايا هؤلاء ومقاصدهم وما تكنه ضمائرهم.

ولقد قام عليّ يخطب فقال: إنّ الناس يزعمون أنّ رسول الله ﷺ عهد إليك عهداً لم يعهده إلى غيرك فقال: إنه عهد إليّ ما في قراب سيفي لم يعهد إليّ غير ذلك فقام الأشعث وقال يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك، وكانت جراءة ووقاحة من هذا اللاعث ليصنع أجواء طبيعية للإعتراض على الخليفة حتّى يكثّر اللّغظ فتسقط الهيبة ويتنفي دور الكلام.

ولكن الإمام عليه السلام لم يفوت له ذلك ولم يتسامح معه فخفض إليه بصره ثمّ قال له:

وما يدريك ما عليّ ممّا لي؟ عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين حائك بن حائك^(١)
منافق بن كافر. والله لقد أسرك الكفر مزة والإسلام أخرى فما فداك من واحدة
منهما مالك ولا حسبك وإنّ امرأ دَلّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف

(١) التعبير بالحياكة: قيل أنّ الأشعث وأباه كانا ينسجان برود ولكن الصحيح الحياكة نسج الكلام كناية عن كونه كذاباً.

لحري أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد^(١).

وفي حروراء حين قابل عليّ عليه السلام الخوارج فقال لهم: هذا مقام من فلج فيه فلج^(٢) إلى يوم القيامة، ثمّ كلّمهم وناشدهم فقالوا: إنا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتحكيم وقد تبنا فتب إلى الله كما تبنا نعدلك، فقال: أنا أستغفر الله من كلّ ذنب.

وكان عليه السلام قد ورى في هذا الاستغفار توبته وقد رجع من وراء استغفاره هذا ستة آلاف من الخوارج فلمّا استقرّوا بالكوفة دار الحديث في دواوينها ومجالسها أن عليّاً رجع عن التحكيم ورآه ضلالاً، وإنّما ينتظر أن يسمن الكراع^(٣) ويجبى المال ثمّ ينهض إلى الشام.

فأتى الأشعث عليّاً فقال: يا أمير المؤمنين إنّ الناس قد تحدّثوا أنّك رأيت الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كفراً.

مما اضطرّ عليّاً عليه السلام أن يصحر بالحقيقة ويقول فيما هو الرّد على هذه الإشاعة وإبطال ما أشاعه الأشعث لإعتبارات إجتماعية وقانونية لا يجيز عليّ عليه السلام أن تمرّ عليه وتطوف من حوله مجموعة أقاويل لا أساس لها ولا واقع ويبقى هو ينتظر الفرص ويتصيد الأعاذير ويلوذ بالتوريات. فقال عليه السلام:

من زعم أنّي رجعت عن الحكومة فقد كذب ومن رآها ضلالاً فقد ضلّ^(٤).

وهذه إثارة جديدة خلقتها الأفواه الكاذبة وأرست أسسها الرّدة عن الذين فوقف عليّ أمامها شامخاً وخرجت الخوارج من المسجد واستعادوا ما كانوا عليه بل أكثر من ذي قبل.

فكلّ فساد كان في خلافة أمير المؤمنين وكلّ اضطراب حدث فأصله الأشعث ولولا محاكمة^(٥) أمير المؤمنين عليه السلام في معنى الحكومة في هذه المرة لم يكن حرب النهروان ولكان عليه السلام ينهض بهم إلى معاوية يملك الشام فإنّه صلوات الله عليه حاول أن يسلك معهم مسلك التعريض والموارية، وفي المثل النبوي: الحرب

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٣٩/١.

(٢) الفلج: الظفر.

(٣) الكراع: اسم للخيل.

(٤) أنظر الكامل في التاريخ: ٥٥٨ طبع أوروبا.

(٥) المحاكمة: أن يقول كلّ واحد من الطرفين أنا أحقّ بهذا أصلها والمراد المحاكمة والمجادلة.

خدعة وذلك أنهم قالوا: تب إلى الله بما فعلت كما تبنا ننهض معك إلى الحرب فقال لهم: كلمة مرسلة يقولها الأنبياء والمعصومون فرضوا بها ضمائرهم من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً بكفر أو ذنب فلم يتركه الأشعث وجاء إليه مستفسراً فأفسد الأمر ونقض ما دبره عليه السلام وعادت الخوارج إلى شبهتها الأولى^(١).

أجل لقد عاد المغفلون والمغرورون إلى ما هم عليه وإلا فرؤوسهم ماشون على طريقتهم وكل ما يكون في طريق الحوار أو إيجاد حجارة في هذا المسعى فهو من باب تفويت الفرصة واستثمار الوقت المناسب للإنقضااض.

ونحن لا نعدم الأسلوب العلوي في دعوته من صميم ما يعتقد أنه جاذب في هدايتهم وله في هذا الإتجاه أمل، وعلى أساسه يعمل ويحاور ويدعو.

(١) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٨٠/٢.

راية أمان

لَمَّا أَنْ آيَسَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَثَرِ الْحَوَارِ الَّذِي أَجْرَاهُ مَعَهُمْ وَقَدْ أَثَرَهُ كَثِيرًا قَتَلَهُمْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخُبَّابِ وَاسْتَهْتَارَهُمْ بِمَقْدَرَاتِ الْأُمَّةِ .

كَانَ لَا يَرَى بِحُكْمِ ذَلِكَ التَّمَرُّدِ وَالْمَرُوقِ إِلَّا أَنْ يِقَاتِلَهُمْ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا يَرُونَ هُمْ إِلَّا قِتَالَهُ أَيْضًا .

وَأَتَى لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ صَاحِبُ الْقَلْبِ الْكَبِيرِ أَنْ يَبِيدَهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ الْمَغْرَرِ بِهِ .

إِذَنْ يَحْتَاجُ إِلَى سَقْفِ زَمَنِي وَرَايَةِ أَمَانٍ يَنْضَوِي تَحْتَهَا مِنْ لَا حَاجَةَ لَهُ بِالْحَرْبِ وَمَنْ دَفَعَتْهُ ثَوْرَةُ الشَّبَابِ بَلَا أَنْ يَعْرِفَ النَّتَاجَ .

فَأَعْطَى رَايَةَ الْأَمَانِ إِلَى أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ لِيَسْتَشِلَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقَرُّ وَمَنْ يَرْجِعُ إِلَى عَقْلِهِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ .

فَنَادَاهُمْ أَبُو أَيُّوبَ : مَنْ جَاءَ إِلَى هَذِهِ الرَّايَةِ أَوْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ فَهُوَ آمِنٌ فَرَجَعَ مِنْهُمْ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ رَجُلٍ وَأَقَامَ الْبَاقُونَ عَلَى الْخِلَافِ .

وَوَجَّهَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَحْوَهُمْ كِتَابًا عَلَى يَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي عَقْبٍ :

«وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَتْ بِهِ رَغْبَتُهُ ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَتْ بِهِ رَغْبَتُهُ ، وَخَيْرُ النَّاسِ خَيْرُهُمْ لِنَفْسِهِ ، وَشَرُّ النَّاسِ شَرُّهُمْ لِنَفْسِهِ وَلَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ قَرَابَةٌ وَكُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» .

وَأَتَاهُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْتَعِظَفَهُمْ فَأَبَوْا قِتَالَهُ وَتَنَادَوْا أَنْ دَعُوا مُخَاطَبَةَ عَلِيٍّ وَأَصْحَابِهِ وَبَادَرُوا بِالْجَنَّةِ وَصَاحُوا : الزَّوَّاحُ الزَّوَّاحُ إِلَى الْجَنَّةِ^(١) .

(١) أنظر المناقب : ٣٧١ / ٢ .

موقف البصرة والكوفة

لَمَّا كَانَتْ الْحَرْبُ مِمَّا لَا بَدَّ مِنْهَا فَقَدْ كَتَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَأْمُرُهُ بِأَشْخَاصِ أَهْلِهَا فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ وَأَمَرَهُمُ بِالشُّخُوصِ مَعَ الْأَحْنَفِ فَشَخَّصَ مَعَهُ مِنْهُمْ أَلْفَ وَخَمْسَمِائَةَ فَاسْتَقْلَهُمُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَخَطَبَهُمْ وَقَالَ: لَمْ يَشْخَصْ مِنْكُمْ إِلَّا أَلْفٌ وَخَمْسَمِائَةٌ وَأَنْتُمْ سِتُونَ أَلْفًا أَلَا إِنَّفَرُوا مَعَ جَارِيَةِ بَنِ قَدَامَةَ السَّعْدِيِّ وَتَهَدَّدَ مِنْ يَتَأَخَّرُ وَأَمَرَ أَبَا الْأَسْوَدَ بِحَشْرِهِمْ فَاجْتَمَعَ إِلَى جَارِيَةِ أَلْفٍ وَسَبْعَمِائَةٍ فَقَدَمُوا عَلَيْهِ بِالنَّخِيلَةِ.

وَجَمَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رُؤَسَاءَ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَقَالَ:

أَنْتُمْ إِخْوَانِي وَأَنْصَارِي وَأَعْوَانِي عَلَى الْحَقِّ وَصَحَابَتِي عَلَى جِهَادِ عَدُوِّي الْمُحَلِّينَ بِكُمْ أَضْرَبُ الْمَدِيرَ وَأَرْجُو تَمَامَ طَاعَةِ الْمُقْبِلِ.

وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كُلُّ رَئِيسٍ مَا فِي عَشِيرَتِهِ.

فَقَامَ سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ الْهَمْدَانِيُّ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَمِعْنَا طَاعَةَ وَوَدَّاءَ وَنَصِيحَةَ أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ جَاءَ بِمَا سَأَلْتُ.

وَقَامَ مَعْقِلُ بْنُ قَيْسٍ الرِّيَّاحِيُّ فَقَالَ لَهُ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ.

وَقَامَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ وَزِيَادُ بْنُ خَصْفَةَ وَحَجْرُ بْنُ عَدِيٍّ وَأَشْرَافُ النَّاسِ وَالْقَبَائِلِ فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ فَرَفَعُوا إِلَيْهِ خَمْسَةَ وَسِتِّينَ أَلْفًا فَكَانُوا مَعَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ثَمَانِيَةَ وَسِتِّينَ أَلْفًا وَمِائَتَيْنِ وَبَلَغَهُ أَنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: لَوْ سَادَ بَنُو إِلَى هَذِهِ الْحُرُورِيَّةِ فَبَدَأْنَا بِهِمْ ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْمُحَلِّينَ فَخَطَبَهُمْ وَقَالَ:

إِنَّ غَيْرَ هَذِهِ الْخَارِجَةِ أَهَمُّ إِلَيْنَا مِنْهُمْ فَدَعُوا ذِكْرَهُمْ وَسَيَرُوا إِلَى قَوْمٍ يَقَاتِلُونَكُمْ كَيْمَا يَكُونُوا جَبَّارِينَ مَلُوكًا وَيَتَّخِذُوا عِبَادَ اللَّهِ خُلَا فَتَنَادُوا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ سَرَّ بَنُو يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ أَحْيَيْتَ.

وقام صيفي بن فسيل الشيباني فقال: يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك
نعادي من عاديت ونشايح من أناب إلى طاعتك فسر بنا إلى عدوك من كانوا وأينما
كانوا فإنك إن شاء الله لن تؤتني من قلة عدد ولا ضعف نية أتباع.

وقام إليه محرز بن شهاب التميمي من بني سعد فقال يا أمير المؤمنين شيعتك
كقلب رجل واحد في الإجماع على نصرتك والجد في جهاد عدوك فأبشر بالنصر
وسر بنا إلى أي الفريقين أحببت فإننا شيعتك الذين نرجو في طاعتك وجهاد من
خالفك صالح الثواب ونخاف في خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال^(١).

(١) أنظر أعيان الشيعة الأمين: ٥٢٢/١.

المسير نحو الخوارج وقصة الحرب معهم

وعسكر الخوارج هناك في منطقة تسمى «حروراء» واتجه علي عليه السلام بمن معه نحوهم يريد قتالهم فلما وصل النهر قال لهم: ادفعوا لنا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يرذكم إلى خير مما أنتم عليه فقالوا: كلنا قتلتم وكلنا نستحل دماءهم ودمائكم وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فوعظهم واحتج عليهم وقال لهم ركبتُم عظيمًا من الأمر تشهدون علينا بالشرك وتسفكون دماء المسلمين فلم ينجع ذلك فيهم.

وخطبهم أبو أيوب الأنصاري فقال أنا وإياكم على الحال الأولى التي كنّا عليها فعلم تقاتلوننا.

فقالوا: إنا لو تابعناكم اليوم حكمتُم غداً.

قال: فإني أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في القابل.

وقال لهم أمير المؤمنين: أيتها العصابة التي أخرجها عداوة المرء والمَلْجَاجَة وصدها عن الحق الهوى ألم تعلموا أنني نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم مكيدة ونباؤكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وإني أعرف بهم منكم عرفتهم أطفالاً ورجالاً وهم أهل المكر والغدر وإني إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم فعصيتُموني حتى إذا أقررت بأن حكمت فلما فعلت شرطت واستوثقت فأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأول فما الذي بكم ومن أين أنيتُم.

قالوا إنا حكمنا فلما حكمنا أثمنا وكنا بذلك كافرين وقد تبنا فإن تبت كما تبنا فنحن منك ومعك وإن أبيت فاعتزلنا فإننا منايدوك على سواء وأن الله لا يحب الخائنين.

فرمى الخوارج أصحاب علي عليه السلام بالنبل وأوتي برجل قتيل متشخط بدمه.

فقال عليّ عليه السلام الله أكبر الآن حلّ قتالهم احملوا على القوم فحمل رجل من الخوارج على أصحاب عليّ عليه السلام فجرح فيهم وجعل يغشى كل ناحية. ويقول:

أضربهم ولو أرى عليّاً ألبسته أبيض مشرفياً
فخرج إليه عليّ عليه السلام وهو يقول:

يا أيها المبتغي عليّاً إنني أراك جاهلاً شقياً
قد كنت عن كفاحه غنياً هلّم فابرزها هنا اليا

وحمل عليه عليّ عليه السلام فقتله ثمّ خرج منهم آخر فحمل على الناس ففتك فيهم وجعل يكرّ عليهم وهو يقول:

أضربهم ولو أرى أبا حسن ألبسته بصارمي ثوب غبن
فخرج إليه عليّ وهو يقول:

يا أيها المبتغي أبا حسن إليك فانظر أينما يلقي الغبن
وحمل عليه وشكّه بالرمح وترك الرمح فيه وإنصرف عليّ عليه السلام وهو يقول:
لقد رأيت أبا حسن فرأيت ما تكره.

وكان شدة بأس الخوارج أن طعن أحدهم فمشى في الرمح وهو شاهر سيفه إلى أن وصل إلى طاعنه فضربه فقتله وهو يقرأ: «وعجلت إليك رب لترضى»^(١).
وبالتالي لم يبق من القوم تسعة أنفار والباقون وفدوا إلى جهنم وبئس المصير.

ووقف عليّ عليه السلام على قتلى الخوارج فقال:

بؤساً لكم لقد ضرّكم من غرّكم.

ف قيل له: من غرّهم يا أمير المؤمنين؟

فقال: الشيطان المضلّ والأنفس الأمارة بالسوء غرّتهم بالأمانى وفسحت لهم في المعاصي ووعدتهم الإظهار فاقترحت بهم النار^(٢).

(١) أنظر الأعيان: ٥٢٤/١.

(٢) نهج البلاغة: ٣٢٣.

شخصية الخوارج وحروبهم

لا يفهم المارقة شيء إلا التعامل بالسيف مع المسلمين وقد إنطوو على هذا المنحى من التوجه والتصورات في حركتهم العاقة .

ولقد إنضوى تحت لوائهم الكثير ممّا لم يجد حيلة ولا يهتدي السبيل وممّن يريد أن يعبر عن حقه الملتاث على جمهرة المسلمين والكيان الإسلامي والخلافة .

ولقد ولد هذا التجمّع على أساس القناعة بالأفكار ممّا عملوا لكثير من القطاعات المارقة غسيل دماغ فهيئوهم وهم عليها للخروج والثورة والإرهاب .

أضف إلى أنّ المفاصل الخارجة والتي تدير دفة الأمور والمتصدية للقيادة لم يكونوا بالمهملين في مجتمعهم بل كانوا مقالع مهمة ورموز واضحة في قبائلهم أو في تجمعاتهم .

وهذا من شأنه أن يعطي دفعا قويا لهم في أرض الواقع ، وحركة سريعة لمواجهة الخلافة التي كانت تتسم بالقوة والمكنة والزهد والعبادة ، كما هو الحال لأمر المؤمنين عليّ عليه السلام .

فهم والحال هذه أيضاً أهل عبادة وقراءة قرآن وزهد وتوجه وقد أغرى هذا المظهر العبادي كثيراً من الأمة وإنساق الكثير معهم بسبب ذلك . . .

ولهذا فبعد أن خرجوا عن الصف الإسلامي تحت شعارهم المعروف لم يكن أحد منهم يعرف الخوف من المصير الذي سيواجهه .

وكذلك بعد أن صفّاهم عليّ عليه السلام في حرب النهروان ولم يبق منهم إلا حثالة كان لهم اللياقة في سرعة الانتشار في البلدان وإظهار دعوتهم علناً ممّا استجمعوا حول راياتهم الجموع الغفيرة التي أزعجوا بها المسلمين والسلطة وقتئذ .

وبالتالي رأينا الانقسامات في صفوفهم ممّا أضعفهم أمام من يريدون حربه

والخروج عليه في وقت هم كحركة خارجة أحوج ما يكونوا إلى الوحدة في الفهم والموقف.

وإن دلت هذه الإنقسامات على شيء فإنما تدل على أن في الخوارج ممن لا يرغب في السكون والعمل على طريقة هي الحجة في الحركة والتصور.

وطبيعي لأية مجموعة إذا تناوشتها الإنقسامات على أساس التصحيح الثقافي والذهني فإن عمرها سيطول مما يكون لها مستقبل في حركة الحياة واستقطاب الذوات لهم الأثر والأهمية في وسط مجتمعهم.

على أن حركة الخوارج لم تكن بالتي تمتلك تصوراً دقيقاً للإسلام في أصوله وأساسه ولم تمتلك خطة مستحكمة في طريقة العمل.

وهذا هو السبب الذي شق الحركة على فرق وإتجاهات ومذاهب وهو طبيعي لمن لم يكن له حجة في الإسلام ووعي.

إذن لا ينسحب هذا التقييم على مساحة النبوات وأوصيائهم والأمثال الذين يحكمون بما أنزل الله تعالى.

حيث الإنقسامات في هذه الدائرة حالة مرضية لأنها تعني التراجع والإنكفاء لأن النبوات ومن يقوم بتطبيق ما جاءوا به عن وعي وبصيرة هي قمة سامقة في وعي الأديان والإطروحة المثلى التي لا يبلبها تبدل الزمن ولا يأت عليها الهزال مهما تعاقبت الأجيال.

ولهذا لو لم يتورط الخوارج في إتخاذهم مبدأ تكفير المسلمين ولا أي متبني له صفة الاختلاف مع الإسلام كدين. واكتفوا بمخالفة علي عليه السلام لكفاهم ذلك مروقاً لأن علياً عليه السلام له صفة القيمومة على الدين والمحرك لمبادئه في عمق الواقع المعاش وهو المقياس له في كل منحى من مناحيه.

ولهذا الأساس أطلق عليهم علي عليه السلام في مستقبل لهم فيما تتوالى عليهم الضربات والنكبات أن سيكونوا لصوماً سلايين^(١).

لأن من لا يملك تصوراً متيناً وواضحاً عن أحداث الحياة ولا كيفية تطويع

(١) نهج البلاغة خطبة / ٦٠.

الحياة للمبادئ بأسلوب أمثل . فإنه ستحيله الحياة إلى ركام وجثة هاجعة لا حراك فيها .

ولأن منطق القوة منطق لا يتسنى له أن يعيش ويحيا على طول الطريق ، ولا يملك الخوارج غيره وغير الإجتهدات التي لم يوفق لها أن تأخذ طريقها أمام السيل الهادر من الفهم الواعي للذين في إطار الإجتهد الذي تراعى فيه الأحكام العامة للإسلام والبقاء على هيتها وقديستها .

ومع كل هذا فهم في الحياة الإسلامية أصبحوا حقيقة واقعة وظاهرة لا بد أن يحسب لها حساب لإعتبارات تقدمت .

وبالتالي لم يكتب لهم النجاح في مسارهم وصاروا شذر مذر كل تحت نجمة من النجوم ولم يكن لهم من يقوم بترجمة ثقافتهم وفكرهم عبر هذا التاريخ الطويل إلا الشواذ من الناس والمعتل الذي لا يقوى على مواجهة الحياة .

ويبقى تقييم أمير المؤمنين يلاحقهم أينما كانوا حيث يقول :

وأنتم معاشر أخفاء الهام سفهاء الأحلام^(١) ثم أنتم شرار الناس ومن رمى به الشيطان مرأيه وضرب به نيه^(٢) .

ولكن علناً ~~عليه السلام~~ لا يعدم فيهم نياتهم بشكل عام وهو الإنتصار للذين والحق ولكن عبر طريق معوج ورأي خائر وجهل مقيت أودى بهم في مهاوي الهلاك والضياع .

ولو قايستناهم وهم على هذه الحال مع غيرهم من الذين يقصدون الباطل والتمرد على الله تعالى بإسم الإسلام لرجحت كفتهم .

ولهذا فعلي ~~عليه السلام~~ الذي كان يرى في المستقبل القريب وما يتمخض عن أحداث جسام أن هؤلاء الذين أخطأوا في طلبهم للحق والهدى سيكون لهم جولة وتمرد على من طلب الباطل فأدركه وهو معاوية والأمويون بشكل عام حيث يقول :

لا تقتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأ كمن طلب الباطل فأدركه^(٣) .

(١) نهج البلاغة خطبة / ٣٦ .

(٢) نهج البلاغة كتاب / ٢١٧ .

(٣) نهج البلاغة خطبة / ٦١ .

ولنا ونحن أمام الحديث عن شخصيتهم في حاضرها مع علي عليه السلام ومستقبلها مع غيره أن نستعرض بشكل خاطف وكإثارة وشاهد بسيط على ما قدمناه .

على أن نستعرض أهم شخصياتهم التي ذكرها المؤرخون ممن لهم السهم الوافر في عملية القتال والتمرد على السلطة . أو الوقوف أمام الوجودات الأخرى التي تدعي لنفسها الحق في خلافة المسلمين كعبد الله بن الزبير مثلاً .

فلقد كان نجدة بن عامر الحنفي وهو من أبرز شخصياتهم وله أتباع وأصحاب يسمون بالنجدات وله رأي وفقه .

كان نجدة يصلي بمكة بحذاء عبد الله بن الزبير في كل جمعة وعبد الله يطلب الخلافة فيمسكان عن القتال من أجل الحرم .

واستولى نجدة على اليمامة وعظم أمره حتى ملك اليمن والطائف وعمان والبحرين ووادي تميم وعامر .

ومنهم المستورد بن سعد التميمي وهو من النساك كثير الصلاة وله آداب وحكم مأثورة منها .

إذا أفضيت بسري إلى صديقي فأفشاه لم ألمه لأنني كنت أولى بحفظه .

لا تفش إلى أحد سراً وإن كان مخلصاً إلا على وجه المشاورة .

كن أحرص الناس على حفظ سرّ صاحبك منك على حقن دمك وخرج المستورد على المغيرة بن شعبة وهو والي الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان في جماعة من الخوارج ، فوجه المغيرة إليه معقل بن قيس الرياحي فلما تواقفا دعاه المستورد إلى المبارزة .

وقال له : علام تقتل الناس بيني وبينك ؟

فقال معقل : النصف سألت ، فأقسم عليه أصحابه .

فقال : ما كنت لأبي عليه فخرج فاختلفا ضربتين خر كل واحد منهما من ضربة صاحبه قتلاً .

ومنهم حوثة الأسدي خرج على معاوية في عصابة من الخوارج فبعث إليه معاوية جيشاً من أهل الكوفة فأنزعج منهم حوثة فقال لهم : يا أعداء الله أنتم

بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه وأنتم اليوم معه لتشدوا سلطانه، وقتل في هذه الحرب.

ومهم قريب بن مزة الأزدي وزخاف الطائي وكانا عابدين مجتهدين من أهل البصرة. خرجا في أيام معاوية في إمارة زياد.

وإختلف الناس أيهما كان الرئيس؟ فاعترضا الناس فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضبيعة من ربيعة بن نزار فقتلاه.

وتنادى الناس فخرج رجل من بني قطيعة من الأزد وفي يده السيف فناده الناس من ظهور البيوت الحرورية: انج بنفسك فناده لسنا حرورية نحن الشرط فوقف فقتلوه.

فبلغ أبا بلال مرداس بن أدية خبرهما فقال: قريب لا قربه الله! وزخاف لا عفا الله عنه! ركبها عشواء مظلمة.

ثم جعل لا يمران بقبيلة إلا قتلا من وجدا، حتى مرّا على بني عليّ بن سود من الأزد وكانوا رماة، كان فيهم مائة يجيدون الرمي فرموهم رمياً شديداً فصاحوا:

يا بني عليّ البقاء، لا رماء بيننا، فقال رجل من الأزد من بني عليّ بن سود:

لا شيء للقوم سوى السهم مشحوة في غلس الظلام

ففر عنهم الخوارج وخافوا الطلب واشتقوا مقبرة بني يشكر حتى نفذوا إلى مزينة ينتظرون من يلحق بهم من مضر وغيرها فجاءهم ثمانون وخرجت إليهم بنو طاحية من بني سود وقبائل من مزينة وغيرها فاستقتلت الخوارج وحاربت حتى قتلت عن آخرها وقتل قريب وزخاف.

ومنهم نافع بن الأزرق وكان شجاعاً مقدماً في فقه الخوارج وإليه تنسب الأزارقة.

وكتب نافع إلى من بالبصرة: أما بعد فإن الله إصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة والدين واحد فقيم المقام بين أظهر الكفار ترون الظلم ليلاً ونهاراً وقد ندبكم الله عز وجل إلى الجهاد فقال:

﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾^(١).

ولم يجعل لكم في التخلف عذراً في حال من الأحوال فقال:

﴿إنفروا خفافاً وثقالاً﴾^(٢).

وإنما عذر الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون ومن كانت إقامته لعلّة ثمّ فضّل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال:

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾^(٣).

فلا تغتروا وتطمئنوا إلى الدنيا فإنّها غرارة مكّارة لذّتها نافذة ونعيمها بائد حفّت بالشهوات إغتراراً وأظهرت حبرة^(٤) وأضمرت عبرة فليس آكل منها أكلة تسره ولا شارب منها شربة تؤنّقه^(٥) إلاّ ودنا بها درجة إلى أجله وتباعد بها مسافة من أمله وإنّما جعلها الله دار المتزوّد منها إلى النعيم المقيم والعيش السليم فليس يرضى بها حازم داراً ولا حكيم قراراً فاتقوا الله وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى والسلام على من إتبع الهدى.

ويعتبر نافع بما أوجد من فقه وآراء جديدة منفرداً عن الخوارج في فقههم وآراءهم ولهذا أقام في أصحابه بالأهواز يستعرض الناس ويقتل الأطفال ويأخذ الأموال ويجبي الخراج وفشا عماله بالسّواد فارتاع لذلك أهل البصرة^(٦).

وقاد نافع حروياً ضراساً راح ضحيتها كثير من الناس وكان معه عطية بن الأسود وعبيدة بن هلال البشكري وأخاه محرز بن هلال.

فاتفق أهل البصرة على رجل من قريش يقال له مسلم بن عبيس على أن يسير إلى الأزارقة في سبعمائة رجل فخرج والتقى معهم.

(١) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٥.

(٤) الحبرة: النعمة.

(٥) تؤنّقه: تعجبه.

(٦) أنظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٣٢/٤ - ١٤١.

وكانت البصرة يومذاك تحت إمرة عبد الله بن الحارث والذي يتولى عبد الله بن الزبير ويرجع إليه .

واختاروا فيما بعد المهلب بن أبي صفرة لعزمه وحزمه ومعرفته بالحروب فأوقع في صفوفهم الهزائم .

فتراجع الأزارقة إلى موضع يقال له الرجان من أرض فارس واجتمع إليهم خلق كثير ممن كان على رأيهم .

فأرجعهم قطري بن الفجأة وقال لهم :

إعلموا أنه لم يوت قوم في ديارهم إلا ذلوا فسيروا بنا إلى المهلب وثقوا من ربكم بالنصر .

حتى إذا صاروا إلى الأهواز إذا هم بجيش عظيم يقوده المهلب فالتحموا معهم وفي هذه المرة ولت الأزارقة الأدبار منهزمين ، وسار إليهم المهلب حتى وافاهم بموضع يقال له كازرون فلما عاين القوم بعضهم بعضاً اصطَفُوا وجردوا الصُفاح وأشرعوا الزَماح .

فأوقع فيهم الهزيمة النكراء فولّوا مهزومين إلى سابور فنادى المهلب في أصحابه وسار حتى وافاهم هناك فلما نظروا إلى رايته وقد طلعت بادروا وقد خرجوا إليه في تعبئة وزينة وسلاح وآلة لم يكونوا أظهروها قبل ذلك . فحاصروهم فيها وفيها جاءه عزله من قيادة الجيش وعين مكانة عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي .

فأقام معهم حرباً كان لهم فيها الفوز وزحفوا على سواد ابن معمر فاستباحوه وأخذوا جميع ما فيه ثم رجعوا إلى سابور بالغنائم فأرجعوا المهلب ثانية لقتالهم .

وكانت لهذه الحروب التي استمرت ما يقرب من عشرين سنة الأثر في زعزعة النظام مما دفع الشيعة في الكوفة أن يتحركوا ويأخذوا بشارات أبي عبد الله الحسين بن عليّ عليه السلام وكان رئيس هذا التجمع سليمان بن صرد الخزاعي فكتبوا إلى شيعة أهل البصرة وشيعة المدائن بما قد عزموا عليه فأجابوهم على ذلك .

وبعدها قام المختار بأمر من محمد بن الحنفية الذي كان مظاهراً لعبد الله بن الزبير ولبنی أمية قتلة أخيه الحسين عليه السلام .

وكان للخوارج في هذه المنازلات والتحولات السياسية مواقف متأرجحة فبعض كان مع عبيد الله بن زياد في قتل الحسين عليه السلام وبعض كان مع أهل البيت يعني زين العابدين كسعيد بن المسيب وأمثاله ضد الأمويين. إيماناً منهم بعدم صلاحية الإثنين وإعانة كليهما على قتل أحدهما الآخر هي ربح لهم كما يرون.

ولهذا رأيناهم حين قام المختار الثقفي بالأمر واجتمعت كلمة أهل الكوفة حوله طالباً بثارات الحسين وقتل من شارك في قتله رأيناهم ينقضون بيعة المختار ويؤلبون عليه أمثال الشمير بن ذي الجوشن وشيث بن ربيعي وأضرابهما المارقين.

وقد مكن الله المختار منهم فقتلهم شر قتلة. وهرب منهم من هرب وألقى بنفسه وجماعته في أحضان مصعب بن الزبير في البصرة، لمواطاتهم معه علماً أنه مشغول بقتال إخوان لهم وهم الأزارقة في سابور وغيرها.

فسار مصعب بن الزبير ومعه المهلب بن أبي صفرة والمارق البغي محمّد بن الأشعث بن قيس لقتال المختار في الكوفة. وفيها قتل المختار كما قتل محمّد بن الأشعث وأرسل مصعب برأس المختار إلى أخيه عبد الله بن الزبير بمكة.

وسار خالد بن عبد الله بن أسيد أمير العراقيين لقتال الأزارقة فبلغ ذلك قطري بن الفجأة صاحب الأزارقة فقام فيهم خطيباً وقال:

يا معاشر المهاجرين! إنه قد صار أمرنا إلى ما كنا عليه وقد كان الناس في المهابة على ما كانوا عليه.

فقال له عبيدة بن هلال: يا أمير المؤمنين! أو لا تخاف يوماً مثل يوم عبد الله بن ماحوز؟

فقال قطري: إنا نخاف ولكن مع الخوف رجاء.

ثم سار من بلاد فارس حتى تقاربوا من الأهواز فجبوا الخراج وقتلوا من ناوهم وقوي أمرهم وتسارع الناس إليهم من كل ناحية.

فاقتتل خالد مع الخوارج قتالاً شديداً وكان النصر لهم فيها والفوز وانهمز خالد وسلمت سفنه بجميع ما فيها من مال وسلاح ثم ملؤها قصباً وأشعلوا فيها النار وأطلقوها فأقبلت السفن والنار ملتهبة فيها كأنها الجبال.

فدعا المهلب ابنه يزيد فتقدم إليهم فهزمهم وصاروا إلى أرض فارس ونزل المهلب بالأهواز على خراجها .

ثم سار إليهم أخو خالد وهو عبد العزيز وكان هذا القرار على غير رضا من عبد الملك بن مروان إلا أن خالداً يريد أن يسقط هيبة المهلب من قلوب أهل البصرة وينكل به :

ولم يحالف عبد العزيز الحظ في القضاء عليهم حيث انهزم هو وقتل جيشه وسبيت امرأته ، فتقدم قطري بن الفجاءة فضرب عنقها .

فجاء المنهزمون حتى صاروا إلى الأهواز وبها يومئذ المهلب فأخبروه بأمر الواقعة فاغتم المهلب لذلك غمّاً شديداً ثم أمر بالجسور فقطعت خوفاً من أن تدخل الأزارقة إلى البصرة .

ثم إن عبد العزيز مضى إلى مكة فأقام بها حياءً من الناس .

ثم سمع أن الأزارقة تريد البصرة فكتب خالد إلى المهلب يأمره بردهم فسار المهلب من الأهواز يريد الأزارقة فالتقوا وتقاتلوا قتالاً شديداً وفي هذه الواقعة قتل الحصين بن مالك فجزعت الأزارقة عليه جزعاً شديداً .

وتقدم محرز بن هلال أخو عبيدة بن هلال حتى وقف بين الجمعين على فرس له وهو يقول : اللهم إني أسألك الجنة ومرافقة أهل النهران ثم حمل فلم يزل يقاتل مقبلاً غير مدبر حتى قتل ، فاغتم الأزارقة غمّاً شديداً . واستماتوا بعد مقتله فوثب لهم المهلب وصارت الدائرة عليهم وولوا مدبرين واحتوى المهلب على كراعهم وعامة أموالهم .

وعزل عبد الملك بن مروان خالداً وولى بشر بن مروان مكانه . وعزل بشر المهلب عن حرب الأزارقة ، فرجعوا من سابور فارس حتى نزلوا الأهواز فأشار وجوه أهل البصرة على بشر أنه لا يقدر أحد على الأزارقة إلا المهلب فأرجعه على مضض .

فخرج إليهم المهلب بعشرة آلاف فارس من البصرة من الأزدي قومه وثمانية آلاف من أخلاط القبائل ثم سار يريد الأهواز ورحلت الأزارقة من الأهواز حتى لحقت بسابور .

وأقام المهلب في الأهواز ثلاثاً ثم رحل حتى نزل بمدينة رامهرمز في جميع

أصحابه وفي هذه الفترة اعتلّ بشر بن مروان فمات فلما سمع جماعة المهلب ذلك تفرّق عنه بعضهم وبلغ الأزارقة موت بشر ففرحوا لذلك فقام قطري بن الفجأة في الأزارقة خطيباً فقال:

أما بعد يا معشر المهاجرين! فإنّ بشر بن مروان قد مات وتفرّق الناس عن المهلب إلّا قليل منهم وهذا العراق ليس به أمير فهل لكم أن تغنموا الفرصة من المهلب بن أبي صفرة بوقعة تواقعوه بها؟ فلعلنا أن نظفر منه بشيء.

فقام عبدة بن هلال اليشكري فقال: يا أمير المؤمنين! إنّ المهلب لا يقيم بدار مضبعة وقد بقي معه من أصحابه من يثق بهم وهم الذين سرنا إليهم بالأمس فنفونا عن جسر الأهواز حتّى بلغوا بنا إلى سابور.

ولو أنّ المهلب رأى منا تحرّكاً لم نبال أن يسير إلينا فيمن معه فيلقانا كان الأمر له أم عليه.

فقام عبد ربه الكبير فقال: يا أمير المؤمنين! دع عنك كلام عبدة بن هلال فإنّ المهلب لا يبرح من رامهرمز أبداً ولو أقام بها وحده أو يأتيه المدد فإن أردته فهذا وقته ما دامت الخيل قد تفرّقت عنه.

فقام عمرو القنا فقال: يا أمير المؤمنين! دع عنك كلام هؤلاء وأترك المهلب ما تركك وأرده ما أرادك فليس الذي في يده بأعظم ممّا في يديك.

وانك إن خاطرت لم يخاطر لأنّه شيخ العراق ومحرك الحروب غير مدافع.

فقال قطري بن الفجأة أما إنه لولا علمي بأنّ المشورة فيها البركة لما شاورتكم في شيء أبداً غير أنّي أعلم رأيكم إن تركتم المهلب اليوم وطلبتموه غداً ندمتم أشدّ الندامة.

وكتب المهلب إلى عبد الملك بن مروان يعلمه بجموع الأزارقة وشدة بأسهم فجمع ابن مروان وجوه القوم وخطبهم إلى أن قال: فمن للعراق وحرب الأزارقة؟

فسكت الناس وتكلّم الحجاج فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين! فولّني إياها، فقال عبد الملك لكتابه أكتب عهده على العراقيين.

ثمّ كتب إلى المهلب في حرب الأزارقة. وحشر الناس إلى المهلب حشراً واستعمل السيف في من تأخر.

فأقام المهلب على سابور يحارب الأزارقة ليلاً ونهاراً حتى طال الحرب ثلاث سنين كملاء وأزادها سنة ولم تنتهي، وأكثر الحجاج من رسله إلى المهلب لأنه أزعجه طول الحرب.

وإستعر القتال بينهم حتى إنهمزمت الأزارقة ورحلوا عن سابور حتى صاروا على مسيرة عشرين فرسخاً منها. ودخلها المهلب، وكان ذلك الوقت وقت برد وثلج ومطر.

وبينا المهلب يخطب الناس بسابور وذلك في يوم النحر إذ أقبلت الأزارقة في جيش عزمهم يقدمهم عمرو القنا وبلغ ذلك المهلب فقطع الخطبة وأقبل إلى ابنه المغيرة فقال: يا بني دع الناس وعيدهم وأخرج إلى أعداء الله.

فعبئ المغيرة أصحابه وخرج من باب سابور فلما صار إلى باب الخندق وإذا بعمرو القنا وقد تلقاه بجيشه فتقاتلا وجرح فيها عمرو القنا وإنكشف الإزارقة من بين يدي ابن المهلب كشفة فضيحة.

ثم كان بعد الأضحى بثلاثة أيام إذا بالأزارقة وقد أقبلت بخيلها ورجلها مستعدين للموت، واشتد القتال بينهم وكلبت الأزارقة على المسلمين وحمل المهلب بنفسه عليهم فلم يزل يقاتل حتى جرح سبع عشرة جراحة.

وعزمت الأزارقة على أن يبيت المهلب في عسكره فزحفوا في جوف الليل حتى أشرفوا على المهلب على باب سابور وعبيدة بن هلال الشكري أمامهم فقال: أيقظوا القوم لكيلا يقولوا إنا أتيناهم وهم نيام! فاستيقظ الناس ودارت بينهم معركة عظيمة وقتل من الخوارج جماعة.

وجاء عين للمهلب فقال أيها الأمير! إن أردت القوم الساعة فإن القوم قد صاروا إلى شعب بؤان^(١) وتقاتلا القوم فأطبقت الحرب هذه عليهما وكان الفضل للخوارج في أول النهار وللمهلب في آخره.

وارتحلت الخوارج من موضعهم حتى صاروا إلى إصطخر ووافاهم المهلب هناك ودارت الدائرة على الخوارج فانهمزموا إلى إصطخر وتحصنوا بها فحاصرهم المهلب فيها شهراً كاملاً.

(١) بؤان: شعب بين فارس وكرمان معجم البلدان ٢/ ٣٠٠.

وبعدها زحف بعضهم على بعض فأخذ أحدهم يبرز للآخر فيتقاتلان قتالاً منكراً كانت الهزيمة حصة الخوارج والفضيحة.

فهربوا من إصطخر إلى المدينة البيضاء^(١) فوافاهم المهلب فيها فلما التفت الخوارج إلى خيل المهلب قد وافتهم رجعوا إليه وعزموا على الموت فتقدم عبدة بن هلال فحمل عليه بشر بن أخي المهلب فطعنه طعنة سقط عبدة عن فرسه مفضوحاً.

وصاح صالح بن مخراق: يا معشر المهاجرين! موتوا على دينكم وولوني قتال القوم.

وجعل ينادي يا معشر المحليين بشر لبشر ونفر لنفر والله لا برحت أموت أو تموتوا.

فبرز إليه المفضل ابن المهلب فطعنه فانفلت منها وهو يولول.

واشتد القتال وجعلت الخوارج كلما ملّ منهم قوم من القتال تأخروا وتقدم آخرون.

فقال المهلب سبحان الله العظيم!! والله ما رأيت ولا سمعت بمثل هؤلاء القوم ساعة قط كان كل ما ينقص منهم أن يزيد فيهم.

وبعدها ولّى الخوارج مدبرين نحو المدينة البيضاء فحاصروهم المهلب فيها وضيق عليهم غاية الضيق فلما رأوا ذلك خرجوا كالسباع الضارية.

وتقدم عمرو القنا ونازله المفضل بن المهلب فطعنه الأخير وكان في يده لواء الخوارج فسقط منه فأخذه أصحاب المفضل.

فرجع عمرو القنا إلى الحرب ثانية واشتبك القتال بين الفريقين وحمل عمرو القنا على رجل من أصحاب المفضل قد كان اللواء في يده ليأخذه منه وحمل عليه المفضل فضربه ضربه فولّى منهزماً هو وأصحابه حتى دخلوا المدينة البيضاء وذلك في وقت المساء.

وأصبحوا في ذات يوم وقد خرجوا من المدينة في تعبئة لم ير مثلها قبل ذلك إلى حرب المهلب وتقدم رجل منهم يقال له زياد الضبي فجعل ينادي يا معشر

(١) أكبر مدينة في كورة إصطخر المعجم ٣٣٥/٢.

المحليين! هل من مبارز! فحمل عليه الرقاد بن عمرو قطعنه فخرّ منها قتيلاً فضجّ الخوارج بالبكاء عليه.

ثمّ إنهم استماتوا فجعلوا يقاتلون أشدّ القتال إلى أن اختلط الظلام وهكذا حتّى جاءهم الاختلاف فحلّ بساحتهم فصاروا على ثلاث فرق:

فرقة مع صاحبهم قطري بن الفجأة.

وفرقة مع عبد ربه الكبير.

وفرقة مع عبد ربه الصغير.

فوثب رجل منهم يقال له الصلت بن مرّة الأيادي إلى قطري بن الفجأة فقال: يا أمير المؤمنين إنّنا كنّا مرّة أفاعي فأصبحنا اليوم خنافس وقد كنّا أسوداً فأصبحنا ضباعاً وقد أصبح المهلب يرجو منا ما كنّا نرجو منه وقد بلغني أنّك تريد الهرب فإن كنت إنّما تريد الله والدار الآخرة فاثبت ومث حتّى نموت معك وإلاّ فدع أصحابك حتّى يستأمنوا إلى المهلب فإنّه يؤمنهم وإنشأ يقول:

أبقى لنا عبد رب بعد الفتنا طعن الصدور فصرنا ضحكة العرب

فلما سمع قطري ذلك استعبر باكياً ووطّن نفسه على الموت وزحف هو وأصحابه على المهلب وإقتل القوم يومهم ذلك إلى الليل.

وارتحل عبد ربه الكبير وعبد ربه الصغير نحو بلاد كرمان وصار كلّ واحد منهم على حدة.

وارتحل قطري إلى جيرفت، واشتدّ الحصار على قطري وأصحابه بمدينة جيرفت واتصل الخبر بأصحابه أنّه يريد الهرب فقام إليه رجل من الخوارج يقال له عامر بن عمرو السعدي فقال: يا أمير المؤمنين! إنّنا قد بلغنا عنك أنّك تريد الهرب فإن قاتلت قاتلت معك وإن هربت فأنا أبرأ إلى الله منك!

فقال قطري من ههنا إضربوا عنقه! فضرب عنق السعدي فوثب ابن عمّ له فقال له: يا أمير المؤمنين! يكلمك ابن عمّي بكلمة فيها رضى فتأمر بضرب عنقه! لا يجب أن يكون جوابك القتل وعقابك السيف فإنّ الطاغى يوجع والمستعتب يعتب ألا والله لم يبق معك أحد إلاّ فارقك! فإنّ فعالك هذه من فعال الجبارين.

فلما أن جنّ الليل هرب ذلك الرجل في جماعة من الخوارج حتّى صاروا إلى المهلب فاستأمنوه فأمنهم.

فانزعج قطري كثيراً فأرسل إلى من كان معه أن يتهيئوا لحرب المهلب
فأختلطوا وتلاحموا واقتتلوا قتالاً شديداً نسوا ما كان قبل ذلك ولم يزالوا على ذلك
يومين وليلتين .

فلما كان من اليوم الثالث استخبر عبد ربه الصغير بقتال الخوارج مع المهلب
فسار إلى المهلب في جيش لجب وتقاتلوا معه فما انتصف النهار حتى قتل عبد ربه
الصغير وقتل عامة أصحابه وهم أربعة آلاف مقاتل وما إنفلت منهم إلا شردمة
قليون .

ونظر قطري إلى ما قد نزل بعبد ربه الصغير وأصحابه فولى منهزماً ووضع
السيف في أصحابه فقتل منهم مقتلة عظيمة .

ومضى هارباً حتى صار إلى مدينة الري ومعه عبيدة بن هلال ومن تبعهم من
الخوارج .

وافترقوا وقتل فصار قطري إلى ناحية طبرستان ومضى عبيدة قومس في ذيل
جبال طبرستان .

وانضمت الخوارج إلى عبد ربه الكبير فبايعوه بالخلافة وقالوا: نحن معك أو
نفنى عن آخرنا .

فغضب لذلك عطية بن الأسود وخرج من العسكر مخالفاً لعبد ربه وتبعه عبد
ربه في نفر من أصحابه فقال: يا أبا الأسود! ارجع رحمك الله ولا تشق العصا فإن
الناس قد بايعوني فلا تخالف ما عليه إخوانك .

فقال له عطية بن الأسود لا حاجة لي في المقام معك، فحمل عليه عبد ربه
فقطعنه في خاصرته طعنة فقتله ورجع إلى عسكره فلما كان الليل لم يبق أحد من
أصحاب عطية إلا خرج من العسكر وهم يقولون الصلاة خلف عبد ربه حرام بعد
هذا ثم صاروا إلى المهلب فاستأمنوا إليه فأمنهم .

فجمع عبد ربه أصحابه فخطبهم وقال :

أما بعد يا معشر المهاجرين! فإن كنتم فقدتم الرجال فلم تفقدوا الإسلام وقد
أراحكم الله من خمسة أشياء من جفاء قطري بن الفجأة، وأخلاق عبيدة بن هلال
ونخوة عمرو القنا، وغى عبد ربه الصغير، وفتنة عطية بن الأسود، وقد صيركم الله
إلى بصائركم الأولى فاحمدوا الله على ذلك! وقد علمتم أن المهلب قد نزل مدينة

جيرفت واحتوى على غنائم إخوانكم وبني أعمامكم وأنا سائر إليه فسيروا على بركة الله .

فسار عبد ربه الكبير بجيشه حتى شارف جيرفت فخرج المهلب منها كالمنهزم عنها فظن أنه قد انهزم بين يديه .

وشدد المهلب الحصار على جيرفت واشتد القتال بينهما مما ولت الخوارج حتى دخلوا المدينة بشر وعرف أقاموا يومهم ذلك .

فلما أصبح المهلب عبى أصحابه للحرب ودنا من باب جيرفت وبلغ ذلك عبد ربه قام في أصحابه خطيباً فقال :

يا معشر المهاجرين! إن قطري بن الفجأة وعبيدة بن هلال وعمرو القنا وشيعتهم إنما هربوا رجاء البقاء وليس إلى البقاء من سبيل ولقد زحف إليكم القوم وهؤلاء قوم بحدّهم وحديثهم فإن غلبوكم على الحياة فلا يغلبوكم على الموت فانظروا أن لا تبقى الرماح إلا بالنحور والسيوف إلا بالوجوه وتعجلوا قبل أحداث هذه الدنيا وهبوا أنفسكم لله في الدنيا يهبها لكم في الآخرة ولا تيأسوا من النصر فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

فخرجت الخوارج مستميتين وقد عزموا على الموت وصاح عبد ربه بأصحابه : يا معشر المهاجرين! روحوا إلى الله فإن القوم رائحون إلى النار .

فعندها كلبت الخوارج واشتد القتال ونزل عبد ربه عن فرسه فكسر جفن سيفه ونزلت معه الخوارج وكسروا جفون سيوفهم وعزموا على الموت .

فحمل عليهم المهلب حملة واحدة فقتل عبد ربه فيها وقتل معه قريب من أربعة آلاف رجل في ربضة واحدة، وسالت دماؤهم إلى وادي جيرفت حتى احمر ماء الوادي وبقي الباقيون بلا نظام فولّوا هاربين فمنهم من دخل مدينة جيرفت ومنهم من استأمن المهلب فأمنه ومنهم من هرب على وجهه في البلاد .

ودخل المهلب المدينة فاحتوى على ما كان فيها من أمتعة الخوارج ودوابهم وسلاحهم وأموالهم ونساءهم وأولادهم .

وأما من إنفلت من الخوارج أصحاب قطري وعمرو القنا فوجه الحجاج إليهم سفيان بن الأبرد الكلبي فذهبوا إليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً فانتهت المعركة بقتل قطري وعمرو القنا وصالح بن مخراق ولم يفلت من الخوارج إلا واحداً وإسمه

قيس بن الأصم الضبيّ فبعث سفيان برؤوس هؤلاء المارقة إلى الحجاج .

ثمّ سار سفيان بجيشه إلى قومس وكان قد تحصّن فيها عبيدة بن هلال فأجهدهم الحصار فأقبل عبيدة حتّى أشرف من الحصن على سفيان فقال: يا أهل الشام يا عبيد من غلب! يا بقية الأحزاب! إجتمعوا إليّ! فدنا الناس من الحصن فقال: أيما أحبّ إليكم أقرأ القرآن أم أنشدكم الشعر؟ فقالوا: أمّا القرآن فقد حفظناه يا عبيدة بن هلال ولكن أنشدنا شيئاً من شعرك .

فقال عبيدة: يا فسقة يا فجرة يا كفرة! أتختارون الشعر على القرآن .

ثمّ أمر عبيدة بن هلال بباب الحصن ففتح وخرج في أصحابه إلى سفيان فاقتتلوا قتالاً شديداً على باب الحصن ساعة ثمّ نزل عبيدة عن فرسه فعرقبه وكسر جفن سيفه وترك أصحابه ففعلوا كذلك فلم يزل يقاتلون قتال قوم قد يأسوا من الحياة حتّى قتل عبيدة وأصحابه كلّهم في معركة واحدة .

ثمّ أمر سفيان برأس المارق عبيدة ورؤوس أصحابه فجمعت ووجهت إلى الحجاج ووجه بها الحجاج إلى عبد الملك بن مروان .

ومع هذا التقتيل المستمر والإفناء لهم عن بكرة أبيهم نرى لهم بين الحين والآخر وجوداً وتحركاً ومساحة .

* * *

فظهر في الكوفة شبيب بن يزيد من شيبان وأخذ يدعو قبائل العرب فيدعوهم إليه ويوعدهم الغارة فلم يزل كذلك حتّى اجتمع إليه جيش عظيم .

وبلغ ذلك الحجاج فوجه إليه برجل من أهل الشام يقال له عبيدة بن مخراق القيني في ألف فارس فهزمه شبيب وقتل عامّة رجاله .

ثمّ وجه إليه بيزيد بن هبيرة المحاربي في ألفي فارس فهزمه شبيب وقتل عامّة أصحابه .

ثمّ وجه إليه بعبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث فهزمه شبيب وأتى على أصحابه .

ثمّ وجه إليه بزحر بن قيس الجعفي فهزمه هزيمة قبيحة وقتل من أصحابه جماعة .

ثم وجه إليه بعثاب بن ورقاء التميمي فقتله شبيب وهزم أصحابه .
ثم وجه إليه بالطهمان مولى آل بني معيط فقتله شبيب .
فوجه إليه الحجاج بمولى يقال له أبو الورد فقتله شبيب .
ثم وجه إليه بزياد بن عمرو العتكي فهزمه شبيب وقتل عامة أصحابه .
ثم وجه إليه محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله فقتله شبيب .
ثم وجه إليه برجل يقال له الطرس مولى بني تميم فقتله شبيب كذلك أربع
سنين كاملة يهزم عساكر الحجاج ويقتل رجاله .

وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فضاقت عليه الأرض بما رحبت فأمر
الحجاج أن يخرج إليه بنفسه فخرج إليه في عسكر لجب فتزل، بموضع يقال له
السبخة وبلغ ذلك شبيباً فسار إليه في جيشه ذلك فلم يشعر الحجاج إلا وخيل
شبيب قد وافته وهم يقولون: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون! نحن المطالبون
بدماء الأزارقة .

ثم وضعوا السيف في أصحاب الحجاج وهزموا الحجاج ومن معه حتى
أدخلوهم الكوفة ورجع شبيب بأصحابه حتى نزل مدينة الأنبار .

فوجه عبد الملك بن مروان بألف رجل من أهل الشام وبلغ الخبز إلى شبيب
بأن الحجاج قد وافته الجيوش من أهل الشام في أربعة آلاف فارس فأقبل على
أصحابه فقال: ما الرأي عندكم الآن؟

فقالوا: الرأي رأيك يا أمير المؤمنين؟

قال: فإني رأيت أن أكبس الكوفة الليلة لنا أم علينا .

فقال أصحابه: ها نحن معك فافعل ما أحببت .

قال: فاعلفوا إذا خيلكم وحشوها واسقوها ففعلوا ذلك ثم ركب شبيب وركب معه
أصحابه وأقبل نحو الكوفة ومعه أمه يقال لها الجهيزة في امرأة من نساء الخوارج
ومعه أيضاً امرأته غزالة وكانت غزالة من سبي أصفهان فأقبلت ومعها مائتان
 وخمسون امرأة من نساء الخوارج .

فسار شبيب أيضاً في عسكره ومعهم النساء وهن قد تقلدن بالسيوف وفي
أيديهن الرماح .

فكبس شبيب الكوفة ليلاً وقد هدأت العيون فلم يكذب أن دخل المسجد الأعظم فدعا بأمة وإمرأته فأقعهما على المنبر ثم وضع السيف في أهل المسجد من المصلين والحرس فقتلوا بأجمعهم وهو يقول: يا عدو الله! يا بن أبي رغال! يا أخا ثمود! أخرج إلينا والحجاج يقول لغلمانه لا تكلموهم فلعل الله أن يكفينا أمرهم فلم يزل كذلك حتى إذا طلع الفجر قال لبعض أصحابه أذن وأقم فأذن وأقام وتقدم شبيب فصلى بأصحابه فقرأ بهم في الركعة الأولى بآم القرآن والبقرة والثانية بآم القرآن وآل عمران حتى كادت الشمس أن تطلع ثم جلس في المحراب يستبح وأقبلت الخيول من كل جانب حتى أهدقت بأبواب المسجد وهم يقولون لا حكم إلا لله ولو كره المشركون.

وأقبل الحجاج ومعه أربعة آلاف من أهل الشام فخرج إليهم شبيب وأصحابه واضطرب القوم في وسط السوق اضطراباً شديداً فلم يزل يضارب ويطاعن من وقت الغداة إلى الليل حتى انهزم من الكوفة ومضى هارباً على وجهه وقد قتل أصحابه حتى صاروا إلى مدينة الأنبار فنزلها.

وطارده الحجاج فيها ممّا ولّى شبيب منهزماً حتى صار إلى بادرياً وباكسايًا ثم إلى كرمان.

فوجه إليه الحجاج بسفيان بن الأبرد الكلبي فأقبل سفيان حتى نزل على شاطئ الدجيل وأقبل شبيب نحوه فلما أقبل ليعبر الدجيل إلى ما قبله أمر سفيان بالغواصين بجسر الدجيل فقطعوا استدارت السفن فغرق شبيب مع فرسه وسلاحه فأخرجوه من الماء واحتزّوا رأسه ووجه به سفيان إلى الحجاج وقتل أمه جهيزة وإمرأته غزالة وقتل عامة أصحابه. وأسر من بقي فوجه بهم إلى الحجاج فلما وقفوا بين يديه رفع رأسه فنظر إلى شيخ منهم وسيم جسيم فقال له: يا شيخ! اخترت الدنيا على الآخرة؟

قال: كلاً يا حجاج! ولكني اخترت الآخرة على الدنيا بخروجي عليك وعلى صاحبك الفاجر.

فقال الحجاج: إضربوا عنقه.

فقال الشيخ: الحمد لله ولا حكم إلا لله الحمد لله على ما قضى وقدر ولكن لا تعجل يا حجاج فقد قلت بيتين من الشعر أريد أن أختتم بها عملي.

فقال الحجاج: قل ما بدا لك فأنشأ يقول:

أبرأ إلى الله من عمرو وشيعته ومن عليّ ومن أصحاب صفين
ومن معاوية الغاوي وشيعته لا بارك الله في القوم الميامين
ثمّ قدّم فضرب عنقه.

ثمّ قدّم إليه آخر فقال له الحجاج: ما دينك؟
قال: أنا على دين صاحب الفلك.

قال الحجاج: وأنا على دين صاحب الفلك أيضاً فما تقول في عليّ وعثمان؟
قال: كافران، فقدّم ثمّ ضرب عنقه.

ثمّ قدّم إليه آخر فقال له الحجاج ما دينك؟
قال: أنا على دين صاحب الأحقاف.

قال الحجاج: وأنا على دين صاحب الأحقاف فما تقول في عليّ وعثمان؟
قال: كافران جميعاً، فقدّم فضربت عنقه.

ثمّ قدّم إليه رجل فقال له الحجاج: ما دينك؟
فقال: أنا على دين صاحب الحجر.

قال: فما تقول في عليّ وعثمان؟

قال: كافران، فقدّم فضربت عنقه.

وقدّم إليه ثلاثة نفر في جبل وقد شدّت أيديهم على أعناقهم.

قال لهم الحجاج: ما دينكم؟

فقال أحدهم: أنا على دين الذي وفى.

وقال الآخر: وأنا على دين صاحب الأيكة.

وقال الثالث: وأنا على دين صاحب الألواح.

فقال الحجاج: وأنا على دين من ذكرتم.

فقال: ما تقولون في الختني عليّ وعثمان والحواريين طلحة والزبير

والحكّمين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري؟

فقالوا: نقول إنهم كفّار وليس الحكم إلاّ الله ربّ العالمين، فقدّموا فضربت

أعناقهم صبراً.

ثُمَّ قَدَّمَ إِلَيْهِ أُسَيْرَانِ يَحْجُلَانِ فِي قِيُودِهِمَا حَتَّى وَقَفَا بَيْنَ يَدَيْهِ .

فَقَالَ الْحَجَّاجُ لِأَحَدِهِمَا : مَا دِينُكَ ؟

فَقَالَ : أَنَا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا فَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَ بِهِ مِنَ الْعَمَى وَالضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ ، وَعَلَى دِينِ صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ الَّذِي وَلِيَ أُمُورَ النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَكَانَ مُحْمُودًا وَخَرَجَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَفْقُودًا وَعَلَى دِينِ صَاحِبِهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الَّذِي عَاشَ فِي الدُّنْيَا حَبِيبًا ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ سَعِيدًا وَشَهِيدًا .

قَالَ الْحَجَّاجُ : فَمَا تَقُولُ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عِثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ؟

قَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ لَا يَلْتَقِي بِإِسْمِهِ الشَّفْتَانِ .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؟

قَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ آمَنَ صَغِيرًا وَكَفَرَ كَبِيرًا .

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ؟

قَالَ : وَمَا أَقُولُ فِي رَجُلٍ بَيْنَ أَطْبَاقِ النَّيْرَانِ يَنَادِي : يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ ! وَالرَّبُّ عَلَيْهِ غَضَبَانُ !

قَالَ : فَمَا تَقُولُ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مُرْوَانَ ؟

قَالَ : وَمَا الَّذِي أَقُولُ فِي ابْنِ طَرِيدٍ رَسُولِ اللَّهِ وَلَعِينَهُ لَقَدْ أَخْطَأَ خَطِيئَةَ أَطْبَقِ بِهَا السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ بِتَوَلِيَّتِهِ إِيَّاكَ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ فَوَيْلٌ لَهُ مِنْ دَيَّانٍ يَوْمَ الدِّينِ .

قَالَ : دَعْ عَنْكَ هَذَا فَمَا تَقُولُ فِيَّ أَنَا ؟

فَقَالَ : مَا عَرَفْتُكَ إِلَّا عَادِلًا قَاسِطًا .

فَقَالَ الْحَجَّاجُ : قَاتَلَكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ كَأَنَّكَ أَرَدْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾^(١) .

فَقَالَ : هَذَا أَرَدْتُ يَا حَجَّاجُ !

(١) سورة الأنعام : الآية ١ .

قال: وكأنتك أردت قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(١).

قال: هذا أردت يا حجاج.

فقال الحجاج: أخرّوه فأخرّوه فضربت عنقه صبراً.

ثم أقبل على الآخر فردّ ما كان يعتقد صاحبه فأمر به الحجاج فأطلق من قيده وكساه وأحسن إليه.

ثم قدّمت إليه امرأة من نساء الخوارج وكانت من المتكلمات يقال لها أم علقمة.

فقال لها الحجاج: يا عدوة الله! الحمد لله الذي قتل أباك وأخاك وزوجك.

فقالت: نعم الحمد لله الذي قدّمهم إلى الجنة وأخرني بعدهم وقد علمت أنه لم يؤخرني إلا للذنب العظيم قد أتيت.

فقال الحجاج: لأفعلن بك ولأفعلن!

فقالت: ويلك يا حجاج! عليّ تبرق وترعد! والله لقد خفت الله خوفاً جعلك في عيني أصغر من الذباب.

وجعلت أم علقمة تكلم الحجاج وهي منكسة الرأس.

فقال لها الحجاج: إرفعي رأسك وانظري إليّ.

فقالت: إني لأكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

فأمر الحجاج بقتلها فكانت السيوف تأخذها وهي تقول: لا حكم إلا لله حتى بردت.

هذا مختصر أردنا إيراده في تضاعيف هذه المحاولة لنرى من خلاله شخصية هؤلاء المارقة من خلال ما إعتقدوا وثبتوا على ما كانوا يعتقدون ثم شخصيتهم عند المنازلات والمناوشات والحروب التي خاضوها من أجل أن يبقوا حركة في الواقع لها قيمومتها التي انتزعوها من أفكارهم وما كانوا يتبنون.

(١) سورة المدثر: الآية ١٥.

وشاء الله أن لا تطول هذه الردة ويطغى لهم موج وتعظم لهم قضية ذلك
أنهم نتوء فاسد مضر لو إستشرى في جسم الأمة لإنحرفت إنحرافاً شديداً وخرجت
عن الدائرة التي يريد لها الله أن تكون فيها لتبلغ المكان السامق والرفعة والعظمة
من بين أمم الأرض.

فقد هيا لهم المهلب ومن أمثاله فاستأصلوا جذورهم وقطعوا عليهم الطريق
وإن نحن ندرك أن اشتغال الأمويين والعباسيين بهم أدى إلى إغماضهم ولو قليلاً
عن أهل البيت عليهم السلام ورواد مدرستهم.

لأن الأمويين لم يكونوا بالذين هم أحسن من الخوارج إن لم يكونوا أسوء
بكثير إلا أن الخوارج زاحموهم في سلطانهم فكان الجواب لهم منهم هذا الذي
رأيت.

موضوعات الكتاب

١ - الناكثون

٧ وقعة الجمل
٨ المستقبل القريب
١٤ منطق الخليفة الجديد
١٧ يوم العطاء وبدء المعارضة
٢٠ التضحية من أجل المبدأ
٢٢ بلاغ جديد
٢٤ خطوة على طريق الحل
٢٧ العمرة أم الشام والبصرة
٢٩ مع عائشة
٣١ موقف أم سلمة
٣٣ رسالة الأشر إلى عائشة
٣٤ متفرجون ومضحون
٣٧ مسوغات الحرب عند عليّ <small>عليه السلام</small>
٣٩ هذا هو مستوى عائشة
٤١ تقييم لأقطاب المعارضة الناكثة
٤٤ الناكثون في حفر أبي موسى
٤٧ الموقف في البصرة
٤٨ عليّ <small>عليه السلام</small> يتحرك نحو البصرة
٤٩ عليّ <small>عليه السلام</small> في الربرة
٥٣ عليّ <small>عليه السلام</small> في ماء العذيب

٥٥	علي بن أبي طالب في قائد
٥٧	علي بن أبي طالب في ذي قار
٦٠	حفصة وحفصتها الأعمى لعلي بن أبي طالب
٦١	علي بن أبي طالب يصل البصرة
٦٣	رسول الناكثين إلى علي بن أبي طالب
٦٦	بدء المعركة
٧٥	علي بن أبي طالب يطوف على قتلى الناكثين بعد المعركة
٧٨	في البصرة
٨١	إعلان العفو العام
٨٣	رسالته إلى أهل الكوفة بعد معركة الجمل

٢ - القاسطون

٨٧	القاسطون في صفين
٨٨	من البصرة إلى الكوفة
٩١	توزيع المسؤوليات والمهام الإدارية
٩٤	مساجلات من أجل أخذ البيعة والولاء
٩٧	رسول علي بن أبي طالب إلى معاوية
١٠٠	تشاور ومطارحات نظر
١٠٥	خيار الحرب
١٠٦	علي بن أبي طالب يتحرك لقتال القاسطين
١٠٧	رأي المهاجرين والأنصار
١١١٣	الحسن بن علي يستنفران الناس
١١٥	موقف أهل البصرة
١١٦	علي بن أبي طالب يرسل الدفعة الأولى من المحاربين
١١٩	علي بن أبي طالب في النخيلة
١٢٢	المسير إلى الشام حتى بدء المعركة
١٢٨	الخطاب الأخير إلى معاوية

١٣٠	نزول صفين
١٣٣	هدنة مؤقتة
١٣٥	موقف قراء أهل العراق والشام
١٣٧	مكيدة لمعاوية
١٣٩	توقف القتال في المحرم الحرام
١٤١	رسل معاوية إلى علي عليه السلام
١٤٣	النداء للقتال
١٥٤	رؤية عمار بن ياسر
١٥٦	مقتل عمار بن ياسر
١٥٨	مع هاشم المرقال والفتى الغساني
١٦١	أيام حاسمة
١٦٣	فضيحة ابن العاص
١٦٤	الغلام الأسدي العكبر بن جدير
١٦٦	مصرع عبد الله بن كعب
١٦٧	رأي سُر به علي عليه السلام
١٦٩	ليلة الهرير
١٧٣	علي عليه السلام أمام الأمر الواقع
١٧٥	طريقة رفع المصاحف والموقف الأخير
١٧٨	مواقف وآراء
١٧٩	رسائل قبل اختيار الحكمين
١٨٢	اختيار الحكمين وبداية الفتنة
١٨٤	مجادلات في كتابة كتاب الصلح
١٨٦	صورة كتاب الصلح
١٨٨	ما بعد كتاب الصلح
١٩١	من صفين إلى الكوفة
١٩٤	نصائح المسلمين للأشعري

١٩٦	نصيحة علي عليه السلام للحكمين
١٩٨	من تاريخ أبي موسى الأشعري
١٩٩	قرار الحكمين
٢٠٢	اقرأ معاوية
٣ - المارقون	
٢٠٦	حركة الخوارج
٢٠٧	إلحاح سريعة
٢١٦	إشارات وتنبيهات نبوية
٢٢٠	إشارات وتنبيهات علوية
٢٢٥	من آراء الخوارج
٢٣٥	اختلاف الخوارج فيما بينهم
٢٣٨	فتنة الخوارج
٢٤٢	وضع الكوفة
٢٤٥	خلفية حركة الخوارج
٢٤٨	الحوار مع الخوارج
٢٥٢	الأشعث بن قيس وتأجيج الفتنة
٢٥٥	راية أمان
٢٥٦	موقف البصرة والكوفة
٢٥٨	المسير نحو الخوارج وقصة الحرب معهم
٢٦٠	شخصية الخوارج وحروبهم



مَجْمَعُ الْبَحْثِ الْإِسْلَامِيِّ

بَيْرُوت - لُبْنَان

